ياسوناري كاواباتا

رواية يابانية

ضجيج الجبل

ترجمة
صبحي حديدي



* ياسوناري كاواباتا: **ضجيج الجبل**.
* **الطبعة العربية الأولى، ١٩٨٣**.

* **الناشر**: دار التنوير للطباعة والنشر.
ص. ب. **٦٤٩٩ ـ ١١٣** بيروت ـ لبنان.
الصنوبرة ـ أول نزلة اللبان ـ بناية عساف.

ياسوناري كاواباتا

ضجيج الجبل

رواية يابانية

ترجمة
صبحي حديدي



* هذه الرواية هي الترجمة الكاملة للنص الانجليزي:

Yasunari Kawabata: The Sound of The Mountain

مقدمة

إذا كان صحيحاً أن مقاربة الرواية الحدثية تنطوي موضوعياً على فتح ملف «النفس البشرية» باعتبارها مقولة مركزية وقوة ثالثة تنبسط على امتدادي «الواقع الحقيقي والواقع الروائي» فمن الصحيح أيضاً - تاريخياً على وجه أخص - أن الرحلة الطويلة التي قطعها البطل الملحمي في الحكاية الرومانسية على طريق تحوله إلى «شخصية» في الرواية الحدثية كانت مجازاً لرحيله عن «مجتمع بلزاكي» - على حد تعبير انغلز - يرتبط فيه الفرد بالجماعة ارتباط الكلمة بالجملة إلى «عالم» شديد التعقيد تمزقه تناقضات مستعصية، متأصلة وغير عارضة.

لا مناص بالتالي من استمرار مفارقة الرواية - مثلها مثل باقي الأعمال الفنية: إذا كانت تعبر بهذه الدرجة أو تلك عن واقع محسوس وفق أصعدته فهي غير خاضعة لعملية تفكيك تعيدها من جديد إلى صورة الواقع الذي انطلقت منه. أما امتيازها عن الأشكال الفنية الأخرى فيتمثل في أنها تواجهنا مباشرة بمسألة معنى وقيمة شرطنا الاجتماعي والتاريخي الذي يتعذر اجتنابه ما دام النص ذاته يقوم على افتراض وجود الإنسان في حالة تلازم وثيق مع ذاته - فضلاً عن امتلاكه لإرث الماضي وأعباء الحاضر وإرهاصات المستقبل.

بهذه المعاني تبدو رواية الياباني ياسوناري كاواباتا وكأنها تتقرى العالم ذاته الذي تنتمي إليه حقبة الرواية الحدثية، فتحاول اختراق الحجب الكثيفة للنفس البشرية المأزومة، وتوحي بوضع اليد على حركة الفرد الباحث عن مجموع كلّي ما عن تجانس ما وهوية تختفي صورتها وتفاصيلها في أغوار

النفس المثقلة بإسار ماضٍ مثاليٍ طاهر وحصين. لكنها في الوقت ذاته تتوقف بين الحين والآخر عند محطات فاصلة يقطعها البطل الشيخ في مسيرة تحوله من كائن الرومانس المتشبث بقوانين وجوده المرسوم ومواصفات الدور الملقى على عاتقه في ملحمة مصغرة هي أسرته ومجتمعه المحدود، إلى الشخصية المأزومة المعطلة بفعل خارجي له انعكاساته الداخلية ونقاط شموله.

أزمة أوغاتا شنيغو في الرواية لا تقتصر على إحباطات وهزائم وأحزان شيخوخة جسدية وكهولة روحية ونزوع بقاء إنساني مشحـون ـ بل هي تتضخم إلى درجة التدرن حيث يُلقى بها في حاضنـة ضاريـة تستوعب انسحاق الفرد ونأيه عن المجتمع وفقدانه لمعنى الهوية الاجتماعية جنباً إلى جنب مع الإدقاع الوجداني والعاطفي الذي يكاد يبدو سمة عضوية في كامل نسيج الحياة اليومية للأفراد. إنه يراقب انحدار الشخوص المحيطة به: زوجته العجوز المهذارة والغارقة في ركـام الصحف القديمـة ـ وابنه المتهتك السكير الذي يعشق أرملة حرب ويتسبب في حملها متجاهلاً رقة زوجته وحنوها وتوثب روحها الطفلة فيدفع بهـا إلى الإجهاض ـ وابنتـه العصابية المغرورة التي شاركت في انحدار زوجها ثم عانت من انفصالها وإقـدامه عـلى الانتحـار. لكن شينغـو فضـلاً عن ذلـك يـراقب سمـوّ الشخصيات الأخرى الموازية التي تكتسب صفة البديل في أحيان عديدة: كيكوكو زوجة ابنه الجميلة والعطوف والرقيقـة والمتفتحة كـزهور الغـابة العذراء ـ وشقيقة زوجته الراحلة التي لم تبرح خياله الشاب وظلت موضوعاً لرغباته الحسية بين الفينة والأخرى.

الشخصيات من وجهة نظره تخضع لعلاقة تقابل وتنابذ بـين بعضها البعض من جهة، وبينها وبين ذاته المتوترة المتعبة التي ارتهنت في حلمها المتواصل الممض لبصيرة مريضة تراجيـدية ـ فتختلط الشخـوص بالـرمز الطبيعي وتذوب في تزاوجات سيكولوجية مدهشة ومرعبـة ولا معقولـة: العجوز كيتاموتو الذي يصاب بهوس اقتلاع الشعرات البيضاء من رأسه فلا يكاد يقتلع واحدة حتى تبيضّ اثنتان بدلاً عنها إلى أن ينتهي به يأسه إلى

مصحة الأمراض العقلية ثم الموت، وأزهار اللوتس التي أزهرت بعد مرور آلاف الأعوام على رقاد بذورها في مستحاثة ما، مريض السرطان الباحث عن موت سريع لا يخلو من طرافة وسخرية سوداء وبراعم شجرة الكرز اليانعة التي انشقت عنها الجذور الميتة، السير نحو الموت برفقة حطاب غامض في جبل خيالي أسطوري ومراقبة شجرة الصنوبر الصغيرة تقفز من نقطة العدم لتملأ فراغاً موحشاً، إلخ.

صدرت «ضجيج الجبل» عام ١٩٥٤ للمرة الأولى، وهي الرواية التي تعكس على أتم وجه تلك الروح الأسرة التي انفرد بها ياسوناري كاواباتا في الأدب الياباني الحديث... فهي قصيدة مديح لكل ما هو إنساني في الكون، ولأي جانب ينتهي في محصلته الأخيرة إلى رصيد الإنسان وقوته واستمراره. وهي أيضاً الرواية التي تحملت أكثر من أي عمل آخر تلك الفرادة الفنية لكاواباتا: لغة السرد الإيقاعية التي ترتفع قليلاً فقط عن سوية التخاطب اليومي العادي أو «الدردشة» التلقائية العفوية، والتجزيء الدرامي للموضوع الثانوي إلى سلسلة حلقات تصنع كتلة مباغتة من حدث واحد يبدو بسيطاً في مظهره لكنه معقد في بنائه التحتي المستتر، وانقسام هيكل الفصل الروائي إلى بعدين متواشجين: الواقعة الطبيعية (جنين العشيقة، عصاب الابنة المطلقة، طفل كيكوكو المجهضة) والرمز الطبيعي (بيضة الأفعى، نبات الياتسودي الطفيلي، شجرة الصنوبر الوليدة). إنها وثيقة ياسوناري كاواباتا في وجه العاصفة التي تستهدف إنسانية البشر، وهي شهادة تلخصها صلاة بوذية يتذكرها العجوز أوغاتا شينغو في لحظة صوفية:

ها قد لقيت ما هو عصي على اللقيا
ها قد سمعت ما هو عصي على السماع

فاز ياسوناري كاواباتا بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٦٨ بسبب «جمعه في سلسلة رواياته بين البحث الروائي الشاعري عن طبائع الحب والعلاقة الأسرية واليومية وبين اغتراب الفرد في ذلك كله». ولد كاواباتا عام

١٨٩٩، واسترعى الانتباه بروايته الأولى «راقصة ايزو» الصادرة عام ١٩٢٥، ثم توالت أعماله العبقرية التي كرّسته في مصاف أعظم روائيي اليابان: «ريف الثلوج» عام ١٩٤٧ وتصف جملة حالات وجدانية متوترة لفتاة غيشا ريفية وحالة اغتراب أحد عشاقها؛ «ألف من اللقالق» عام ١٩٤٩ وتعالج طقوس الشاي اليابانية واختراق الماضي لأبسط التفاصيل في حياة البشر، «أستاذ لعبة الغو» عام ١٩٧٢ وتسجل ستة شهور من مباريات بطولة اليابان في لعبة تسمى «غو» ويستخدم فيها الحصى بعدد أيام السنة ـ وفي هذه الرواية تؤثر هزيمة البطل العجوز ـ المثقل بتقاليد اللعبة وماضيها وتقاليد اليابان ـ على يد متحديه الشاب إلى افتراق تراجيدي في الحساسية بين جيلين يابانيين ومصيرين وطنيين[1]. أكثر كاواباتا من الترحال والسفر فتأثر كثيراً بالمدرسة الرمزية الفرنسية، وانتهى به وعيه المأساوي ـ الحاد بواقع اليابان الحديث إلى الانتحار عام ١٩٧٢.

صبحي حديدي

(١) نعكف حالياً على ترجمة هذه الرواية، وستصدر قريباً عن دار «التنوير».

ضجيج الجبل

اتخذ أوغاتا شينغو، بحاجبيه المتغضنين قليلاً، بشفتيه المنفرجتين قليلاً، مسحة التفكير العميق. وهي حالة قد لا يدركها الغريب على حقيقتها، فيخال أن أمراً ما أحزن الرجل.

كان ابنه شويشي يعرف ما يجري، فهو قد تكرر مراراً فلم يعد يلقي له بالاً. والحق أن ما ظهر أمامه كان يتجاوز بكثير مجرد استغراق أبيه في التفكير. كان يعرف أن أباه يحاول استعادة شيء ما.

نزع شينغو قبعته، حملها ساهماً بيده اليمنى، أرخاها على ركبتيه، وضعها شويشي على المنصب الذي يعلوه.

«دعني أتذكر. ما الذي كنت أريده؟» كان شينغو يجد الكلام عسيراً في لحظات كهذه. «ما اسم الصبية التي غادرتنا البارحة؟».

«أتقصد كايو؟»

«كايو. هذا هو اسمها. ومتى غادرت؟»

«الخميس الماضي. أي منذ انقضاء خمسة أيام».

«منذ خمسة أيام؟ غادرت منذ خمسة أيام فقط، ولا أستطيع تذكر شيء عنها؟»

كان شويشي يلمس بعض المبالغة في أداء والده.

«كايو تلك ـ يخيل إليّ أنها غادرت منذ يومين أو ثلاثة. حين خرجت للنزهة كانت على قدمي بثرة، وقلت إنني قد أكون مصاباً بالقوباء الحلقية. إنها قرحة القدمين، هكذا أجابتني. أعجبتني. كانت تضع قرطاً رقيقاً عتيق الطراز. أحببتها كثيراً. لكني إذ أفكر بها الآن أجزم أنها تحدثت عن إصابتي بقرحة الجزمة. كان في طريقة حديثها خطأ ما. أنطق كلمة:

قرحة القدمين».

«قرحة القدمين».

«والآن أنطق كلمة: قرحة الجزمة».

«قرحة الجزمة».

«هذا ما ظننته. كان لفظها خاطئاً».

لأنه ينحدر من أصول ريفية، لم يكن شينغو واثقاً يوماً واحداً من اللفظ الفصيح في طوكيو. أما شويشي فقد ترعرع في طوكيو.

«كان صوتها مبهجاً للغاية، شديد الرقة والرزانة، حين تخيلتُ أنها ذكرت قرحة القدمين. كانت تقف هناك في الرواق. يحضرني الآن ما قالته بالضبط، ولا أستطيع حتى التفكير باسمها. لا أستطيع تذكر ثيابها أو وجهها. أخال أنها قضت معنا ستة أشهر أو نحوها؟».

«شيء من هذا القبيل». لقد اعتاد شويشي على هذه المتاعب فلم يمحض أباه أي عطف.

شينغو ذاته بات معتاداً على هذه المتاعب، لكنه مع ذلك يستشعر وخزة أشبه بالفزع. بذل جهده لتذكر الفتاة، لكنه عجز عن تجميع صورتها. مضت الأوقات التي كانت فيها هذه الاستقصاءات العقيمة تمتزج بالعاطفة.

هكذا الأمر الآن. خيل إليه أن كايو، المستندة برفق إلى الأمام في الرواق، كانت تواسيه لإصابته بقرحة القدمين.

مكثت معهم طيلة ستة شهور، وكان بمقدوره استحضار ذكرى تلك الكلمة الوحيدة فقط. أحس عندها أن الحياة تذوي، تضيع.

- ٢ -

ياسوكو ـ زوجة شينغو، في الثالثة والستين، أكبر منه بعام.

رُزقا بابن وابنة، وحفيدتين، بنتي الفتاة فوساكو.

كانت ياسوكو أصغر من عمرها الفعلي. وما كان الناظر ليحسبها أكبر من زوجها. ليس لأن شينغو نفسه بدا عجوزاً بصورة خاصة. كانا يبدوان طبيعيين معاً، أما هو فيلوح عليه أنه أكبر بقليل مما يكون عليه الزوجان العاديان.

لم تكن ياسوكو جميلة. كانت تبدو أكبر منه في سنواتها الأولى، وكان يكره ظهورها معه أمام الناس.

لم يكن شينغو قادراً على تحديد العمر الذي بدأت عنده تبدو أصغر منه. لعلها لحظة ما في مطلع اقترابها من الخمسينات. النساء عموماً يشخن أسرع من الرجال، لكن العكس هو الذي حدث في حالتها.

في السنة الفائتة، السنة التي دخل بها الحلقة الثانية من سن الستين، بصق شينغو دماً من رئتيه كما بدا. لم يكن قد تعرض قبلها لأي فحص طبي، ولقد زال الداء الآن. لم يعد بعدها.

لكن المرض ليس إشارة إلى أنه طعن في السن فجأة، وبصق الدم في عمره أعطاه أحلك النذر. ولعلها جزئياً جعلته يرفض الخضوع للفحص. لم يكن هذا التصرف بالنسبة لشويشي أكثر من رفض عنيد من جانب الشيخ لمواجهة الحقائق. ولم يكن بوسع شينغو الرضوخ.

كانت ياسوكو محبة للنوم. يحدث أحياناً أن ينهض شينغو في منتصف الليل ويغريه دافع تأنيبها على شخيرها الذي أيقظه. لقد شخرت، كما يبدو، مذ كانت فتاة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، فبذل ذووها جهداً مضنياً لجعلها تقلع عن عادتها؛ أقلعت عنها حين زُوجت. ثم عادت إليها من جديد حين تجاوزت الخمسين.

وإذ تأخذ في الشخير يلوي شينغو أنفها محاولاً إسكاتها. فإذا لم يفلح في ذلك أمسك بخناقها وهزّها. في الليالي التي لا يكون فيها صافي المزاج يستثار نفوره من الجسد المسنّ الذي عاش معه زمناً طويلاً.

لم يكن مزاجه طيباً هذه الليلة. حين أشعل الضوء نظر إليها جانبياً وأطبق على عنقها. كانت متسخة بقليل من العرق.

كان يمد ذراعيه ليلمسها حين تشخر فقط. بدت هذه الحقيقة محزنة بلا حدود.

التقط مجلة ملقاة على وسادته. ثم أحس بجو الغرفة الخانق فنهض، فتح مصراعاً وجلس قربه.

كان القمر منيراً.

أحد أثواب كنته معلق في الخارج، ثوب رمادي بغيض. لعلها نسيت جمع غسيلها، أو تركت ثوباً غارقاً بالعرق ليلتقط ندى الصباح.

تعالى صياح الحشرات من الحديقة. كان الجراد متجمعاً إلى الميسرة من جذع شجرة الكرز. لم يكن يعرف أن الجراد يصدر مثل هذا الصوت المخرّش، لكنه كان الجراد دون ريب.

تساءل إن كان الجراد قد عانى من الكوابيس ذات يوم.

طارت جرادة، واستضاءت على شبكة البعوض. لم يصدر عنها صوت حين التقطها.

«خرساء». لعلها لا تنتمي إلى المجموعة التي سمعها على الشجرة.

رماها بكل قوته نحو أعلى الشجرة، لئلا تطير إلى الداخل مدفوعة بإغراء الضوء. لم يشعر بشيء فوق يده حين أطلقها.

قبض على المصراع ونظر إلى الشجرة. لم يكن واثقاً فيما إذا كانت الجرادة قد استقرت هناك أم طارت. عمق هائل يكتنف هذه الليلة المقمرة، عمق هائل ينبسط على الجانبين.

ورغم أن شهر آب كان في أوله فقط شرعت حشرات الخريف في الغناء. تراءى له أنه قادر على تفحص قطرات الندى من ورقة إلى أخرى.

ثم سمع ضجيج الجبل.

كانت ليلة ساكنة الريح. القمر يكاد يكتمل، لكن الغبش والجو الخانق أحاطا أهداب الشجر الملتف حول الجبل بالغشاوة، لكنها على كل حال، ليلة جامدة ساكنة الحركة.

ما من ورقة واحدة ترتعش في السرخس القريب من الشرفة.

كان البحر يسمع بين ليلة وأخرى، في فجوات جبال كاماكورا هذه. تساءل شينغو هل سمع صوت البحر. ولكن كلا، إنه ضجيج الجبل.

كان أشبه بالريح، بعيداً متنائياً، عميقاً كدمدمة الأرض. ظن أن الصوت يضج في داخله، ظنه رنيناً يصمّ أذنيه، فهزّ شينغو رأسه.

انقطع الصوت. اعتراه الخوف بغتة وعبرته رعشة باردة، كأنه أُبلغ بدنو الموت. أراد سؤال نفسه، بهدوء وتصميم، هل كان الصوت للريح،

الصوت للبحر، أم الصوت في أذنيه؟ لكنه لم يسمع ذلك الصوت، هو واثق. لقد سمع الجبل.

كأن الشيطان عبر، ليجعل الجبل يصيح.

المنحدر السحيق، الغارق بظلال الليل الحالكة، كان شبيهاً بجدار أسود، رابية صغيرة من الجبل، هذا كل ما كان في حديقة شينغو، كانت أشبه بالبيضة المقطوعة إلى نصفين.

هناك جبال أخرى وراءها ومن حولها، لكن الصوت بدا وكأنه ينحدر عن جبل خاص في مؤخرة منزل شينغو.

النجوم تضيء من ذرى الأشجار المروّسة.

حين أغلق المصراع خامرته ذكرى غريبة.

قبل عشرة أيام كان ينتظر ضيفاً في مطعم حديث البناء. كانت معه فتاة غيشا واحدة. تأخر الضيف وكذلك الغيشا الأخرى.

«لماذا لا تحل ربطة عنقك» قالت له. «لا بد أنك تشعر بالحرارة».

أومأ شينغو برأسه وترك لها أن تحـلّ الربطة.

لم تكن غيشا يعرفها بصورة خاصة، لكنها حين طوت الربطة ووضعتها في جيب معطفه، الملقى قرب فجوة الجدار، حوّلت الحديث إلى مسائل شخصية.

قالت إنها منذ شهرين كادت تقدم على الانتحار مع النجار الذي بنى المطعم، لكنهما حين استعدا لتجرع السم ساورتها الشكوك، هل كانت نسب مزج السم مميتة؟

«قال إنها كافية. الجرعات كلها وزنت لي وله كما قـال ـ وهذا هـو الدليل». لكنها لم تكن لتصدقه. تضاعفت شكوكها فقط.

«سألته عمن قام بوزنها. لعل أحدهم وزن ما يكفي لإصابتنا بالمرض وتلقيننا درساً. سألته عن اسم الصيدلي أو الطبيب الذي أعطاه إياها، لكنه لم يبح بشيء. أليس الأمر غريباً؟ ها نحن سنموت معاً. لماذا لا يجيبني؟ من سيعرف في نهاية الأمر؟».

«حكاية مرتبة» أراد شينغو أن يقول.

تابعت تقول إنها ألحّت من جديد على تكرار المحاولة بعد عثورها على من يضع لها الأوزان.

«إنني أحتفظ بها الآن».

اعتبر شينغو الحكاية غريبة. لم يرشح في ذهنه سوى أن الرجل نجار وأنه بنى المطعم.

أخرجت الغيشا مظروفين من محفظتها وفتحتهما له.

اكتفى بإلقاء نظرة خاطفة عليهما. لم يكن يتقن طريقة لتمييز السم عن غيره.

حين أغلق المصراع تذكر فتاة الغيشا.

عاد إلى السرير. لم يوقظ زوجته ليخبرها بالرعب الذي اجتاحه عند سماع ضجيج الجبل.

- ٣ -

يعمل شويشي وشينغو في المؤسسة ذاتها. الابن يعمل بمثابة الملقن للأب.

هناك ملقنون آخرون أيضاً، ياسوكو وكيكوكو - زوجة شويشي - الثلاثة يعملون معاً كفريق ملحق بقوى ذاكرة شينغو. الفتاة العاملة في المكتب كانت ملقنة أخرى إضافية.

حين دلف إلى مكتب شينغو، تناول شويشي كتاباً من المنصة الصغيرة في إحدى الزوايا، وأخذ يقلب الصفحات.

«جميل، جميل» قال متجهاً نحو مكتب الفتاة وأشار إلى صفحة مفتوحة.

«ما هذا؟» قال شينغو مبتسماً. أحضر شويشي الكتاب لأبيه.

«لا يفهم المرء كيف ضاع معنى العفّة هنا»، هكذا تحدث المقطع المذكور.

«ليس أمامنا سوى وسيلة نطيل بها الحب، الرجل لا يحتمل آلام عشقه لامرأة، المرأة لا تحتمل آلام عشقها لرجل، عليهما الانطلاق بسعادة للبحث عن شركاء آخرين، علّهما بذلك يجدان طريقة تجعل قلبيهما أشد ثباتاً».

«أين تقع هذه الـ «هنا»؟

«باريس. إنها وقائع رحلة الروائي إلى أوروبا».

لم يعد ذهن شينغو متوقداً كما كان في السابق ليفهم الكناية والأمثال. لكنه على أية حالة لم ير فيما سمعه شيئاً من كليهما. الأمر ببساطة أكثر اقتراباً من الرؤيا الخارقة.

لم يتأثر شويشي بالنص. لقد وجد طريقة، جاءت عفو الخاطر، يلمح من خلالها للفتاة كي ترافقه بعد العمل.

حين صعد إلى القطار في كاماكورا، وجد شينغو نفسه وهو يتمنى لو عاد إلى البيت برفقة شويشي أو بعده ربما.

كانت الحافلة مكتظة بالعمال الرُحّل. قرر السير على قدميه.

أومأ تاجر السمك محيياً حين وقف شينغو بباب المحل. دلف إلى الداخل. كان الماء في حوض القريدس معكراً بلون أبيض. نخس سرطاناً بحرياً. ينبغي أن يكون حياً، لكنه لم يتحرك. قرر شراء الحلزون الكبير، الذي تتوفر منه كمية كبيرة.

لكنه شعر بالحيرة حين سئل عن العدد الذي يريده.

«حسناً ـ اجعله ثلاثة ـ ثلاثة من أكبرها».

«هل أكشطها لك يا سيدي؟»

قطع تاجر السمك وابنه اللحم بسكين الجزار ـ كره شينغو أصوات التقشير على الصَدَفة.

كان الرجل يغسل السمك ويقطعه حين توقفت فتاتان أمام المحل.

«ماذا ستأخذان؟» سألهما، مواصلاً حزم اللحم.

«سمك الرنكة».

«كم العدد؟».

«واحدة».

«واحدة؟».

«نعم».

«واحدة فقط؟».

لم تكن أسماك الرنكة هي الأصغر بين الأسماك الموجودة، لكنها أكبر بقليل فقط من أسماك المنوة. لم يبد على الفتاة أنها تراجعت إزاء مسحة الاستنكار تلك.

تناول الرجل الرنكة في قطعة من الورق وأعطاها للفتاة.

«لكننا لا نحتاج إلى السمك» قالت الفتاة الثانية وهي تحدج الأخرى وتلكز مرفقها.

«لا ندري - هل ستظل متوفرة حتى يوم السبت» قالت الأولى. كانت ترقب السرطان. «صديقي يحبها بعض الشيء».

لزمت الثانية الصمت.

استرق شينغو نظرة دهشة.

عاهرات من نوع جديد، ذوات أرداف عارية، أحذية قماشية وأجسام جميلة.

جمع تاجر السمك اللحم في منتصف اللوح الخشبي ثم قسّمه إلى ثلاثة أجزاء، وبدأ يعيده إلى الأصداف.

«بدأنا نرى المزيد فالمزيد من نوعهن. حتى هنا في كاماكورا».

نوجىء شينغو بهذه الخشونة المثيرة للغرابة. «لكني أظنهما تصرفتا بصورة لائقة بعض الشيء»، قال محتجاً على شيء لا يعرفه حقاً.

فكر شينغو فجأة أن الرجل كان يعيد اللحم إلى الأصداف بصورة عشوائية جعلته لا يرتاح إلى رؤيتها تتجمع ثانية في الأصداف ذاتها التي خرجت منها. كان يحس بأدق تفاصيل الأناقة.

اليوم هو الخميس. يومان آخران قبل السبت. ولكن سيتوفر الكثير من السرطان حتى ذلك الحين، حدَّث نفسه متسائلاً كيف ستعدّ الصبية الخرقاء طعام السرطان لصديقها الأمريكي؟ يطهى السرطان ببساطة رغم كونه طبقاً بليداً، مقلياً أو مسلوقاً أو مشوياً.

شعر شينغو بمسؤولية تامة تجاه الفتاتين، لكنه وقع فيها بعد فريسة أحاسيس غامضة من القنوط.

عائلته تتكون من أربعة أشخاص، لكنه ابتاع ثلاثة حلزونـات. لم يتصرف بصورة كلية خارج حدود الاعتبار لكيكوكو، رغم معرفته بالطبع أن شويشي لن يكون على العشاء، لقد شطب شويشي ببساطة.
من بقالية مجاورة اشترى جوز الغينكغو.

- ٤ -

كان ابتياع شينغو للطعام في طريقه إلى البيت أمراً طارئاً، لكن ياسوكو وكيكوكو لم تظهرا الدهشة.
لعلهما رغبتا في إخفاء أفكارهما عن حقيقة غياب شويشي، الذي كان سيرافقه. حين سلم مشترياته لكيكوكو، تبعها إلى المطبخ.
«قليل من الماء من فضلك، ممزوجاً ببعض السكر». مضى إلى الصنبور بنفسه. كانت أسماك القريدس والسرطان في الحوض. صعقته المصادفة. لقد رآها عند تاجر السمك، لكنه لم يفكر بشرائها.
«لونها حسن». كان للقريدس رونق طازج.
كسرت كيكوكو جوزة غينكغو بأسفل مقبض السكين.
«فكرة لطيفة. لكني أخشى ألا تكون طيبة».
«أوه؟ لقد حسبت أن الموسم قد فاتها قليلاً».
«سأنادي البقال وأخبره».
«لا تزعجي نفسك. كل هذا السمك ـ لقد ظننت أن مساهمتي لن نضيف شيئاً».
«قد نفتح مطعماً على شاطىء البحر». أظهرت كيكوكو طرف لسانها في سخرية ملطفة. «هيا الآن. سنسلق هذه بلحمها وصدفها. قد يكون علينا شواء السرطان وقلي القريدس. سأذهب لشراء بعض الفطر. هل تسمح خلال ذهابي بإحضار بعد الباذنجان من الحديقة؟»
«سأكون مسروراً».
«باذنجان صغير. أحضر بعض المريمية أيضاً. لا أدري هل سيكفي القريدس لوحده».

وضعت كيكوكو حلزونين فقط على المائدة.

«هناك حلزون ثالث» قال شينغو، ببعض الارتباك.

«أوه يا عزيزي. كلاكما أسنانه متعبة يا جدي ـ ظننت أنك قد ترغب في تقاسم حلزون واحد مع الجدة».

«لا أرى أحداً من الأحفاد هنا».

أطرقت ياسوكو وكتمت ضحكتها.

«أنا آسفة». نهضت كيكوكو بخفة ومضت إلى المطبخ لتحضر الحلزون الثالث.

«ينبغي لنا الامتثال لما قالته كيكوكو» ردت ياسوكو. «نتقاسم حلزوناً فيما بيننا».

فكر شينغو أن كلمات كيكوكو كانت رزينة ولائقة. كأن مشكلته المتمثلة في شراء ثلاثة أو أربعة قد أزيحت تماماً. إن لباقتها ومهارتها تفوقان التقدير.

ربما كان منتظراً منها الحديث عن ترك حلزون لشويشي، أو تقاسم واحد مع ياسوكو، لعلها أخذت هذه الاحتمالات بعين الاعتبار.

«ألم تجد غير هذه الحلزونات الثلاثة في المخزن؟» سألت ياسوكو، غير متنبهة لمثل تلك المقاصد الماكرة. «لقد اشتريت ثلاثة فقط، ونحن أربعة».

«لم نكن بحاجة للمزيد. شويشي لم يعد إلى المنزل».

ارتسمت على وجه ياسوكو ابتسامة أريد لها أن تكون ساخرة، لكنها بتأثير العمر ربما انتهت إلى شيء أقل من تلك.

لم يعتمل وجه كيكوكو بأية علامة، ولا هي سألت عما حلّ بشويشي.

كانت الصغرى بين ثمانية أنجاب.

السبعة الآخرون تزوجوا أيضاً، وأنجبوا مراراً عديدة. كان شينغو يفكر أحياناً بما ورثته عن أهلها من خصوبة.

اعتادت معاتبته لتقصيره في حفظ أسماء أشقائها وشقيقاتها. أما هو فكان أبعد ما يكون عن تذكر أسماء أبناء عمها وأبناء خالها. لقد ولدت في زمن لم تعد فيه أمها ترغب في الإنجاب أو تظن نفسها قادرة عليه. والحق أن

أمها شعرت بالخجل - في سنها ذاك، وفكرت في الإجهاض. كانت ولادة عسيرة، وقد أطبقت الكلاليب على رأس كيكوكو.

علم شينغو من كيكوكو أنها سمعت هذه الحقائق من أمها.

كان صعباً عليه أن يفهم كيف تفضي الأم بهذه الأشياء إلى ابنتها، أو إلى فتاة قد تبوح بها إلى حميها.

أرخت كيكوكو شعرها إلى الوراء لتظهر ندبة على جبهتها.

وأخذت الندبة تزيد تقرّبه منها كلما أتيح له ذلك.

ولكن يبدو أن كيكوكو نشأت على أساس أنها مدلّلة الأسرة، كما يبدو. لم تفسد بمعنى دقيق، لكنها أخذت تلتمس العطف. وكان يعتريها قليل من الضعف.

حين جاءت كعروس للمرة الأولى لاحظ شينغو طريقتها العفوية والجميلة في تحريك كتفيها. كانت الحركة تنطوي برأيه على غنج طافح فتي.

شيء ما في الجسد اللدن جعله يفكر بشقيقة ياسوكو.

كان شينغو في صباه مشدوداً بقوة إلى الشقيقة. بعد وفاتها ذهبت ياسوكو للعناية بالصغار. انهمكت ياسوكو كلياً في العمل، كأنها تمنت الحلول محل أختها. صحيح أنها كانت مغرمة بالصهر، وهو رجل وسيم، لكنها أيضاً كانت تحب اختها، امرأة رائعة الجمال تجعل المرء لا يكاد يصدق انتماء الأختين لأم واحدة. كانت ياسوكو ترى في أختها وصهرها رمزين يمتّان إلى عالم الحلم.

تفانت كثيراً في العناية بصهرها والصغار، لكن الرجل تصرّف وكأنه غير عابىء بأحاسيسها، وانغمس في الملذات، فأصبحت التضحية بالذات مهنة ياسوكو. وهكذا تزوجها شينغو.

مرت الآن أكثر من ثلاثين سنة، وشينغو لا يعتبر الزواج خطيئة. زواج طويل لا تحكمه أصوله بالضرورة.

لكن صورة الأخت رسخت في ذاكرة الإثنين. لم يتحدث عنها، ولم ينسها. لم يكن من شيء ذي خصوصية مَرَضية حول حقيقة أن ذكريات

شينغو، بعد حلول كيكوكو في البيت، اخترقتها لحظات إشراق كوميض البرق.

بعد مضي أقلّ من سنتين على زواجه بها، أخذ شويشي يجد امرأة أخرى المرة تلو المرة، وكان هذا مصدر دهشة لشينغو.

على العكس من شينغو ذاته، الذي تربى في الأرياف، لم يظهر شويشي دليلاً على تجرده من مسائل الحب والرغبة. وليس بمقدور شينغو أن يحدد متى نال ابنه امرأته الأولى.

كان شينغو واثقاً أن من تجذب انتباه شويشي الآن لا بد ستكون امرأة أعمال، وربما من أصناف العاهرات:

كان يشك في أن علاقاته بالنساء داخل المكتب تتجاوز مجرد الرقص بعد العمل، أو طرائق صرف انتباه والده عنه.

في أية حالة، لا تكون الفتاة من النوع اللائق الذي يواجهه الآن. كان شينغو في بعض الأحيان يستشف مثل هذه الحقائق من كيكوكو ذاتها. ولقد تنامى نضج في العلاقات بين كيكوكو وشويشي منذ بدء العلاقة. وطرأ تغير على جسد كيكوكو.

حين استفاق ليلاً ـ ليلة تناولهم المحار ـ سمع شينغو صوت كيكوكو لا كما سمعه من قبل. خامره الشك في أنها لا تعرف شيئاً عن عشيقة شويشي.

«وهكذا قدّم الأب أعذاره، بواسطة المحار» تمتم لنفسه. كيف حدث أنها ـ رغم جهلها بالمرأة الأخرى ـ تشعر بفيضانات عارمة تكاد تجرفها في ثورتها؟

أغفى شينغو، رحل الفجر بغتة. مضى ليتصفح الجريدة. لا يزال القمر ساطعاً. سقط نائماً من جديد بعد إلقاء نظرة على الأنباء.

- ٥ -

شق شويشي طريقه داخل القطار وتخلى عن مقعده لشينغو حينما لحق به الأخير.

ثم ناوله جريدة المساء وأخرج عدسات شينغو من جيبه. كانت لشينغو عدساته الخاصة، لكنه ينساها مراراً. وهكذا أودع واحدة احتياطية لدى شويشي.

دنا شويشي من الجريدة. «قالت تانيزاكي اليوم أن زميلتها في الدراسة تبحث عن عمل. نحن بحاجة إلى فتاة كما تعلم. قلت في نفسي لعلنا نستخدمها؟»

«ألا ترى بعض الخطورة في استخدام صديقة تانيزاكي هنا؟».

«خطورة؟».

«قد تسمع شيئاً من تانيزاكي وتنقله إلى كيكوكو».

«ما الذي ستنقله؟».

«حسناً، افترض أنه من الأفضل استخدام فتاة ذات توصية مناسبة».

تحول شينغو إلى الجريدة.

«هل تحدثت تانيزاكي عني؟» سأل شويشي وهما يهبطان في كاماكورا.

«لم تقل شيئاً. أتخيل أنك أخرستها».

«أوه. ممتاز. لنفرض أن شيئاً ما يدور بيني وبين سكرتيرتك. سوف تصبح أضحوكة المكتب».

«بالطبع. تأكد، إذا سمحت، أنها لا تكشف شيئاً لكيكوكو».

لم يبد على شويشي أنه معني بالسرية. «تانيزاكي تتحدث إذن».

«تعرف أن لك صديقة. وأتخيل أنها تريد مصاحبتك هي أيضاً».

«ربما. قد تكون الغيرة نصف مشاعرها».

«رائع».

«سوف أقطع العلاقة. أحاول قطع العلاقة».

«لا أفهمك. حسناً. دعني أعرف كل شيء يوماً ما».

«بعد قطع العلاقة».

«لا تدع كيكوكو تعلم».

«لعلها علمت بها».

غرق شينغو في صمت مطبق.

تواصل الأمر لحظة العشاء. غادر المائدة على نحو مفاجىء ومضى إلى غرفته.

أحضرت كيكوكو البطيخ الأحمر.

«نسيت الملح» قالت ياسوكو لاحقة بها. جلست الإثنتان على الشرفة. «لقد نادتك كيكوكو مراراً. ألم تسمعها؟».

«كلا. كنت أعلم بوجود البطيخ الأحمر في صندوق الثلج».

«لعله مستاء من شيء ما». التفتت كيكوكو إلى حماتها.

لزم شينغو الصمت برهة. «لقد أصيبت أذني ببعض الاضطراب في الأيام القليلة الماضية، كما أظن. ليلة أمس فتحت المصراع لإدخال بعض الهواء النقي، ثم سمعت الجبل يصطخب. كنت أنت غارقة في الشخير.

نظرت ياسوكو وكيكوكو نحو الجبل.

«هل تزمجر الجبال؟» سألت كيكوكو. «لكنك قلت شيئاً ما ذات مرة يا أماه، أتذكرين؟ قلت إن الأب سمع ضجيج الجبل قبل وفاة شقيقتك».

ارتجف شينغو. لن يغفر لنفسه أنه لم يتذكر. لقد سمع صخب الجبل، فلماذا لم تعاوده الذكرى؟

كان واضحاً أن كيكوكو تأسفت لإبداء ملاحظتها. سكن كتفاها الجميلان وتوقفا عن الحركة.

أجنحة الجراد

عادت الإبنة فوساكو إلى البيت برفقة طفلتيها.

«قد تكون هناك واحدة أخرى على الطريق» قال شينغو بصورة عرضية، وهو يعرف أن وجود الطفلة الكبيرة ذات السنوات الأربع والأخرى الصغيرة التي لم تتجاوز عامها الأول لا يترك مجالاً للمزيد.

«سألت السؤال ذاته البارحة». أرقدت الطفلة الصغيرة على ظهرها وبدأت تحمل قماطها. «وماذا عن كيكوكو؟».

جاء سؤالها عرضياً أيضاً، لكن وجه كيكوكو ـ وهي تتفحص الطفلة عن كثب ـ اكفهر فجأة.

«دعيها كما هي لبعض الوقت»، قال شينغو.

«اسمها كونيكو، وهي ليست نكرة. ألم تسمّها أنت بنفسك؟». شينغو وحده، كما يبدو، أدرك التعبير المرتسم على وجه كيكوكو. لكنه لم يسمح له بإزعاجه. كان مأخوذاً بحركات الساقين الصغيرتين المتحررتين.

«نعم، دعيها» قالت ياسوكو. «تبدو في أوج سعادتها. لا بد أنها كانت تشعر بالدفء». دغدغت أو صفعت بطن الطفلة وفخذيها. «لماذا لا نرسل أمّك وأختك الآن، لتروّحا عن نفسيهما قليلاً؟».

«هل أحضر اللفائف؟» نهضت كيكوكو باتجاه الباب.

«لقد أحضرناها معنا» ردت فوساكو. بدا أنها تريد المكوث لبعض الوقت.

تناولت فوساكو اللفائف والثياب من منديل ملفوف. الابنة الكبيرة، ساتوكو، وقفت وراءها، التصقت بها متجهمة. لم تنطق ساتوكو بكلمة منذ

وصولهم. كان شعرها الأسود الكث يلفت الأنظار.

رأى شينغو المنديل من قبل، لكنه لم يذكر إلا وجوده ذات مرة في البيت. ولا يعرف متى كان ذلك.

غادرت فوساكو المحطة، حاملة كونيكو على ظهرها، وساتوكو تشد ذراعها وتحمل المنديل باليد الأخرى. فكّر شينغو أن المشهد كان مبهجاً.

لم تكن ساتوكو طفلة سهلة القياد. لها طريقتها في التعبير عن صعوبة المزاج خصوصاً حين تبدو الأمور معقدة بالنسبة لأمها.

تساءل شينغو هل تضايقت ساتوكو من محافظة كيكوكو على هندام حسن بالقياس إليها هي؟

أخذت ساتوكو تدلِّك بقعة محمّرة على باطن فخذ الطفلة. ومضت فوساكو للاستحمام. «لا أدري، تبدو أحياناً أسهل قياداً من ساتوكو».

«ولدت بعد أن أخذت الأمور تسوء مع والدها». قال شينغو. «حدث كل شيء بعد ولادة ساتوكو، وكان لذلك تأثير عليها».

«هل تعي طفلة في الرابعة من عمرها؟»

«أعتقد ذلك ـ وتتأثر بما حولها أيضاً».

«أظنها ولدت هكذا، كما هي».

انقلبت الطفلة على بطنها بعد بذل الجهد في التقلب والالتواء. زحفت، أبصرت الباب فوقفت لا تريم.

«لنذهب في نزهة، كلانا فقط» قالت كيكوكو ممسكة بالطفلة من يديها وسائرة بها إلى الغرفة الثانية.

قفزت ياسوكو من فورها إلى المحفظة القريبة من أشياء فوساكو وفتحتها.

«ماذا تظنين أنك فاعلة بحق الشيطان؟» همس شينغو متسائلاً، لكنه كان يرتعش ضيقاً. «توقفي. توقفي أقول لك».

«ولماذا أتوقف؟» ظلت ياسوكو هادئة.

«قلت لك توقفي. ما الذي تقدمين عليه؟» كانت يداه ترتجفان.

«لا أنوي سرقة شيء».

«تفعلين ما هو أسوأ من السرقة».

أعادت ياسوكو المحفظة. بقيت جالسة قربها. «وما الخطأ في الاهتمام بشؤون ابنتك أنت؟ لعلها قدمت إلينا وليس معها ما يكفي من النقود لشراء الحلوى للأطفال. أود معرفة أحوالها. هذا كل ما في الأمر».

حدق شينغو بها.

عادت فوساكو من الحمام.

«ألقيت نظرة على محفظتك يا فوساكو» قالت ياسوكو لحظة دخول ابنتها إلى الغرفة. «ولذا نلت توبيخاً من أبيك. كنت على خطأ. استمحيك المعذرة».

«كنت على خطأ إذاً!»

هذه الطريقة في كسب ثقة فوساكو أثارت حفيظته أكثر.

سأل نفسه إذا كان صحيحاً، كما توحي طريقة ياسوكو، أن هذه الحوادث روتينية بين الأم وابنتها، كان يتميز غيظاً، وأخذ تعب السنين ينثال على وجهه.

حدجته فوساكو بنظرها. قد يكون ممكناً أنها تشعر بالدهشة من سلوك أبيها أكثر من أمها.

«أرجوك. واصلي التفتيش! تفضلي!» قالت وهي تقذف الكلمات وترمي بالمحفظة عند ركبة أمها.

لم يفعل سلوكها شيئاً لتخفيف سخطه.

لم تتناول ياسوكو المحفظة.

«ليس بمقدوري الفرار دون نقود ـ هكذا فكر ايهارا. ما كنت سأفرّ دون نقود. لا شيء فيها بالطبع. هيا، فتشيها».

تهاوت كونيكو فجأة، فأنهضتها كيكوكو التي ظلت ممسكة بيديها.

رفعت فوساكو بلوزتها وألقمت ثديها للصغيرة. لم تكن امرأة جميلة، لكنها تمتلك جسداً جميلاً. كان جذعها منتصباً وثديها الطافح بالحليب صلباً.

«هل شويشي غائب في مكان ما؟» سألت. «حتى يوم الأحد؟»

بدا أنها تشعر بضرورة القيام بشيء ما لتخفيف التوتر.

- ٢ -

ما كاد شينغو يبلغ البيت حتى اشرأب ببصره إلى عباد الشمس قرب منزل مجاور.

كان يقف تحت الأزهار مباشرة، وهي تتدلى فوق المدخل.

توقفت ابنة الدار وراءه. كانت تستطيع الاندفاع أمامه ودخول البيت، لكنها انتظرت في مكانها لأنها تعرفه.

«يا لها من أزهار كبيرة» قال حين لمحها. «أزهار ممتازة».

ابتسمت الفتاة - بشيء من الخجل.

«لقد ضغطناها في زهرة واحدة لكل نبتة».

«أوه! هذا ما يجعلها تبدو كبيرة جداً. هل أزهرت منذ زمن طويل؟»

«نعم».

«منذ متى؟»

لم تجب الفتاة. كانت في الثانية أو الثالثة عشرة من عمرها. بدت مستغرقة في مراجعة صامتة، تطلعت إلى شينغو، ثم تطلعا معاً إلى الأزهار. كان وجهها مستديراً ومسمّراً، وكانت نحيفة الذراعين والساقين.

فكر شينغو في إفساح الطريق لها، فنظر إلى الشارع. هناك المزيد من زهرات عباد الشمس على بابين أو ثلاثة أخرى، ثلاث زهرات في كل نبتة. كان حجم البراعم يبلغ نصف حجم هذه.

حين تابع سيره شخص ببصره ثانية.

كانت كيكوكو تناديه، تقف وراءه في الحقيقة. سويقات فول الصويا تطل من حقيبة التبضّع.

«كنت تتأمل عباد الشمس؟»

عاد إلى البيت دون شويشي - بسبب اهتمامه بها دون شك - أكثر من إعجابه بعباد الشمس. ما كاد يصل إلى البيت حتى أخذ يتملى عباد الشمس بنفسه.

«إنها نماذج رائعة»، قال. «كرؤوس أناس مشهورين» أومأت كيكوكو ـ بطريقة تلقائية.

لم يشحن شينغو كلماته بأية أفكار. خطرت له المقارنة بكل بساطة. لم يكن يبحث عن مقارنة ما.

لكنه بهذه الملاحظة أحسّ أن عفويتها تنطوي على قوة الرؤوس المزهرة، الثقيلة، العظيمة. أحس بالانتظام والتناسق وراء تجمعها قرب بعضها. كانت الأوراق أشبه بالتيجان، والجزء الأكبر من القرص الأوسط مسوّر بالسداة، مجموعة السداة، التي بدأت تشق طريقها بقوة ثابتة. لكنه لم يقصد الايحاء بأنها تقاتل بعضها البعض. كانت متآلفة متسقة، وبدت القوة تتدفق منها.

الأزهار في محيطها أكبر من الرأس الإنساني. لعل الترتيب الشكلي للحجم هو الذي جعل شينغو يفكر بالدماغ.

قوة الطبيعة الكامنة في داخلها جعلته يفكر بالرمز العملاق للذكورة، لم يكن يعرف هل كانت ذكوراً أم لا، لكنه اعتبرها هكذا بطريقة ما.

خبت شمس الصيف، وسكن نسيم المساء

كانت الأوراق ذهبية، كالمرأة.

سار مبتعداً عن عباد الشمس، متسائلاً هل دفعه مجيء كيكوكو لمقاربة أفكار غريبة.

«لم يكن رأسي صافياً تماماً خلال الأيام القليلة الماضية. هذا هو السبب في أن عباد الشمس جعلني أفكر بالرؤوس. أتمنى لو كان رأسي صافياً مثلها. كنت أفكر في القطار، ترى هل يعثر المرء على طريقة ينظف بها رأسه وينعشه؟ لعله يكتفي بقطعه، لكنه عمل عنيف. قد يفصله فقط ويسلمه لمستشفى جامعة ما كما يسلم كومة غسيل. ربما هتف المرء: دبّروا لي هذا من فضلكم. سيخلد باقي الجسد لنوم عميق طوال ثلاثة أيام أو أربعة بينما تنهمك المستشفى في تنظيف الرأس والتخلص من قمامته دونما زيغ أو أحلام».

«لا بد أنك متعب» قالت كيكوكو، يعبر وجهها ظلّ ما.

«إنني كذلك. جاء أحدهم اليوم ليراني في المكتب. سحبت نفساً عميقاً من اللفافة ووضعتها ثم أشعلت أخرى ووضعتها، ورأيت ثلاثاً منها في بداية اشتعالها. كان الأمر محرجاً للغاية».

فكر داخل القطار في إرسال رأسه إلى مصبغة حقيقية، لكنه لم ينشغل كثيراً بفكرة غسيل الرأس مثل انشغاله بالجسد النائم. نوم هانىء قرير، والرأس مفصول. لا ريب في الأمر: إنه مرهق.

راوده حلمان فجر هذا الصباح وتجسد الموتى فيهما.

«ألن تأخذ إجازة هذا الصيف؟»

«قد أفكر في الذهاب إلى كاميكوشي. لا يوجد من استودعه رأسي، ولذا أفكر في الذهاب لإلقاء نظرة على الجبال».

«أوه. إذهب دون تردد» قالت كيكوكو وقد غمرتها غبطة طفيفة.

«لكن فوساكو معنا الآن. جاءت تستريح بدورها. ما رأيك؟ هل الأفضل لها البقاء معي في البيت، أم في الخارج؟»

«أحسدها على هذا الأب» لم تكن كيكوكو مرتاحة كلياً.

تساءل هل كان يأمل في مراوغتها، في إبعادها عن رائحة الطريدة. صرف انتباهها عن صورة شخصيته العزلاء، حين عاد إلى البيت دون ابنه؟ لم تكن هذه نيته في أعماق دخيلته، لكنه لم يسقط الفكرة من حسابه.

«هل كنت تتهكمين؟» سأل شينغو.

تكلم همساً، لكن كيكوكو بدت مباغَتة بسؤاله.

«أنظري إلى فوساكو، ثم أخبريني عندها إن كنت أباً صالحاً».

تورد وجهها خجلاً. «لا لوم عليك فيها أصاب فوساكو».

استشعر العزاء في صوتها.

- ٣ -

كان شينغو يبغض المشروبات الباردة حتى في الطقس الحار. امتنعت ياسوكو عن تقديمها له، ودامت عادة عدم تناولها على مرّ السنين.

كان يتناول كوباً مترعاً من الشاي حين يستيقظ في الصباح وحين يعود إلى البيت في المساء. كيكوكو هي التي تسعى دائماً لإعداده.

عندما رجعا إلى البيت بعد رؤية عباد الشمس، هرعت كيكوكو لإعداد الشاي. شرب نصفه، ارتدى كيمونو قطنياً، وأخذ كوبه إلى الشرفة يحتسيه أثناء سيره. لحقته كيكوكو حاملة منشفة باردة وتبغاً وسكب المزيد من الشاي. مضى بعدها لإحضار نظارته وجريدة المساء.

تطلع إلى الحديقة. تبيّن أنه قد بذل جهداً مضنياً في وضع العدسة على عينيه. كان العشب خشناً ومهملاً. في الجانب البعيد نبتت أجمة من البرسيم الملتف وعشب الخيزران، تطاولت حتى أوحت بالرهبة.

كانت الفراشات وراءها. أبصرها شينغو ترفرف بأجنحتها بين فجوات الأوراق، أكثر من فراشة واحدة بالتأكيد. انتظر ليرى إن كانت ستحط على أجمة البرسيم أم تخرج من خلفها. لكنها واصلت التصفيق بأجنحتها بين الأوراق.

بدأ يحس بوجود نمط ما من عالم صغير خاص ينفصل بذاته وراء الغيضة. بدت أجنحة الفراش صارخة الجمال وراء أوراق أجمة البرسيم. فكر في النجوم التي رآها خلال الأشجار فوق قمة الهضبة، تلك الليلة قبل شهر، حين كان القمر تاماً تقريباً.

خرجت ياسوكو وجلست قربه.

«هل سيتأخر شويشي ثانية؟» سألت وهي تلوّح بمروحتها.

أومأ شينغو مواصلاً تأمل الحديقة. «هناك فراشات وراء الغيضة».

طارت ثلاث فراشات خارج أجمة البرسيم، كأنها كرهت رؤية ياسوكو لها.

«ذوات الذيل الخطافي».

كانت أصغر من ذوات الذيل الخطافي، ولونها موحل بعض الشيء.

شقت خطاً قطرياً عبر السياج الخشبي والتحمت بشجرة الصنوبر عند الباب الثاني. تقدمت، مشكّلة خطاً شاقولياً، دون تمزيق العمود أو تغيير

المسافة الفاصلة بينها، حتى منتصف الشجرة عند ذروتها. نمت الشجرة بلا رعاية، كانت تفتقد الشكل الأنيق لشجرة في حديقة.

بعد هنيهة ظهرت فراشة من ذوات الذيل الخطافي من جهة غير متوقعة، صنعت خطاً قطرياً عبر الحديقة، انزلقت فوق قمة أجمة البرسيم.

«رأيت صبيحة اليوم حلمين عن الموتى. قدّم لي العجوز في تاتسومي طبقاً من عصائب المعكرونة».

«لم تأكلها، أليس كذلك؟»

«هل كان علي ألّا أفعل؟» تساءل شينغو إن كان قد تناول الطعام الذي يقدمه رجل ميت في الحلم يعني أن الحالم نفسه سيموت. «لا أتذكر بالضبط. لا أظنني فعلت. أذكر أن الطعام كان بارداً». فكّر أنه استيقظ قبل تناول الطعام.

ظلّ قادراً على استرجاع لون العصائب ذاتها، موضوعة على قصب البامبو، في إطار أسود صقيل من الخارج وأحمر من الداخل.

لكنه لا يجزم إن كان قد رأى اللون في الحلم، أم أضافه عند اليقظة. في كل حال، كانت العصائب بادية العيان، رغم الغبش الذي يلف كل شيء آخر.

كانت إحدى حصص العصائب موضوعة على الأرض، ولاح أن شينغو يقف قربها. أما صاحب الدكان وعائلته فقد كانوا جالسين كما يبدو. كأنهم يفتقرون إلى أريكة يجلسون عليها. بدا، للغرابة، أن شينغو وحده هو الواقف. كان يتذكر الكثير إذاً، لكنه يتذكر بغموض.

تذكر الحلم بجلاء حين استفاق منه. بعد عودته إلى النوم واستيقاظه في الصباح تذكره بمزيد من الجلاء. لكنه يكاد يتلاشى الآن. ترسخت في ذهنه صورة العصائب، لكنه لم يعد يتذكر الحكاية، ما حدث قبلها وما تلاها.

كان رجل الحلم صانع أثاث قضى في السبعينات من عمره قبل ثلاث

أو أربع سنوات. أحبه شينغو كثيراً وأعطاه ما توفر لديه من عمل لأنه كان حِرَفياً من خريجي المدرسة القديمة. لكنه لم يكن يوماً صديقاً مقرّباً حتى يراوده في الحلم بعد زمن طويل من وفاته.

لاح لشينغو أن العصائب تبدت له داخل مسكن الأسرة، وراء الدكان. ولو تصادف أنه وقف ذات يوم أمام الدكان لتبادل الحديث مع الرجل العجوز، فهو لا يتذكر دخوله إلى الغرف الداخلية. حيّره حلم تتراءى فيه عصائب المعكرونة.

إن للرجل العجوز ست بنات.

نام شينغو في الحلم مع فتاة ما، لكنه الآن، في المساء، لا يذكر هل كانت واحدة من بنات العجوز أم غيرها.

تذكر بجلاء أنه لمس احداهن، لكن ليست لديه فكرة عمن تكون. لا يذكر بحق أي تلميح أو إشارة.

شعر أنه عرفها في يقظته، وحين استفاق بعد عودته ثانية إلى النوم ظل يعرفها. لكنه الآن، في المساء، لا يذكر شيئاً على الإطلاق.

هو حلم كان تتمة لذاك الذي شاهد فيه صانع الأثاث العجوز، ولذا حاول حسم أمره حول ما إذا كانت الفتاة التي نام معها واحدة من بنات الرجل. لم يتوصل لإدراك ما واضح الملامح، فهو غير قادر حتى على استرجاع وجوه بنات تاتسومي.

الحلم تتمة، هذا واضح كل الوضوح، لكنه لا يعرف ما جرى قبل العصائب أو بعدها، الأصح أنها كانت الصورة الأكثر جلاء في ذهنه حين استفاق. ألا يكون صحيحاً وفق نواميس الأحلام أنه استفاق على صدمة التلامس مع الفتاة؟

ليس هذا صحيحاً بالطبع، فقد كان إحساساً حاداً بما يكفي لإيقاظه.

هنا، أيضاً، لم يرشح شيء محدد عن الحلم. تلاشت الصورة، ولم يعد قادراً على استحضارها، كل ما تبقى كان إحساساً من التباين البدني، فشلاً ناتجاً عن التلامس البدني.

لم يسبق لشينغو في واقع الأمر أن خبر تلك المرأة. لم يتعرف عليها،

ولقد كان اللقاء غير جدير بالحدوث في الحياة الحقيقية لأنها مجرّد فتاة.

وليس غياب الأحلام الشهوانية أمراً غير عادي في الثانية والستين من العمر، لكن المعنى الإيجابي الباهت وراء ذلك كله هو الذي يثير حيرته الآن.

عاود النوم سريعاً فأبصر حلماً ثانياً.

جاء العجوز البدين آيدا، يحمل في يده زجاجة من شراب الساكي تتسع لنصف غالون. يبدو أنه شرب نصفها لتوه. كانت مسامات وجهه متفتحة.

لم يعد شينغو يتذكر شيئاً إضافياً عن الحلم. لم يعد يعرف إن كان البيت هو هذا الذي عاش فيه سابقاً أم آخر غيره.

عمل آيدا، طوال سنوات عشر أو أقلّ بقليل، مديراً لشركة شينغو، ومات بالسكتة الدماغية قرب نهاية العام الماضي. أوغل جسده في النحول خلال سنواته الأخيرة.

«ثم شاهدت حلماً آخر. هذه المرة جاء آيدا إلى البيت حاملاً زجاجة».

«السيد آيدا؟ أليس الأمر غريباً؟ السيد آيدا لا يشرب».

«هذا صحيح. كان مصاباً بداء الربو، وحين هاجمته النوبة قتله البلغم، لكنه لا يشرب. كان يتجول على الدوام حاملاً زجاجة الدواء بيده».

لكنه اقتحم الحلم كعربيد جسور. طافت الصورة حية في ذهن شينغو.

«وهل أقمت مع السيد آيدا حفل شراب؟»

«لم أكن أملك قطرة واحدة منه. كان آيدا يسير نحوي، لكني استفقت قبل أن تسنح له فرصة مجالستي».

«رؤيتك للموتى ليست بشارة سارة».

«لعلهم جاؤوا لاصطحابي».

«بلغ من العمر حدّاً مات معظم أصدقائه قبله. ربما كان حلمه بالموتى أمراً طبيعياً.

لكن صانع الأثاث العجوز وآيدا لم يتراءيا له كالموتى. دخلا أحلامه كشخصين على قيد الحياة.

ولا تزال صورتها، كما تراءت له في الحلم، حية في ذهنه. كانا أكثر وضوحاً من ذكرياته المعتادة عن الرجلين. وجد آيدا، المحمرّ من الشراب، على صورة عجز آيدا الحي عن الظهور بها، ومع ذلك تذكر شينغو حتى تفاصيل المسامات المنتفخة.

لماذا يحدث إذاً، وهو يتذكر الآخرين بجلاء، أنه يعجز عن استعادة وجه الفتاة التي لمسته، أو يتذكر من تكون؟

إثر مشاعر الذنب، تساءل هل كان قد تعمّد النسيان؟ لكن هذه ليست حالته كما يبدو، فهو لم يستفق أمداً طويلاً يكفي لأكثر من خيبة شهوانية ما.

لم يكن اهتمامه ينصب خصوصاً على مراودتها له في الحلم.

امتنع عن وصف ذلك الجزء من الحلم لياسوكو.

كيكوكو وفوساكو تعدان العشاء. كان قادراً على سماع أصواتهما في المطبخ. بدت أصواتها مرتفعة بعض الشيء.

- ٤ -

في كل ليلة يجيء الجراد طائراً من شجرة الكرز.

توجه شينغو نحو جذع الشجرة.

غمره صوت حفيف الأجنحة، فشخص ببصره إلى الأعلى. أدهشه عدد الجراد، أدهشه أيضاً ضجيج أجنحتها. كأنّ سرباً من عصافير الدوري أجفل فطار.

حين تطلع إلى الشجرة الباسقة كان الجراد يعلو.

كل السحب في السماء تتسابق نحو الشرق. قالت نشرة الأرصاد الجوية أن هذا اليوم ـ وهو الأكثر شؤماً بين الأيام، فهو اليوم العاشر بعد المائة الثانية[1] ـ سوف يمرّ بلا حادثة تذكر. لكن شينغو ارتاب في هبوب الرياح وسقوط المطر وهبوط الحرارة.

---

(١) مطلع شهر أيلول.

«هل حدث شيء؟» جاءت كيكوكو. «سمعت الجراد وتساءلت».

«إنها تحث المرء على التفكير في وقوع حادث ما، أليس كذلك؟ يصغي المرء لأجنحة البط والأوز، لكنها تبدو أكثر إيحاءً».

كانت كيكوكو تحمل إبرة وخيطاً أحمر. «ليست الأجنحة، بل الصرير المفاجيء. كأن شيئاً ما يتهددها».

«لم ألحظ كل هذا».

نظر إلى الغرفة التي قدمت منها. تناثرت فيها لوازم الطفل، قماش من بقايا رداء داخلي قديم لياسوكو. «ألا تزال ساتوكو تلعب مع الجراد؟»

أومأت كيكوكو. اهتزازة واهية من شفتيها شكّلت كلمة «نعم».

الجراد مخلوق غريب يلفت انتباه ساتوكو، ابنة المدينة، كأن في شخصيتها ما يستجيب للرياضة واللهو. جزعت في البدء حين أعطتها فوساكو واحدة لتلعب بها، ثم قصت فوساكو الجناحين فصارت الفتاة بعد ذلك تهرع راكضة كلما أمسكت جرادة لتطلب من كيكوكو أو ياسوكو أو أي كان أن يطبق لها الجناحين.

كرهت ياسوكو هذا اللهو.

لم تكن فوساكو ذلك النوع من الفتيات أبداً، هكذا دمدمت لقد أفسدها زوجها.

امتقع وجه ياسوكو حين أبصرت جماعة من النمل الأحمر تجرّ جرادة مقصوصة الجناحين. لم تكن، عموماً، امرأة تتأثر بهذه المسائل. أحس شينغو بالطرافة والقلق. لعل اشمئزازها ـ كما يفعل بخار سام ـ يشير إلى نذير شرّ ما. ارتاب شينغو في أن يكون الجراد هو المشكلة.

كانت ساتوكو طفلة شرسة فظة، وحين يخضع لها الكبار ويقصون الاجنحة تظل تتشكى وتتوانى، ثم بعينين غائمتين معتمتين تلقي بالحشرة، بعد قصّ جناحيها مباشرة، في الحديقة... كأنها تخفيها. تعرف أن الكبار يراقبونها.

حملت فوساكو شكواها إلى ياسوكو كل يوم، لكن الأخيرة لم تحاول كما

يبدو الاقتراب من المسألة، بسبب عدم اشارة الأولى إلى موعد رحيلها يوماً.

حين يرقدان في الفراش تنقل ياسوكو شكواها إلى شينغو. كان يشعر أن شيئاً ما قد رسخ لديه، رغم عدم اكتراثه بالأمر جدياً.

كان يعلم ما يتوجب عليه من اسداء النصح لفوساكو باعتباره والدها، لكنها كانت متزوجة وفي الثلاثين، والمسائل ليست سهلة على الأب في هذه الحالات. لن يكون تطويع امرأة وطفلتيها أمراً سهلاً. تأجل القرار من يوم إلى آخر، كأنما الأولويات كانت تنتظر الطبيعة لتأخذ مجراها.

«أليس الأب لطيفاً مع كيكوكو» قالت فوساكو.

كيكوكو وشويشي كان كلاهما على مائدة العشاء.

«نعم، بالطبع» قالت ياسوكو. «أحاول أنا أيضاً أن أكون طبيعية معها».

لم توح طريقة فوساكو بانتظار الجواب. كانت الضحكة تخفي في ثناياها نبرة جواب فوساكو التي لا مبرر لها.

«إنها طيبة معنا في نهاية الأمر».

اكتسى وجه كيكوكو بلون وردي داكن.

لم تكن ملاحظة ياسوكو معقدة بما يكفي. احتوت على شيء يشبه الوخزة لابنتها مع ذلك.

لاح أنها تميل إلى كنتها السعيدة وتعزف عن ابنتها التعسة. قد يشمّ المرء رائحة القسوة واللؤم. شعر شينغو بما يشبه الاشمئزاز من الذات أيضاً. بحث في دخيلة نفسه عن مسحة مشابهة. رأى من الغرابة بمكان أن تفسح ياسوكو ـ كامرأة وأم كهلة ـ سبيلاً لذلك بحضور ابنتها.

«لا أظنها من هذا النوع تماماً» قال شويشي. «ليست على هذا الحال مع زوجها». لم تكن النكتة موفقة.

كان محتماً أن يتضح للجميع، شويشي وياسوكو مثل كيكوكو نفسها، كيف يبدي شينغو رقّة خاصة تجاه كيكوكو. لا تكاد الحقيقة تحتاج إلى تبيان، وقد أحزنه ذكرها بطريقة ما.

كانت كيكوكو بالنسبة له نافذة يطلّ منها خارج المنزل الكئيب. لم يكن أرحامه على الصورة التي يتمناها، وإذا كانوا عاجزين عن فعل الحياة كما ارادوا لحياة، فإن علاقة الدم أصبحت قمعية وثقيلة الوطء. الكنّة هي التي تمدّه بمشاعر الارتياح.

عمود من الضوء ينير عزلته.. هكذا كانت رقّته تجاهها. إنها وسيلة في إشباع ذاته وإسباغ لمسة من النداوة والتفتح على حياته.

من جهتها، لم تنغمس كيكوكو في التكهنات الخاصة بعلم نفس الشيوخ، ولا هي أبدت خوفها منه.

أحس أن ملاحظة فوساكو مسّت قرارة نفسه وسرّها.

قيلت تلك الملاحظة ذاتها على العشاء منذ ثلاث أمسيات أو أربع.

فكّر شينغو بها تحت شجرة الكرز، وفكر بساتوكو وأجنحة الجراد.

«هل تنام فوساكو قيلولتها؟»

«نعم». تطلعت كيكوكو في وجهه. «إنها تحاول تنويم كونيكو».

«ساتوكو طفلة غريبة. كلما حاولت فوساكو تنويم الطفلة هرعت هي واستلقت ملتصقة بظهر أمها. عند ذاك تهدأ سكينتها».

«إنها عذبة حقاً».

«ياسوكو لا تحتمل الطفلة. لكنها سوف تشخر مثل جدتها تماماً حين تبلغ الأربعين أو الخمسين».

غابت الفكرة عن كيكوكو كما يبدو.

نادت شينغو حين استدار ماضياً.

«هل ذهبت للرقص؟»

«ماذا؟» التفت شينغو. «عرفت ذلك؟»

ذهب قبل ليلتين للرقص مع فتاة من مكتبه.

اليوم هو الأحد، واضح إذاً أن الفتاة تانيزاكي إيكو أخبرت شويشي البارحة، ونقل شويشي النبأ إلى كيكوكو.

لم يرقص شينغو منذ سنوات. دهشت الفتاة لدعوته إياها. قالت إنها لو خرجت معه لانتشرت شائعات مغرضة في أنحاء المكتب، فردّ بأن عليها

التزام الصمت فقط. ويبدو أنها باحت لشويشي بالأمر دون إبطاء.
أما شويشي فلم يظهر شيئاً لشينغو لا البارحة ولا اليوم.

واضح أن إيكو كانت تراقص شويشي بين الفينة والأخرى. طلب شينغو مرافقتها لاعتقاده بأنه قد يلمح عشيقة شويشي معه في قائمة الرقص.

لكنه عجز عن إيجاد فتاة أخرى مناسبة، ولم يتقبل فكرة سؤال الفتاة عن اسم العشيقة.

ولا ريب في أن المفاجأة دفعت الفتاة إلى الغرور. صعقت شينغو الملاحظة التي قيلت عن الخلاف واعتبرها خطيرة ومؤثرة.
ورغم أنها في مطلع العشرينات من عمرها، فقد كان ثدياها صغيرين لا يكاد يحتويهما بالكف المغلقة. تذكر شينغو مطبوعة إباحية لهارونومو.

حين احتواه المحيط الصاخب شعر بالتسلية لهذه الصحبة.
«دعيني أرافقك أنت في المرة القادمة»، خاطب كيكوكو.
«نعم، أرجو أن تفعل».
كانت متوردة الوجه منذ أن نادته.
هل خمّنت أن ذهابه كان بأمل رؤية عشيقة شويشي؟

ليس لديه سبب خاص يجعله يبقي الحادثة طي الكتمان، لكن صورة المرأة الأخرى تركته في حالة ارتباك طفيف.
دخل إلى غرفة شويشي من الباب الأمامي.

«هل أخبرتك تانيزاكي؟» قال دون أن يجلس.
«آه، نعم. لقد فعلت. أنباء هامة تتعلق برب أسرتنا».

«ما كنت لاعتبرها جديرة بالاهتمام. ولكن حين ترافقها للرقص في المرة القادمة أبتع لها ثوباً صيفياً لائقاً».
«كنت خجلاً منها، أليس كذلك؟»
«لم تكن التنورة تناسب البلوزة كثيراً».

«أوه، لديها ملابس كافية. ذنبك أنك لم تنبهها. رتّب مواعيدك مسبقاً، وستأتيك أنيقة جديرة بالمناسبة».

عبر شينغو الغرفة إلى حيث كانت فوساكو تنام مع الطفلتين. استدار مبتعداً ثم تطلع إلى الساعة.

«إنها الخامسة». تمتم.. كأنه يؤكد حقيقة هامة.

هيب السُحُب

رغم تكهن الجريدة بأن اليوم العاشر بعد المائة سوف يمرّ هادئاً هذه السنة فقد ثار إعصار استوائي ليلة البارحة.

لا يذكر شينغو عدد الأيام التي انقضت منذ قرأ المقال، ولعله بذلك لم يكن تنبؤاً بالحالة الجوية. أذيعت بالطبع نشرات جوية وتحذيرات مع اقتراب اليوم ذاك.

«أخال أنك ستعود مبكراً هذه الليلة؟» خاطب شينغو شويشي. كان افتراضاً أكثر منه استفساراً.

بعد مساعدتها لشينغو في ترتيباته للمغادرة، هرعت الفتاة ايكو إلى المنزل هي أيضاً. بدا ثدياها أصغر من خلال المعطف المطري الأبيض الشفاف.

تزايد اهتمامه بهما منذ أن لاحظ كم كانا هزيلين، ليلة اصطحبها للرقص.

نزلت إيكو وراءهما على السلالم ووقفت معهما في المدخل. نسيت بسبب المطر الغزير أن تقضي بعض الوقت في وضع المساحيق على وجهها.

«وأين تقيمين؟» لكن شنيغو لم يكمل السؤال. لا بد أنه طرحه للمرة العشرين حتى الآن، ولم يعد يذكر الجواب.

في محطة كاماكورا وقف المسافرون تحت الأفاريز في محاولة لتقدير عنف الرياح والمطر.

حين مر شينغو وشويشي بالمنزل المسوّر بعباد الشمس، تعالت موسيقى أغنية «١٤ تموز»[1] من خلال الريح والمطر.

---

(١) Quatorz Juillet ـ بالفرنسية في الأصل (م).

«لا يبدو أنها قلقة للغاية» قال شويشي.
عرفا أنها كيكوكو تعزف أسطوانة Lys Gauty.
حين فرغت منها كررتها ثانية.
في منتصف الطريق سمعا المصاريع تغلق.
وسمعا كيكوكو تصاحب الاسطوانة وهي تغلق المصاريع.
لم تسمعهما يدلفان من البوابة وسط العاصفة والموسيقى.
«حذائي غارق بالماء». نزع شويشي جوربيه في الرواق.

دخل شينغو بجوربيه المبللين.
«عدتما إذاً؟». اقتربت كيكوكو منهما. وجهها يتألق بهجة.
ناولها شويشي جوربيه.
«لا بد أن الأب مبلل أيضاً»، قالت كيكوكو. وضعت الاسطوانة من جديد، ثم مضت حاملة ثيابهما المبللة.

«جميع من في البلدة يسمعونك يا كيكوكو» قال شويشي ملقياً الأوبي حول خصره. «لعلك تحاولين الظهور بمظهر بسيط من القلق».
«لكنني عزفتها لأنني كنت قلقة. لم أستطع الجلوس هادئة وأنا أفكر بكما». لكن طريقتها المازحة أوحت بأنها وجدت العاصفة منعشة.
كانت لا تزال تدندن لنفسها وهي تمضي لإعداد شاي شنبغو.
شويشي، المغرم بالغناء الباريسي، ابتاع لها المجموعة.

كان يتقن الفرنسية. لم تكن كيكوكو تجيدها، لكنها تلقت دروساً في اللفظ، وأصبحت بارعة في محاكاة الاسطوانة. لكنها بالطبع لم تكن قادرة، مثل غوتي، على إعطاء معنى خوض الصراع والبقاء على قيد الحياة. كان إلقاؤها الناعم المتردد ناعماً للغاية.

كانت هدية زفاف كيكوكو من زميلاتها في الدراسة مجموعة أغانٍ لدور حضانة الأطفال من مختلف أنحاء العالم. تعلقت بها كثيراً في الشهور الأولى من زواجها وحين تكون وحيدة، فكانت ترافق الغناء بهدوء وتمنح شينغو شعوراً بالسكينة الدافئة.

ملاحظة من نوع متناهٍ في نسويته، فكّر شينغو. أحس أنها، في اصغائها لأغنيات الأطفال، تغرق في ذكريات صباها.

«هلا طلبت منك عزفها في جنازتي؟» قال لها شينغو ذات مرة. «لن أحتاج عندها إلى الصلوات». لم يكن جاداً، لكن دموعه كادت تطفر بغتة.

لكن كيكوكو لم تنجب بعد، ويبدو أنها تعبت من المجموعة، فهو لم يسمعها مؤخراً.

حين كانت الأغنية تقترب من نهايتها، اضمحلت بصورة مفاجئة.

«انقطعت الكهرباء!» هتفت ياسوكو من غرفة الافطار.

«لن تعود طوال الليل» قالت كيكوكو مغلقة الحاكي. «لنتناول عشاءنا مبكرين يا أماه».

خلال العشاء أنطفأت الشموع الناحلة ثلاث أو أربع مرات حين هبت الرياح من شقوق المصاريع.

بدا المحيط ساخطاً يصرخ في وجه الريح. كأن البحر كان يفعل أكثر مما تفعله الرياح لتعميق الرعب.

- ٢ -

ما تزال رائحة الشمعة التي انطفأت لتوها عابقة في خياشيم شينغو.

كلما اهتز البيت هرعت ياسوكو إلى علبة الكبريت على السرير وخشخشت بها كأنها تهدىء نفسها وتنبه شينغو.

وستمتد يدها لتلامس يده برقة.

«هل سنكون بخير؟»

«بالطبع. وإذا عصف شيء بالسياج بمقدورنا الخروج وإلقاء نظرة عليه».

«هل ستكون الأمور على ما يرام مع فوساكو؟»

«مع فوساكو؟» لم تخطر فوساكو بباله. «أتخيل ذلك. في ليلة كهذه لا بد أن يخلدوا للنوم مبكرين كزوجين طيبين، بغض النظر عما يفعلانه في ليال أخرى».

«كيف يناممان؟» لزمت الصمت بعد إهماله لملاحظتها.

سمعا صوت شويشي وكيكوكو. كان في صوت الأخيرة نبرة ملاحظة ناعمة.

«عندها طفلتان صغيرتان» قالت ياسوكو بعد فترة صمت. «وليست الأمور سهلة كما هي عليه هنا».

«وعنده أم كسيحة. ما أخبار التهاب مفاصلها؟»

«هناك المرض أيضاً. لو تعين عليهما الهرب فسيحمل إيهارا السيدة العجوز على ظهره».

«ألا تستطيع السير على قدميها؟»

«لا تستطيع التنقل كما أعتقد. ولكن في هذه العاصفة؟ تبعث على الغم، أليس كذلك؟» أدهشت شينغو كلمة «الغم»، واعتبرها مضحكة إذ تصدر عن ياسوكو التي تبلغ الثالثة والستين من عمرها.

«تقول الصحيفة إن المرأة تغير تسريحة شعرها مراراً خلال مجرى حياتها. أعجبني ذلك».

«أين قيل هذا؟».

قيل، حسب رأي ياسوكو، في كلمة تأبين رسام يلتزم الأسلوب القديم، متخصص في رسم وجوه النساء، ألقتها امرأة رسامة توفيت مؤخراً، من روائع الأسلوب القديم أيضاً.

ولكن في التأبين اللائق تبين أن الحالة كانت معكوسة بالنسبة للمرأة الفنانة طوال خمسين عاماً، بين مطالع عشريناتها وحتى وفاتها في الخامسة والسبعين، كانت تقلب شعرها إلى الوراء وتربطه بمشط.

واضح أن ياسوكو أعجبت بفكرة نجاح المرأة في شق طريقها في الحياة وشعرها مقلوب إلى الوراء. لكن فكرة تسريح المرأة لشعرها بعدة طرق وجدت قبولاً لديها.

اعتادت ياسوكو الاحتفاظ بالصحف التي تقرأها يومياً للعودة إليها بعد تراكمها. لا يجزم المرء بمدى قدم المقال الذي تتحدث عنه فجأة. ولأنها

أيضاً دائمة الإصغاء للتعليق السياسي على نشرة أنباء التاسعة فهي قادرة على الخوض في معظم المواضيع غير المحتملة.

«هل تقصدين القـول أن فوساكو تسرح شعرها بعدة طرق؟».

«إنها امرأة في النهاية. لكنها لن تعـرف تغييرات عـديدة كتلك التي شهدتها صاحبات الطريقة القديمة. سيكون مضحكاً لو بدت حسنة المظهر مثل كيكوكو».

«لم تكوني لطيفة معها حين زارتنا. كانت بائسة».

«ألا تظن أنني كنت متأثرة بك؟ أنت لا تهتم بسوى كيكوكو».

«هذا ليس صحيحاً. إنها تخيلاتك أنت».

«بل هو صحيح. لم تحب فوساكو يوماً، وكان شويشي هو الأثير لديك. هكذا أنت. حتى حين يصاحب الآن امرأة أخرى لا تستطيع مواجهته بشيء. أنت تبدي تعاطفاً حقيقياً مفرطاً مـع كيكوكـو، إنه يبلغ حـد القسوة. إنها عاجزة عن التلميح بعلائم غيرتها لأنها خائفة مما قد يصيبك. الأمر يثقل علي حقاً. أتمنى لو يجرفنا الإعصار جميعنا».

جفل شينغو. «إعصار»! قال مفكـراً بارتفـاع السخط في ملاحـظات زوجته.

«نعم. إنه الإعصار. وفوساكو، التي تحاول دفع والديهـا ليفوزا لهـا بالطلاق، في عمرها، في هذا اليوم والعمر. إنه موقف جبان».

«ليس تماماً. هل تطرق الحديث إلى الانفصال؟».

«الأهم من الحديث ما أراه نصب عيني مباشرة، وجهك العابس حين تعود ويكون عليك رعايتها وطفلتيها».

«لقد افتقرت إلى الكلام أنت أيضاً».

«لأن لدينا كيكوكو، والأب مولع بهـا كثيراً. لكني أعتـرف بأنني لا أحبها، بمعزل عن كيكوكو. أحياناً تقول كيكوكو شيئاً يزيح عن دماغي حملاً ثقيلاً. أما فوساكو فتزيد الحمل ثقلاً ووطـأة. لم يكن الأمر بهذا السوء قبل زواجها. أعرف حق المعرفة إنني أتحدث عن ابنتي وحفيدتي، ولا أزال أحس بالشيء ذاته؟ الفزع، هكذا بالضبط. إنه تأثيرك أنت».

«أنت أجبن من فوساكو».

«كنت أمزح. لم ترني وأنا أخرج لساني».

«المرأة العجوز تحفظ لسانها بصورة ممتازة».

«لكنني أشعر بالأسف عليها. أليس هذا شعورك؟».

«بإمكاننا إبقاءها هنا إذا شئت» ثم أردف، كأنه تذكر شيئاً: «المنديل الذي أحضرته معها».

«المنديل؟».

«المنديل. لقد رأيته من قبل، لكني لا أذكر أين رأيته. أهو لك؟».

«المنديل القطني الكبير؟ لقد لفّت مرآتها به حين تزوجت. كانت مرآة ضخمة حقاً».

«هذا هو إذاً».

«كرهت تلك الحزمة. كان عليها وضع أشيائها في الحقيبة التي ابتاعتها ليلة زفافها».

«ستثقل الحقيبة عليها مع الطفلين. لا أظنها حرصت كثيراً على مظهرها».

«لكن كيكوكو تحرص عليه. ذلك المنديل.. لففت به شيئاً ما حين تزوجنا».

«أوه؟».

«بل هو أقدم من ذلك. كان لشقيقتي. حين ماتت بعثوا به معقوداً على شجرة قصيرة. شجرة قيقب رائعة[1]».

«أوه» كرر شينغو برقة، غمره ألق تلك الشجرة الرائعة.

بعيداً في أعماق الريف كان إسراف حميّه الأساسي ينصب على الشجيرات القصيرة. كان يمحض عناية خاصة لشجيرات القيقب كما يبدو، وتساعده شقيقة ياسوكو الكبيرة.

(١) القيقب Maple شجرة من فصيلة الإبريات شمالية الموطن أوراقها متعاكسة الترتيب وذات ذوائب مروحية. (م)

في الفراش، والعاصفة تهدر من حوله، كان شينغو يبصرها بين رفوف الشجيرات القصيرة.

لعل والدها منحها شجيرة عند زواجها. لعلها طلبت منه. وحين ماتت أعادتها أسرة زوجها، فالشجيرة كانت على غاية الأهمية عند أبيها، ولا يوجد بينهم من يعنى بها. يحتمل أيضاً أن الأب ذهب لإحضارها.

على مذبح الأسرة جثمت شجرة القيقب التي غمرت رأس شينغو.

هل ماتت شقيقتها في الخريف إذاً؟ حلّ الخريف مبكراً بالنسبة لشينغو.

هل كانوا سيرسلونها فور وفاة الشقيقة؟ أن تكون حمراء ومنتصبة فوق المذبح. المذبح مشهد يجعل الأمر يبدو أخفّ من أن يكون مدبراً بعناية. هل تتزامن في مخيلته أعراض الحنين وتفعل فعلها؟ لم يكن واثقاً.

عجز شينغو عن استعادة ذكرى وفاة شقيقة زوجته، لكنه لم يسأل ياسوكو.

ذلك أن ياسوكو قالت ذات مرة «لم يسمح لي الأب يوماً بمساعدته في العناية بأشجاره. لعل الأمر مرتبط بطبيعتي. لكنه يشعر بإلفة مع شقيقتي أكثر مني. لم أستطع مجاراتها. لم أكن غيورة فقط، بل كنت خجلة أيضاً. كانت تنجز كل شيء أفضل مني بكثير».

هذا هو نوع الملاحظات التي تبديها حين ينتقل الحديث إلى تفضيل شينغو لشويشي، ثم تضيف: «أظن أنني كنت مثل فوساكو الآن».

دهش شينغو لكون المنديل تذكرة من شقيقة ياسوكو. غرق في الصمت، الآن وقد خيّمت الأخت على الحوار.

«لعلنا نخلد إلى النوم» قالت ياسوكو. «سيظنون أننا نحن العجائز نعاني من اضطراب في النوم أيضاً». جلجلت ضحكة كيكوكو وسط العاصفة، وبدلت أسطوانة بأخرى. «أشعر بالأسف من أجلها».

«هناك تناقض حتى في هذه الكلمات القليلة».

«سيكون التناقض دائماً».

«كنت سأقول هذا. أخلد باكراً للنوم بهدف التغيير. وها أنت ترين ما يحلّ بي».

ظلت شجيرة القيقب الصغيرة تلازم شينغو.

وفي جزء آخر من دماغه تساءل، حتى بعد انقضاء ثلاثين سنة على زواجه من ياسوكو، هل كان اشتهاؤه لشقيقتها في صباه ما يزال دفيناً، كجرح قديم؟

هجع بعد ساعة أو نحوها من نوم ياسوكو. أيقظته ضجة عنيفة مدوية.

«ما هذا؟»

سمع كيكوكو تتلمس طريقها إلى الشرفة.

«هل أنت مستيقظ؟ يقولون أن صفيحة قصدير من المطبخ طوّحت بها الرياح فوق سطحنا».

- ٣ -

السطح القصديري من محفة ميكوشي[1] تطاير بأكمله.

في الصباح الباكر حضر خادم المذبح لجمع سبعة أو ثمانية ألواح من سقف شينغو وحديقته.

خط يوكوسوكا كان مفتوحاً. غادر شينغو متوجهاً للعمل.

«كيف سارت الأمور؟ هل استطعت النوم؟» سأل شينغو الفتاة إيكو وهي تعد الشاي.

«لم يغمض لي جفن». وصفت إيكو هياج العاصفة كما شاهدته من نافذة القطار.

«لا أظن أن بمقدورنا الذهاب للرقص اليوم» قال شينغو بعد تدخين لفافة أو اثنتين.

تطلعت إيكو باسمة.

«صبيحة المرة الفائتة تصلب ردفاي. إنني أتقدم في العمر».

ابتسمت بخبث، بدءاً من عينيها وحتى أنفها. «ألا ترى أن السبب يعود إلى طريقة تقويسك لظهرك؟».

---

(١) المذبح المحمول المستخدم في احتفالات شنيتو.

«تقويس ظهري؟ أهذا صحيح؟ هل أنحني من ردفيّ؟».

«تقوس ظهرك محافظاً على مسافة فاصلة. كأن الالتصاق بي مناف للقانون».

«ليس هذا صحيحاً».

«ولكنه كذلك».

«هل كنت أحاول الظهور بمظهر البريء؟ لست واثقاً من ذلك».

«حقاً؟»

«أنتم الشباب تشتبكون ببعضكم حين ترقصون. أمر بأكمله مناف للذوق».

«لست منصفاً».

أعتقد شينغو في المرة السابقة أن إيكو فقدت شيئاً من توازنها، منتشية قليلاً، وكان بنظرها مفرطاً نحو السخونة. حري به القول أنه هو الذي كان جافاً ومنقبضاً.

«حسناً، لنذهب ثانية. هذه المرة سوف أقترب وأتعلق بك».

تطلعت إليه مبتسمة. «يسرني ذلك، ولكن ليس الليلة. ليس بهذا الثوب».

«كلا، ليس الليلة».

كانت ترتدي بلوزة بيضاء وتعقد شريطاً أبيض حول شعرها.

لم يكن أمراً طارئاً إنها ترتدي البلوزة البيضاء. لعل الشريط الأبيض، بحجمه العريض، جعلها تبدو أكثر بياضاً. كان شعرها معقوداً بإحكام من الخلف. كانت ترتدي ثياباً مناسبة للعاصفة إن صح التعبير.

كان مفرق شعرها طرياً ونظيفاً، ينتهي عند منحنى وراء أذنيها. انسدل شعرها بعناية فوق بشرة ناعمة تخفيها عادة.

كانت ترتدي تنورة صوفية رفيعة ذات لون أزرق داكن. كانت قديمة بعض الشيء.

حين تكون أنيقة الملبس لا يؤثر صغر حجم ثدييها في شيء.

«هل طلب منك شويشي مرافقته ثانية؟»

«كلا».

«أمر مؤسف. الشاب يتحاشاك لأنك تراقصين أباه».

«سأقوم أنا بدعوته لمرافقتي».

«لا حاجة لقلقي إذاً؟».

«إذا كنت تلح على السخرية مني فسوف أمتنع عن مرافقتك للرقص».

«إنني لا أسخر منك، لكني لم أعد قادراً على مقابلتك وجهاً لوجه منذ بدأت بالاهتمام به».

اكتفت بالصمت.

«أظنك تعرفين عشيقة شويشي؟»

سجلت اضطرابها هذه المرة.

«هل تراقصه؟»

لم تجب بشيء.

«هل تزيده سناً».

«تزيده سناً؟ إنها أكبر من زوجته».

«جذابة؟»

«نعم، جذابة للغاية»، تلعثمت كلماتها، لكنها أردفت: «صوتها مبحوح. ليس مبحوحاً إلى درجة الحشرجة. ينقسم قسمين. يجدها شهوانية».

«هكذا!»

بدت على وشك المغادرة. لم يعد راغباً في سماع المزيد.

شعر بالخجل من نفسه. وشعر بتغير مفاجىء، كأن الطبيعة الحقيقية لعشيقة شويشي وللفتاة إيكو ذاتها توشك على الظهور.

تراجع بفعل الملاحظة الأولى تلك، حول الشهوانية في صوت المرأة. لقد اتضح فساد الذوق من جانب شويشي بالطبع، فماذا عن إيكو ذاتها؟

حين لاحظت أمارات الانفعال والإعراض في وجهه لزمت الصمت.

تلك الليلة أيضاً عاد شويشي إلى البيت برفقة شينغو. بعد إغلاق

المصاريع ذهب الجميع لمشاهدة نسخة سينمائية عن مسرحية كابوكي المسماة «كانجينشو».

حين خلع شويشي قميصه الداخلي، إذ غيّر ثيابه استعداداً للذهاب إلى السينما، لاحظ شينغو علامات حمراء في أعلى صدره وكتفه. هل تركتها كيكوكو خلال العاصفة؟

الممثلون الرئيسيون في الفيلم، كوثيرو؟» وآوزايموث وكيكوغورو، كانوا أمواتاً.

اختلفت مشاعر شينغو عن مشاعر كيكوكو وشويشي.

«أتساءل كم من المرات شاهدتا كوتيرو؟» قالت كيكوكو.

«نسيت».

«نعم. أنت تنسى على الدوام».

كانت البلدة تلمع في ضوء القمر. تطلع شينغو إلى السماء.

القمر ملتهب متأجج. أو هكذا خيل لشينغو، تلك اللحظة فقط.

السحب المحيطة بالقمر جعلته يفكر بألسنة اللهيب وراء آكالا في لوحة ما، أو لوحة قصور روح الثعلب. كانت السحب مضطربة ملتوية.

لكن السحب، والقمر أيضاً، كانت باردة باهتة البياض. شعر شينغو باجتياح الخريف لجسده.

يكاد القمر يكتمل في أقصى الشرق. استلقى في لهيب من السحب، فأسدلت عليه العتمة دثارها. لم تكن هناك سحب أخرى بعيداً عن اللهيب الذي قبع فيه القمر. ليلة واحدة بعد العاصفة وتحول لون السماء إلى سواد معتم داكن عميق.

المحال مغلقة. لقد استولى على البلدة أيضاً عنصر الكآبة خلال انقضاء ساعات الليل. كان الناس يقفلون عائدين من الفيلم، يسيطر عليهم الصمت المطبق، يلفّهم التوق إلى دفء إنساني ما.

وكان الأمر أشبه بساعة قاتلة قد أزفت، أشبه بقرار عاتٍ يضغط، يفرض نفسه عليهم.

الكستناء

«لقد بدأت شجرة الغينغكو تطلق فروعها ثانية» قالت كيكوكو.
«هل لاحظتها لتوك؟» قال شينغو. «مضى عليّ زمن وأنا أرقبها».
«لكنك تجلس قبالتها دائماً يا أبتاه».

كانت كيكوكو، التي جلست بحيث يرى شينغو جانب وجهها، تتطلع إلى شجرة الغينغكو وراءها.

أمكنة جلوس الأشخاص الأربعة لتناول الطعام تحددت بمرور الزمن.
جلس شينغو مواجهاً الشرق وعلى يساره ياسوكو، قبالة الجنوب، وعلى يمينه شويشي مواجهاً الشمال. كيكوكو، المواجهة للغرب، جلست مقابل شينغو.

ويمكن القول أن الطاعنين في السن احتلوا أفضل الأماكن، باعتبارها تواجه الحديقة جنوباً وشرقاً. كانت أماكن النساء مناسبة لخدمة المائدة.

كانوا يحتلون الأماكن ذاتها، حتى في غير أوقات تناول الطعام.
حدث بالتالي أن بقيت شجرة الغينغكو وراء كيكوكو.

لكن شينغو أحس بالقلق: إنه أمر يوحي بخواء وجدب ما، إنها لم تلحظ البراعم الفتية المبكرة للشجرة الهائلة.

قال لها: «ينبغي لك ملاحظتها عند إغلاق المصاريع أو الخروج لتنظيف الشرفة».
«أظن أنك على حق».
«بالطبع، أنت أيضاً تصادفينها عند عبورك البوابـة. أنت ترينها شئت أم

أبيت. هل تختلط الكثير من الهموم في ذهنك حتى تدخلي البيت مطرقة إلى الأرض؟».

«هذا لن يفيد». صدرت عن كتفي كيكوكو اهتزازة صغيـرة جميلة. «سأكون حريصة بدءاً من الآن على ملاحظة كل ما تفعله ومحاكاته».

لمس شينغو مسحة حزن في الملاحظة.

«هذه لن تفيد أيضاً».

لم تحبه امرأة طوال حياته لدرجة رغبتها في أن يلاحظ كل ما تفعله.

واصلت كيكوكو تحديقها بشجرة الغينغكو.

«بعض الأوراق في الجبل اكتست هي الأخرى بأوراق جديدة».

«هكذا إذاً. أتساءل إن كانت قد فقدت بعض أوراقها في الإعصار».

كان الجبل في حديقة شينغو مبتوراً بتخوم المذبح، بمستوى ممتد إلى أعلاه فقط. جثمت أشجار الغينغكو عند التخوم، لكنها لاحت من حجرة إفطار شينغو وكأنها أكثر ارتفاعاً.

لقد فقدت لحاها في عاصفة الليل.

شجرتا الغينغكو والكرز تركتا عاريتين نهباً للرياح.

أصبحتا هدفاً صالحاً للعاصفة، لأنهما أضخم الأشجار المحيطة بالبيت. أم هل كانت أوراقهما حساسة سريعة العطب.

ظلت أوراق شجرة الكرز القليلة متدلية حتى بعد سكون العاصفه، لكنها تقصفت، وهي تنتصب الآن عارية تماماً.

ذبلت أوراق الخيزران في الجبل، ولعل المحيط القريب زود الرياح برذاذ مالح. تكسرت بعض حزم الخيزران وتناثرت في الحديقة.

شجرة الغينغكو الهائلة تفرع البراعم من جديد.

واجهها شينغو حين دخل الزقاق قادماً من الشارع الرئيسي ، وكان يتملاهـا كل يوم في طريق عودته إلى البيت. كان يبصرهـا من حجرة الإفطار أيضاً.

«شجرة الغينغكو تلك تمتلك قوة ما لا تمتلكها الكرزة» قـال شينغو. «وكنت أظنها تختلف عن الأخريات، هذه المعمّرة الشائخة، شجرة عجوز

كهذه تتطلب قوة كبيرة حتى تطرح أغصانها عند السقوط».

«هناك شيء محزن يحيط بها».

«كنت أتساءل هل ستكون الأوراق ضخمة كتلك التي أفرعت في الربيع وتأبى النمو».

فضلاً عن صغر حجمها، كانت الأوراق مبعثرة وأقل عدداً من أن تخفي الأغصان. بدت نحيلة، وكان لونها شاحباً مصفرّاً، فاقد الاخضرار.

كأنما سطعت شمس الخريف على شجرة غينغكو ظلت عارية قبل ذلك.

الأشجار في تخوم المذبح دائمة الخضرة. بدت راسخة في وجه الريح والمطر، وكانت صلبة تماماً. فوق المساكب الخضراء الفارهة أطلّت الأوراق الجديدة ذات الخضرة الشاحبة. اكتشفتها كيكوكو لتوها.

دخلت ياسوكو من المدخل الخلفي. سمع جريان الماء. قالت شيئاً، لكنه لم يستطع تبينه وسط ضجة الماء.

«ماذا قلت؟» هتف إليها.

ساعدته كيكوكو. «تقول إن أجمة البرسيم تزهر بصورة لطيفة».

«أوه؟».

كان لدى ياسوكو ما تضيفه.

«أوه، إهدأي، لا أسمعك».

«يسرني أن أقوم بالترجمة». تلفتت كيكوكو وهي توشك على الضحك.

«الترجمة! إنها مجرد امرأة عجوز تحادث نفسها».

«تقول بأنها حلمت في الليلة الماضية بأن المنزل في شيناتو كان ينهار».

«أوه؟».

«ما هو ردك؟».

«قلت أوه ـ وهذا كل ما لدي».

انقطع صوت الماء. نادت ياسوكو كيكوكو.

«ضعي هذه في الماء من فضلك. كانت في منتهى الجمال حتى اضطررت لقطف بعضها، أرجوك الاعتناء بها».

«دعيني أريها للأب أولاً».

دخلت حاملة حزمة من سويقات البرسيم وعشب الخيزران.

لا بـد أن ياسوكو قد غسلت يديها ثم بللت أصص سيغاراكي الذي أحضرته.

«القرنفلة الدائمة الاخضرار عند الباب المجاور جميلة بهية اللون أيضاً»، قالت جالسة.

«هناك قرنفل قرب منزل عباد الشمس» قال شينغو متذكراً أن أزهار عباد الشمس الفارهة قد قوضتها العاصفة.

ارتمت الأزاهير في الشارع منكسرة عن جذوع بطول ست بوصات. لقد ظلت قابعة هناك عدة أيام، مثل رؤوس آدمية مفصولة.

ذبلت الأوراق أولاً، ثم جفت الجذوع وانقلب لونها رمادياً.

تعين على شينغو أن يطأها في طريق ذهابه للعمل وإيابه منه. كـان يبغض رؤيتها على هذه الحال.

عند المدخل شمخت أصول الجذوع عارية من الأوراق.

بالقرب منها كانت خمس سويقات من القرنفل المزهر تكتسب لونها.

«لكن لا مثيل في الجوار لتلك الطالعة عند الباب المجاور» قالت ياسوكو.

- ٢ -

حلمت ياسوكو بمنزل أسرتها.

بقي غير مسكون عدة سنوات، منذ وفاة والديها.

زوّج والدها ابنته الكبرى، قاصداً توريث ياسوكو اسم العائلة[١]، كان ينبغي حدوث العكس بالنسبة لوالد يؤثر ابنته الكبرى، لكنه أمام العدد الكبير من طالبي يد الشقيقة الجميلة أحس بالإشفاق على ياسوكو.

لعله بالتالي قنط من ياسوكو حين مضت بعد وفاة شقيقتها للعمل في البيت الذي شهد زواج أختها، كأنها عقدت العزم على الحلول محلها. لعله شعر بذنب ما لأن الأسرة والأهل جعلوها شديدة التفاني.

---

(١) من الشائع أن يحمل الزوج اسم زوجته حين تخلو أسرتها من الورثة الذكور.

لاح أن زواج ياسوكو من شينغو يسعده.

قرر قضاء ما تبقى من حياته دون وريث للأسرة.

شينغو الآن أكبر من السن الذي كان عليه الوالد حين وافق على زواج ياسوكو.

توفيت والدة ياسوكو أولاً، وبيعت كل الحقول بعد وفاة الوالد الذي خلّف منزلاً وأرضاً حراجية متواضعة. لم يكن هناك إرث ذو أهمية.

كانت باقي الأملاك باسم ياسوكو، لكن إدارتها أسندت إلى قريب ريفي. ربما قطعت الغابة لتسديد الضرائب. مضت سنوات عديدة منذ أن تلقت ياسوكو عوائد أو نفقات تتصل بالعقار الريفي.

توفر شارٍ مأمول خلال الحرب، حين ازدحم الريف باللاجئين. لكن ياسوكو أحست بالحنين إلى المنزل، ولم يضغط شينغو عليها.

في ذلك المنزل تزوجا. طلب الوالد إجراء المراسيم في المنزل، تعويضاً عن موافقته على زواج ابنته الوحيدة المتبقية على قيد الحياة.

سقطت ثمرة كستناء وهما يتبادلان أنخاب الزواج. ارتطمت بصخرة ضخمة في الحديقة، وبسبب زاوية سقوطها ارتدت مسافة بعيدة وتهاوت في غدير صغير. كان الارتداد غير عادي حتى كاد شينغو يشهق دهشة. قلّب بصره في أرجاء الغرفة.

لم يتضح أن أحداً غيره قد لاحظ سقوطها.

في اليوم التالي نزل شينغو ليفتش عنها. وجد عدة ثمرات من الكستناء قرب حافة الماء. لم يكن واثقاً من عثوره على الثمرة التي سقطت خلال الاحتفال، لكنه التقط واحدة منها ليروي حكايتها لياسوكو.

لكنه عندها اعتبر تصرفه طفولياً. هل ستصدقه ياسوكو أو غيرها ممن سيتحدث إليهم؟

ألقى بها في أجمة عشب قرب الماء.

كان خوفه من عدم تصديق ياسوكو له أقلّ من حيائه أمام زوج شقيقتها الذي يلجم فمه.

لو لم يكن زوج شقيقتها حاضراً، لروى شينغو الحكاية في احتفال

البارحة. كان يشعر بتوتر يشبه الإحساس بالعار في حضور زوج شقيقتها.

انتابته بعض مشاعر الإحساس بالذنب لاستمرار تعلّقه بالأخت حتى بعد زواجهـا، وكان موت الأخت وزواج ياسوكو قد أزعجا زوج شقيقتها.

كانت مشاعر العار أشد وطأة على ياسوكو. قد يقول المرء أن زوج شقيقتها قد استخدمها كبديل مناسب عن الخادمة، مدعياً الجهل بمشاعرها.

كانت دعوته لحضور زفاف ياسوكو أمراً طبيعياً، فهو من الأقرباء. وكان طبيعياً أن يبدو مرهقاً أيضاً. وجد شينغو صعوبة في النظر إليه.

كان زوج الشقيقة رجلاً وسيماً غمر حضوره العروس. بدا لشينغو أن إشعاعاً خاصاً يكتنف الجزء الذي يشغله من الغرفة.

كانت ياسوكو ترى في شقيقتها وزوجها قاطنين مقيمين في عالم الحلم. في زواجه منها، هبط شينغو بصمت إلى مصاف دركها الأدنى.

شعر أن زوج شقيقتها ينظر إلى الزفاف ببرود وتعالٍ.

لعل الفراغ الذي خلقه العجز عن البوح بأمر بسيط، كسقوط ثمرة كستنـاء، قد ضرب جذوره عميقاً في زواجهما ورسخ إلى الأبد.

حين ولدت فوساكـو، تمنى شينغو سراً أن تكون بجمال خالتها. ولم يكن ليبوح بأمنية كهذه لزوجته. لكن فوساكو أثبتت أنها أكثر من شبيهة بأمها.

عبّر شينغو عن الحالة بالقول أن دم الشقيقة الكبيرة فشل في السريان داخل عروق الصغيرة. خاب أمله في فوساكو.

بعد ثلاثة أيام أو أربعة من حلم ياسوكو بالمنزل الريفـي، وصلت برقية من قريب يقول فيها أن فوساكو وصلت مع طفلتيها.

وقعت كيكوكو على استلام البرقية وأعطتها لياسوكو التي انتظرت أوبة شينغو من العمل. رددت في هدوء بالغ وهي تراقب شينغو يقرأ البرقية:

«هل انطوى حلمي على تحذير ما؟».

«عادت إلى الريف إذاً؟».

لن تقتل نفسها... تلك كانت الفكرة الأولى التي خطرت له.

«لماذا لم تأت إلينا؟».

«لعلها توقعت أن يسمع إيهارا ويلحق بها».

«هل أرسل لها شيئاً؟».
«كلا».
«أظن الأمر منتهياً إذاً، حين تأخذ فوساكو الطفلتين ولا يستفسر هو».
«لكنها جاءت إلينا في المرة الماضية، ولعلها أخبرته بأنها عائدة لزيارتنا ثانية. لن يسهل عليه إظهار وجهه.
«مهما قلت، فالأمر انتهى».
«يدهشني أن تتمالك نفسها لدرجة العودة إلى الريف».
«كان ممكناً أن تأتي إلينا أيضاً».
«كان ممكناً أيضاً.. هذه ليست طريقة حارة في التعبير. علينا أن نتحسس وضعها، حين يتعذر عليها العودة إلى بيتها. نحن الأهل وهي الإبنة، وهذا ما وصلنا إليه. لقد كنت يائسة للغاية».
تجهم شينغو. رفع ذقنه ليحل ربطة عنقه.
«أين الكيمونو؟».
أحضرت كيكوكو الكيمونو، وحملت ثيابه بصمت.
جلست ياسوكو مطرقة خلال تغييره لثيابه. «ليس مستحيلاً كلياً أن ينفد صبر كيكوكو منّا» تمتمت، منطلقة صوب الباب الذي أغلقته كيكوكو وراءها.
«هل يظل الأهل مسؤولين أبداً عن زيجات خلفهم؟».
«أنت لا تفهم النساءِ. الأمر يختلف حين يكن حزينات».
«وهل تظنين أن المرأة قادرة على فهم كل ما ينتاب امرأة أخرى؟».
«شويشي غائب هذه الليلة أيضاً. لماذا لا تجيئان معاً؟ تعود وحدك إلى البيت فتعنى كيكوكو بملابسك، أهذا صحيح؟».
لم يجب شينغو.
«ألن نفاتحه بموضوع فوساكو»؟
«هل نرسله إلى الريف؟ لعلنا نبعثه إليها».
«قد لا ترغب في قدومه. لطالما سخر منها».
«لا فائدة من بحث الموضوع الآن. سنرسله يوم السبت».

«تبدو بخير أمام باقي أفراد الأسرة، أعترف بذلك. وها نحن ننعزل كأننا لا ننوي القيام بشيء لصالحهم. غريب أنها تصطحبهما حين لا يعنيان لها شيئاً كبيراً».

«من يعنى بها؟»

«لعلها تنوي الإقامة في المنزل القديم. لا يمكنها البقاء طويلاً مع عمتي».

عمة ياسوكو في الثمانينات الآن. كانت علاقة ياسوكو محدودة جداً بعمتها وابن عمتها، عميد الأسرة الحاضر. لم يعد شينغو يتذكر عدد الأخوة والأخوات.

أقلقه أن فوساكو قد فرّت إلى البيت الذي رآه مقوضاً في الحلم.

- ٣ -

صباح السبت، غادر شينغو وشويشي البيت سوية. كان قد تبقى بعض الوقت قبل رحيل قطار شويشي.

دخل شويشي مكتب شينغو. «سأترك هذه معك» قال مناولاً مظلته لإيكو. قفز راسها مستفسراً. «هل أنت راحل في مهمة عمل؟»

«نعم».

أنزل شويشي حقيبته، اقتعد كرسياً بالقرب من طاولة شينغو.

لاحقته عين إيكو. «كن حريصاً. قد يصبح الطقس بارداً».

«أوه، نعم». خاطب شويشي شينغو وهو يتفرس في إيكو. «كان مقرراً أن أرقص مع السيدة الشابة هذا المساء».

«أوه؟»

«اطلبي من الشيخ أن يصحبك».

توردت إيكو.

لم يشعر شينغو بأي داع للتعليق.

التقطت إيكو الحقيبة كأنها تنوي توديع شويشي.

«أرجوك. هذا ليس عمل السيدات»، خطف الحقيبة واختفى عبر الباب.

أبدت إيكو حركة صغيرة تلقائية صوب الباب، ثم عادت إلى طاولتها والغمّ باد على وجهها. لم يدرك شينغو إن كانت أسارير وجهها تصدر عن اضطراب أم تظاهر به لكنها انطوت على لمسة أنوثة أبهجته.

«مخجل أنه قد وعدك».

«لا أعوّل كثيراً على وعوده هذه الأيام».

«هل أكون بديلاً عنه؟».

«إذا رغبت».

«أهناك تعقيدات؟».

«ماذا؟» رفعت بصرها مصعوقة.

«هل تجيء صاحبة شويشي إلى قاعة الرقص؟».

«كلا!».

علم شينغو من إيكو أن صوت المرأة الأبح المتقطع كان شهوانياً. لم يطلب مزيداً من التفاصيل.

لم يكن أمراً خارقاً أن تعرف سكرتيرته المرأة وتجهلها أسرته، لكن قبول الحقيقة بات صعباً عليه.

كان قبول الأمر أصعب، أمام إيكو خصوصاً.

يعرف المرء أنها لا تنحدر من محتد رفيع، لكنها في مناسبات كهذه تثقل على صدره، كستارة الحياة ذاتها. لم يستطع التكهن بما يدور في ذهنها.

«هل قابلتها حين اصطحبك للرقص؟» سأل بلطف.

«نعم».

«مرات عديدة؟».

«كلا».

«هل قدمك إليها؟»

«لم يكن تقديماً بمعنى الكلمة».

«لا أفهم. أخذك لمقابلتها ـ أراد إثارة غيرتها؟».

«لست من النوع الذي يثير الغيرة» هزت إيكو كتفيها باستخفاف.
لاحظ شينغو أنها متعلقة بشويشي، وأنها تحس بالغيرة.
«كوني إذاً من النوع الذي يثير الغيرة».
«حقاً!» أطرقت ضاحكة. «لم تكن لوحدها».
«ماذا؟ كان معها رجل؟».
«ليس رجلاً. امرأة».
«خشيت ذلك».
«خشيت؟» نظرت إليه. «إنها المرأة التي تسكن معها».
«هل يستأجران غرفة معاً؟».
«يستأجران بيتاً. إنه صغير، لكنه لطيف».
«تقصدين أنك زرت البيت؟».
«نعم». كادت إيكو أن تبتلع الكلمة.
دهش شينغو من جديد. «أين يقع؟» سأل مقاطعاً بطريقة ما.
«لا ينبغي أن أخبرك» قالت برقة، واختلج وجهها قليلاً.
لزم شينغو الصمت.
«في هونغـو، قرب الجامعة».
«أوه؟».
تابعت كلامها كأن التوتر هدأ. «إنه في نهاية زقاق مظلم، لكن البيت ذاته لطيف. والمرأة الأخرى جميلة، أنا مولعة بها كثيراً».
«تقصدين الأخرى؟».
«نعم - إنها كائن لطيف».
«أوه؟ وماذا يعملان؟ أهما عازبتان؟».
«نعم، لا أعرف حقاً».
«إمرأتان تسكنان معاً».
أومأت إيكو. «لم أعرف كائناً أكثر لطفاً، أشتاق لرؤيتها كل يوم». تخللت نبرة كلامها مسحة حياء. تحدثت وكأن لطف المرأة أتاح لها غفران شيء ما في داخلها.

الأمر بأسره غريـب، هكذا فكّر شينغو.

خطر له أنها ـ في امتداح المرأة الأخرى تنتقـص بشكل غير مباشر من صاحبة شويشي، لكنه تعثر في تخمين مقاصدها الحقيقية.

نظرت إيكو من النافذة. «الجـو يصحو».

«ليتك تفتحينها قليلاً».

«ساورني بعض القلق، لأنه ترك المظلة. جميل أن يصادف طقساً حسناً في رحلته».

وقفت برهة من الزمن ويدها على النافذة المفتـوحة. كـانت تنورتهـا مرتفعة، وأحد جانبيها أطول من الثاني. أوحت وقفتها بالاضطراب.

عادت إلى طاولتها محنية الرأس.

أحضر صبي بعض الرسائل. وضعتها إيكو على طاولة شينغو.

«مأتم آخر» تمتم شينغو. «لقد زاد عددها. توريبمـا هذه المرة؟ في الثانية بعد الظهر. أتساءل عما حلّ بزوجته تلك».

اكتفت إيكو بالنظر إليه، فهي معتادة على طريقته في محادثة نفسه.

«لن أستطيع الذهاب للرقص هذه الليلة هناك جنازة». فغر فاه قليلاً.

كان يحدق ساهماً في الفراغ المواجه له. «لقد تعرض للاضطهاد، عذبته حقاً حين كانت تشهد تغيّر أطوار الحياة. لم تكن تطعمه. لم تكن تطعمه حقاً. كان يتدبر إفطاره في البيت كيفما اتفق، لكنها لم تكن تعدُّ له شيئاً. تجهِّز الطعام للأولاد فينال نصيباً منه حين تغفل عينها عنه. كان يخشاها لدرجة امتناعه عن الذهاب إلى البيت ليلاً. يتسكع كل ليلة أو يذهب إلى السينما أو الملاهي وغيرها، ويظل مبتعداً حتى يرقد الجميع بسلام. انحاز جميع الأولاد إلى صفها وساعدوهـا في اضطهاده».

«لست أعلم السبب».

«هكذا سارت الأمور، التغيير شيء فظيع».

بدا أن إيكو تظن نفسها عرضة لسخريته.

«ألا يمكن أن يكون هو المخطىء».

«كان مهماً في الحكومة، ثم التحق بمؤسسة خاصة. لقد استأجروا معبداً

لإتمام المأتم، وهذا يدل على تحسن أحواله. لم يكن معروفاً إلا بسجاياه الحميدة حين عمل في الحكومة».

«أظنة أحسن رعاية أسرته؟».

«بالطبع».

«ليس فهم الأمر يسيراً».

«كلا، لا أظن ذلك. ولكن هنـاك العديـد من السادة الـرائعين في الخمسينات أو الستينات من أعمارهم، يصرفون لياليهم في التسكع خوفاً من زوجاتهم».

حاول شينغو استرجاع وجه توريبيا، لكنه لم يتجسد أمامه، لم يلتقيا منذ عشر سنين.

تساءل إن كان توريبيا قد لفظ أنفاسه الأخيرة داخل البيت.

- ٤ -

ظن شينغو أنه سيقابل زملاء الدراسة الجامعية في الجنازة. وقف حذاء مدخل المعبد بعد تقديم البخـور. لكنه لم يبصر أحداً من معارفه.

لم يكن في الجنازة من يقاربه في السن. لعله وصل متأخراً.

تطلع إلى الداخل. بدأ الخط المحتشد في القاعة يتكسر ويتباعد. بانت الأسرة في الداخل.

ظلت الأرملة على قيد الحياة، كما افترض شينغو، لا بـد أنها المرأة النحيلة الواقفة أمام النعش.

واضح أنها تصبغ شعرها، لكنها لم تكرر صباغته حديثاً. كان أشيب عند الجذور، فكر، وهو ينحني أمامها، أنها لم تجد سانحة لصبغه حين كان مرض توريبيا الطويل يشغل وقتها، لكنه إذ استدار ليشعل البخور أمام النعش شعر بأنه يتمتم في قرارة نفسه: ليس للمرء أن يجزم. . .

حين ارتقى الأدراج وقدم العزاء للأسرة، نسي تمـاماً كيف اضـطهد الميت؛ وحين استدار ليودع الميت تذكر من جديد. دهش من نفسه.

شق طريقه إلى الخـارج، أشاح بوجهه كي لا يبصر الأرملة.

لم تفاجئه الأرملة بقدر ما فاجأه ذلك النسيان الغريب الذي ألمّ به. شعر بشيء من النفور وهو يقصد البيت عبر الممشىٰ المرصوف بالحجر.

حين أخذ يبتعد، شعر بالنسيان والتيه يضغطان على مؤخرة عنقه.

لم يتبق الكثير من الناس الذين يعرفون شيئاً عن توريبيا وزوجته. حتى لو عاش بعضهم فالعلاقة قد انفصمت. آلت الأمور إلى الزوجة لتتذكر كما يحلو لها. ما من طرف ثالث يتولى نبش الذاكرة عن سابق قصد.

وسط ثلة من ستة أو سبعة زملاء، بمن فيهم شينغو، لم يعد أحد يفكر ملياً بحالة توريبيا حين يرد ذكره. كانوا يكتفون بالضحك، أما من يذكره بينهم فيبطن ملاحظاته بالمبالغة والتهكم.

مات اثنان من المجموعة قبل توريبيا.

أتيح لشينغو الوصول إلى قناعة مفادها أن توريبيا وزوجته ذاتها لا يعرفان سبب إقدام الزوجة على اضطهاده، أو السبب في تعرّضه أصلاً للاضطهاد.

شيع توريبيا إلى قبره وهو يجهل السبب. أما الزوجة التي بقيت بعده فقد أصبح الأمر عندها صفحة من الماضي. لقد دخل مملكة الماضي حتى بدون توريبيا. لعلها تحمل هي أيضاً إلى القبر وهي تجهل السبب.

ذلك الرجل الذي ذكر توريبيا ـ في جلسة ثلة الزملاء ـ كان يمتلك تركة خلفتها له أسرته، مؤلفة من أربعة أو خمسة أقنعة «نو». زاره توريبيا كما قال، وأقام عنده طويلاً ليديم النظر في الأقنعة. ولأنها ليست ذات أهمية بالغة لرجل يراها للمرة الأولى، تابع الرجل كلامه، فالغالب أن توريبيا كان يقتل الوقت بانتظار رقاد زوجته.

لكن شينغو يدرك الآن أن رجلاً في الخمسينات من عمره، رب أسرة يتيه كل ليلة في الشوارع، لا بد سيغرق في أفكار أشدّ وطأة وعسفاً من أن يتقاسمها أحد معه.

الصورة التي تتقدم النعش أخذت كما يبدو في احتفال رأس السنة، أو عطلة أخرى قبل مغادرة توريبيا للعمل الحكومي. كان يرتدي لباساً رسمياً، وجهه مستدير وهادىء. أزال المصور عنه الظلال.

كان الوجه الهادىء في الصورة أكثر شباباً من الأرملة الواقفة قـرب النعش، حتى ليظن المرء أنها هي المضطهـدة، الأكبر من السن الذي هي عليه.

كانت امرأة قصيرة، وتأمل شينغو شعرها وجذوره البيضاء. تهدّل أحد كتفيها قليـلاً، ليعطي انطباعاً بالإرهاق والهزال.

اصطف الأولاد والبنات والأصهار قرب الأرملة، لكن شينغو لم يتبين وجوههم فعلياً.

«كيف تسير الأمور معك؟» قصد الاستفسار عما إذا كان قد قابل صديقاً قديماً ينتظر عند مدخل المعبد.

فكر أنه لو سئل السؤال نفسه لأجاب: «تدبرت الأمر بعض الشيء، لكن المتاعب ثارت في عائلة ولدي وابنتي». وبدا أنه قصد الإيضاح عن مشاكله.

عبارات البوح والوحي هذه لن تكون ذات فائدة لأي منهما، ولن تدفع إلى أي تفكير في الشفاعـة. سيكتفيان بـالترافق إلى مـوقف الحافلـة ثم الوداع.

هذا ما كان شينغو يتحرق للقيام به.

«ها قد مات توريبيا وانتهت عذاباته».

«هل يعتبر توريبيا وزوجته ناجحين إذا سعدت أسر أولادهما؟».

«أي حجم من المسؤولية يتحمله الأهل إزاء زيجات أبنائهم؟».

تقاطرت هذه التمتمات على ذهن شينغو واحدة إثر أخرى، فهي أشياء سيرغب في ترديدها حين يلتقي بصديق قديم.

كانت عصافير الدوري تسقسق على سقف مدخل المعبد.

إنها تقطع أقواساً على طول الأفاريـز، ثم تقطع الأقـواس ذاتها من جديد.

- ٥ -

مراجعان كانا ينتظرانه حين عاد إلى مكتبه. تناول الويسكي من كوّة وراءه وسكبه فوق الشاي الأسود. كان الشراب يسعف ذاكرته قليلاً.

حين استقبل المراجعين تذكر عصافير الدوري التي رآها في الحديقة صباح البارحة. كانت عند أقدام الجبل تنقر خصلات من عشب الخيزران. هل تفتش عن البذور أم الحشرات؟ ثم أبصر عصافير الدّرسة[1] بين ما اعتبره سرباً من عصافير الدوري. حدق فيها بإمعان.

قفزت ستة أو سبعة طيور من خصلة عشب إلى أخرى. نامت الخصلات بعنف.

ثلاث درُسات. أكثر هدوءاً من عصافير الدوري. لم تكن لها حيوية الدوري، وكانت أقل تمرّساً بالقفز.

تألّق أجنحتها ولون صدرها الزاهي جعلها تبدو كالطيور وليدة هذه السنة. بدت عصافير الدوري ملطخة بالغبار.

فضّل شينغو الدّرسات بالطبع، كانت صيحاتها مختلفة عن صيحات الدوري، وهناك فارق مشابه في حركاتها.

تأملها برهة، متسائلاً عن احتمال نشوب عراك بين الدّرسات والدوري. لكن عصافير الدوري، تناءت وطارت مع أقربائها، وخفقت أجنحة الدّرسات مع بعضها.

كان شينغو يتملاها بإعجاب كلما نهض لغسله الصباحي.

لعل عصافير الدوري فوق مدخل المعبد هي التي أعادت المشهد إلى ذاكرته. حين ودع الراجعين التفت مخاطباً إيكو: «دليني على مسكن صاحبة شويشي».

بانت المقاومة على أساريرها. قطبت حاجبيها قليلاً، ثم بدت مستكينة. لكنها أجابت ببرود، صوتها بعيد ومحتبس: «وماذا ستفعل لو أخذتك إليها؟».

«لا شيء يحرجك».

«هل تقصد رؤيتها؟».

لم يذهب شينغو بعيداً لدرجة التفكير في رؤيتها.

«ألا تستطيع الانتظار حتى يأخذك شويشي؟» ما تزال تتكلم بهدوء.

---

(١) طيور صغيرة تعيش في كنف عصافير الدوري ـ والحساسين (م).

لمس شينغو شيئاً من الازدراء في صوتها.

ظلت صامتة حتى بعد أن استقلا الحافلة.

كان غير راضٍ عن نفسه لأنه ألزمها، وأحس أنه يلطخ نفسه وابنه بالعار.

تخيل أنه يسوي الأمور في غياب شويشي، لكنه ارتاب في اكتفائه بالتخيل.

«إذا كنت ستتحدث مع أحد فالسيدة الأخرى هي الأولى بحديثك».

«تلك التي تعتبرينها لطيفة؟».

«نعم، هل أطلب منها المجيء إلى المكتب؟».

«لا أدري».

«يفرط في الشراب عندهما، ثم تثور ثائرته ويأمر السيدة الأخرى بالغناء، صوتها جميل للغاية، ثم تنخرط كينو في البكاء. إذا كان الأمر يعنيها حقاً فهي تصغي لما تقوله المرأة الأخرى».

إنها طريقة مضطربة في التعبير عن النفس. لا بد أن كينو هي صاحبة شويشي.

لم يكن شينغو يعلم بإدمان شويشي على الشراب.

ترجلا قرب الجامعة ودخلا في زقاق ضيق.

«سأجد نفسي مجبرة على ترك المكتب إذا سمع شويشي»، قالت إيكو بخفوت. «سأضطر لطلب التسريح».

مرّ طفل بشينغو.

توقفت إيكو. «تلفّ حول السياج الحجري ذاك، ويكون البيت هو الرابع. سترى اسم ايكيدا على البوابة. سوف تريانني. لا أستطيع المضي خطوة أخرى».

«لنتخلّ عن الموضوع إذاً، إذا كان يحرجك».

«لماذا، حين تمضي فيه حتى هذا المدى؟ عليك بإكماله. إنه يحلّ السلام في عائلتك». شعر بشيء من الخبث في هذا التحدي.

أطلقت عليه إيكو اسم السياج الحجري، لكنه كان خرسانة مسلحة.

سار في محاذاة شجرة قيقب ضخمة. ليس في المنزل ما يلفت النظر.. صغير وقديم يحمل اسم ايكيدا. كان المدخل مظلماً يواجه الشمال، الأبواب الزجاجية في أعلى السلالم كانت مغلقة، البيت غاية في الصمت.

لا شيء غير ذلك تلتقطه عيناه.

تقدم ساخطاً إلى الأمام.

أي نوع من الحياة يعيشه ابنه وراء هذا الباب؟ لم يكن مستعداً للظهور بمظهر مباغت.

دخل في شارع آخر.

لم تكن إيكو حيث تركها.. توارت عن بصره في الشارع الرئيسي الذي يفضي إليه الزقاق.

حين عاد إلى البيت تجنب النظر إلى كيكوكو. قال لها: «مرّ شويشي على المكتب لبضع دقائق. ثم سافر. أنا سعيد بالطقس الحسن الذي سيلقاه».

أوى إلى فراشه مبكراً، مرهقاً.

«كم تبلغ إجازته؟» كانت ياسوكو في غرفة الإفطار.

«لم أسأل» أجابها من فراشه. «ليس مطلوباً منه سوى إحضار فوساكو ـ وأتخيل أنه سيستغرق يومين أو ثلاثة».

«ساعدت كيكوكو في تغيير حشوة اللحاف هذا اليوم».

ستعود فوساكو مع طفلتيها. فكر شينغو كم ستكون الأمور صعبة على كيكوكو.

ينبغي أن يستأجر شويشي منزلاً لائقاً مستقلاً، حدّث نفسه. فكر بالبيت في هونغو.

وفكر في أيكو المتحدية. لازمها يومياً فما شهد منها انفجاراً حتى اليوم.

لم يسبق له أبداً أن رأى كيكوكو ترخي العنان لتواضعها. قالت ياسوكو إنها تكبت غيرتها دون وضع اعتبار لأحد حتى لشينغو ذاته.

سرعان ما استغرق في النوم. استيقظ على شخير ياسوكو، ضغط أنفها بين أصابعه.

«هل تظن أن فوساكو ستحضر المنديل ثانية؟» قالت ياسوكو كأنها ظلت ساهرة طوال الوقت.

«لن يفاجئني ذلك».

ولم يعد لديهما شيء آخر يتبادلانه.

حُلمٌ بالجزُر

أسقطت كلبة ضالة جراءها تحت أرضية منزل شينغو.

«أسقطت الجراء» طريقة فظة بعض الشيء للتعبير عن المعنـى، لكنها حدثت هكذا بالنسبة لشينغو وعائلتـه، كان المهد أسفل الشرفة.

«لم نلمح تيرو ليلة البارحة يا أماه» أبدت كيكوكو ملاحظتها في المطبخ قبل أسبوع أو نحوه، «وهي ليست هنا اليوم أيضاً. هل تظنين أنها تلد؟»

«لم تظهر، بما أنك ذكرتها»، قالت ياسوكو دون كثير اهتمام.

كان شينغو في الكاتاتسو[1] يصنع الشاي. منذ بداية الخريف تملكته عادة صنع أفخر أنواع الشاي في الصبـاح، وكان يعده لنفسه.

ذكرت كيكوكو الكلبة تيرو وقت تناول الإفطار. لم يضف أحد شيئاً.

«تناولي كوباً» قال شينغو وهو يسكب الشاي حين أحضرت كيكوكو إفطاره.

«لك جزيل الشكر». لم يحدث هذا من قبل. كانت طريقة كيكوكو احتفالية للغاية.

أزهار الأقحوان زاهيـة فوق عبـاءتها والأوبي[2]. «وقـد مضى موسم الأقحوان، بكل هذا الصخب الخاص بفوساكو نسينا عيد ميلادك».

«العقد فوق الأوبي هو رسم الأمراء الأربعـة، ويستطيع المرء ارتداءه طوال السنة».

«الأمراء الأربعة؟»

---

(١) إطار مغطى بكساء محشو ملبس بنحاس غائر لتسخين الأطراف.

(٢) زنار عريض يشد فوق ثوب ياباني.

«الأوركيد والخيزران والبرقوق والأقحوان» قالت كيكوكو بعذوبة. «لا بد أنك رأيته في مكان ما. يستخدم دائماً في الرسوم وعلى الكيمونو».

«نوع جشع من العقود».

«كان لذيذاً» قالت كيكوكو وهي تضع طاس الشاي.

«من ذاك الذي قدم لنا الفيوكورو[1]؟ عند قيامنا بتقديم العزاء في جنازة كما أظن، عدنا حينذاك لشربه ثانية. كنا نكثر من شربه قبل البانشا[2]».

مضى شويشي لتوه إلى المكتب.

حين وطأ العتبة بحذائه كان شينغو يحاول استرجاع اسم الصديق الذي تناولوا بسببه شاي الفيوكورا. كان بمقدوره الاستفسار من كيكوكو، لكنه لم يفعل. ذاك الصديق اصطحب فتاة شابة إلى منتجع ربيعي وتوفي هناك فجأة.

«صحيح أننا لم نعد نرى تيرو» قال شينغو.

«لا البارحة ولا اليوم أيضاً» قالت كيكوكو.

يحدث أحياناً أن تقترب تيرو، حين تسمع شينغو يتهيأ للمغادرة.. تقترب من مدخل الباب وتتبعه حتى البوابة.

لقد شاهد كيكوكو منذ فترة قصيرة تتحسس بطن تيرو عند الباب.

«منتفخة ومترهلة» قالت كيكوكو عابسة، لكنها واصلت تحسس الجراء مع ذلك.

«كم يوجد منها؟»

نظرت تيرو إلى كيكوكو بفضول ـ، مظهرة بياض عينيها. ثم انقلبت رافعة بطنها.

لم تكن متورمة إلى درجة منفرة. عند الذيل، حيث كان الجلد يميل إلى النعومة، كانت المعدة قرنفلية فاتحة. كانت القذارة تلطخ الحلمات.

«هناك عشر منها» قالت كيكوكو. أحصى شينغو بعينيه. الزوجان الأماميان كانا صغيرين، كأنهما ذاويان.

---

(١) و (٢) من أنواع الشاي.

كان لتيرو سيّدها وترخيصها، والظاهر أنه لا يطعمها دائماً. أصبحت كلبة ضالة. أخذت تتجول على المطابخ في الجـوار، وتقضي وقتاً أطول في مطبخ شينغو مذ اعتادت كيكوكو إعطاءها فضلات الصباح والمساء، مضافاً إليها شيء خاص بتيرو ذاتها. يحدث غالباً، وفي الليل خصوصاً، أن يتعالى نباحها في الحديقة. بدا أنها ربطت مصيرها بهـم، لكن أحداً لم يعتبرها ملكاً له، حتى كيكوكو.

كانت تيرو تذهب دائماً لتحمل بالجراء.

غيابها البارحة واليوم كان يعني ذهابها من جديد لتحمل بالجراء، وهذا ما قصدته كيكوكو.

يبدو محزناً أن تذهب بعيداً لهذا الغرض.

هذه المرة ولدت الجراء تحت أرضية منزل شينغو. انقضت عشرة أيام أو نحوها قبل أن يلاحظها أحد.

«ولدت تيرو جراءها هنا أيها الأب» قالت كيكوكو حين عـاد شينغو وشويشي من المكتب.

«أوه؟ أين؟».

«تحت غرفة الخادمة».

«أوه».

لا توجد خادمة في حقيقة الأمر، والغرفة الضيقة الصغيرة التي يطلق عليها اسم غرفة الخادمة كانت تستخدم لحفظ المؤونة.

«تذهب تيرو دائماً أسفل غرفة الخادمة. ولذا نظرت فـوجدت بعض الجراء هناك»

«كم عددها؟»

«الظلام الدامس لا يسمح بعدِّها. لقد توغلت إلى الأسفل».

«ولدتهـا هنا إذاً؟».

«تقول الأم إن تيرو باتت غريبة الأطوار مؤخـراً، تدور وتدور حول سقيفة الأدوات وتنبش الأرض. كانت تبحث عن مكـان ما تضـع فيه جراءها. لو أننا وضعنا قشاً في السقيفة لولدتها هناك».

«ستثور مشكلة كبيرة حين تكبر الجراء» قال شويشي.

ابتهج شينغو لولادة تيرو في البيت، لكن الفكرة المنغصة راودته أيضاً: لا ريب في أنهم سيضطرون يوماً لنبذ هذه الجراء المهجنة حين لا يكون بوسعهم طردها.

«علمت أن تيرو وضعت جراءها هنا» قالت ياسوكو.

«هذا ما علمته أيضاً».

«علمت أنها وضعتها أسفل غرفة الخادمة. الغرفة الوحيدة في البيت حتى لا يستغلها أحد. تدبرت تيرو الأمر بعناية».

قطبت ياسوكو حاجبيها حين تطلعت إلى شينغو وهي لا تزال في الكاتاتسو.

دخل شينغو في الكاتاتسو بدوره، حين تناول كوب الشاي قال لشويشي: «وماذا حلّ بالخادمة التي كانت تانيزاكي ستحضرها لنا».

سكب كوباً ثانياً.

«هذه منفضة سجائر يا أبي».

لقد سكب كوبه الثاني في منفضة السجائر.

- ٢ -

«تقدمت في السن - ولم أتسلق جبل فوجي بعد». كان شينغو في مكتبه. بضع كلمات انبثقت من لا شيء، لكنها بدت ذات مغزى بطريقة ما. ردد الكلمات ثانية.

ليلة أمس حلم بخليج ماتسوشيما وجزرها. ربما كان هذا سبباً يفسر توارد الكلمات.

هذا الصباح بدا حلمه بماتسوشيما مستغرباً، فهو لم يزره أبداً. وخطر له أنه في سنّه هذا قد زار مكاناً واحداً فقط من «المناظر العظيمة الثلاثة في اليابان». لم ير ماتسوشيما ولا شاطىء البحيرة في آمانوها شيداي. ذات مرة، في طريق عودته من رحلة عمل إلى كيوتو، ألقى نظرة على مذبح مياجيما. كان الوقت شتاء، وهو ليس الفصل المناسب لذلك.

فوق مرج معشوشب تحت ظلال الصنوبر، احتضن امرأة بين ذراعيه. كانا يختبئان خوفاً. بدا أنهما تركا أصحابهما. امرأة في ريعان صباها، صبية حقيقية. كان يجهل عمره آنذاك، لا بد أنه كان شاباً مع ذلك، قياساً على اندفاعتهما أثناء الوثب بين أشجار الصنوبر. لم يَبدُ عليه أنه يشعر بفارق السن بينهما وهو يحتضنها بين ذراعيه، عانقها كما يفعل الشاب. لكنه لا يفكر في استعادة شباب ضائع، كما لا يبدو الحدث حلماً غابراً. كأنه، في الثانية والستين، ما يزال في العشرينات من عمره. في تلك الحقيقة ذاتها تكمن الغرابة.

شق القارب الآلي الذي استقلاه عباب البحر. وقفت امرأة في القارب تلوّح وتلوّح بمنديلها. كانت صورة المنديل الأبيض والبحر من ورائه حية في ذهنه حتى بعد أن استفاق. تركا وحيدين على الجزيرة، وغاب الترقب الذي كان سيحس به. اكتفى بإقناع نفسه أنه قادر على رؤية القارب في البحر، وأنهما لن يكتشفا.

كان يراقب بياض المنديل حين استفاق.

لم يدرك بعد صحوته هوية تلك المرأة. لم يعد يذكر وجهها وملامحها حتى لم يبق لديه أي انطباع ملموس. ألوان المشهد الطبيعي هي وحدها التي ظلت جلية. لم يدرك السبب في جزمه بأنها كانت ماتسوشيما، أو السبب في حلمه بماتسوشيما.

لم يزر ماتسوشيما، ولم يعبر البحر إلى جزيرة غير مأهولة.

فكر بسؤال أحد أفراد الأسرة عن أية علاقة ممكنة بين رؤية الألوان في الحلم والإرهاق العصبي، لكنه لبث صامتاً حتى النهاية. لم يبهجه التفكير بأنه قد حلم بمعانقة امرأة، بدا عمره معقولاً بصورة إجمالية... الجانب الشاب من نفسه هو السبب.

كان التناقض يبعث في نفسه عزاء ما.

أحس أن الغرابة سائرة إلى الاضمحلال حين يعرف هوية المرأة. سمع طرقاً على الباب عندما جلس ليدخن.

«صباح الخير».

دخل سوزوموتو. «ظننت أنك لن تكون هنا»...

علّق سوزوموتو قبعته. دخلت تانيزاكي متلهفة لتناول معطفه، لكنه جلس دون أن يخلعه. بدا رأسه الأصلع مضحكاً لشينغو. كان لـون الكهولة الباهت واضحاً فوق أذنيه. كانت البشرة الكهلة موحلة اللون.

«ما الذي جاء بك في هذا الوقت المبكر؟» كتم شينغو ضحكته ناظراً إلى يديه، سيطفح امتقاع طفيف من ظاهر يديه حتى رسغه، ثم يتلاشى ثانية.

«ميزوتا، مات ميتة سعيدة».

«آه، نعم. ميزوتا»، تذكر شينغو. «قدموا الفيوكـورو بعد الجنـازة، وعدت إلى تناوله من جديد. كان شاباً طيباً أيضاً».

«لا أعرف شيئاً عن الفيوكورو، لكني أحسده على طريقة قوله. تناهى إليّ شيء من تلك الأقاويل. لكن ميزوتا ليس كباقي البشر».

شهق شينغو معبراً عن دهشته.

«ألا تحسده؟»

«أنت أصلع وبدين، ولا أمل لك».

«لكني لا أعاني من شدة ضغط الدم. علمت أن ميزوتا كان يخشى الذبحة ويرفض قضاء الليل لوحده».

مات ميزوتا في فندق اصطياف. خلال التشييع تهامس أصدقاؤه القدامى بما أسماه سوزوموتو موتاً سعيداً. بدا غريباً فيها بعد، بعد انفضاح وجود امرأة شابة معـه، أنهم استنبطوا فكرة الموت السعيد. قـال البعض إنها ستحمل ذكريات بائسة طوال حياتها، فالآخرون اعتبروا أنها ستكون ممتنة لما حدث إذا كانت تحبه.

اعتبر شينغو أن تفوه هؤلاء الطاعنين في السن برطانة الطلاب لكونهم زملاء الدراسة الجامعيـة، يبدو علامة أخرى على العلاقات القبيحة للكهولة. لا زالوا يتخاطبون للإلقاء ويتمازحون بصورة حميمة كما كانوا خلال سنوات الدراسة. عرفوا كل شيء عن بعضهم البعض حين كانوا شباباً، وقادتهم المعرفة إلى الإلفة والحنين؛ لكن القوقعة الطحلبية لمشاعر الـ «أنا» ترفض ذلك. موت ميزوتـا، الذي سخر من موت توريبمـا، أصبح الآن مـدار سخرية.

أصرّ سوزوموتو خلال التشييع على ذكر الموت السعيد، لكن الفكرة لاقت استنكار شينغو.

«ليس وصفاً لائقاً تماماً برجل عجوز».

«كلا. لم نعد نملك حتى الحلم بالنساء بعد الآن». كانت نبرة سوزوموتو مفرطة في الهدوء.

«هل سبق لك أن تسلقت فوجي؟».

«فوجي؟» بدا سوزوموتو حائراً. «لماذا فوجي؟ كلا، لم أفعل. لماذا تسأل؟»

«لم أفعل أنا أيضاً. تقدمت في السن ولم أتسلق جبل فوجي بعد».

«ماذا؟ أهو نوع من المزاح البذيء؟».

أطلق شينغو قهقهة عالية.

كتمت إيكو ضحكتها. كانت تعمل على آلة حاسبة قرب الباب.

«حين تفكر بالأمر، يتضح لك أن عدداً مدهشاً من الناس يوارون قبورهم دون تسلق فوجي أو رؤية المناظر الثلاثة العظيمة. كم نسبة اليابانيين الذين تسلقوا فوجي في رأيك؟».

«لا تبلغ الواحد في المائة كما أظن». عاد سوزوموتو إلى موضوعه السابق.

«أشك في أن شخصاً واحداً من كل عشرة آلاف، من مئات الآلاف، له حظ طيب مثل ميزوتا».

«هل ربح جائزة اليانصيب؟ لن يكون أمراً ساراً لعائلته».

«نعم، العائلة. الحق أن زوجته جاءت إلي» قال سوزوموتو بما يشبه التمهيد لموضوعه الحقيقي. «وسألتني عن هذا الأمر». وضع طرداً مغلفاً بقماش على الطاولة. «أقنعة. أقنعة النو. طلبت مني شراءها. رأيت أن تلقي عليها نظرة سريعة».

«لا أفقه في الأقنعة. إنها مثل المناظر الثلاثة العظيمة، أعرف أنها في اليابان، لكني لم أزرها أبداً».

كان هناك صندوقان. أخرج سوزوموتو الأقنعة من جرابها.

«هذا قناع الجيدو كما أخبروني، وهذا الهاسيشكي. كلاهما للأطفال».

«أهذا للأطفال؟» تناول شينغو قناع الهاسيشكي من الطوق الـورقي الذي يمتد من أذن إلى أخرى.

«الشعر مرسوم عليه، أترى، في شكل ورقة الغينغكو. هذه علامة الصبي الذي لم يبلغ الرشد. هذه هي الغمازات».

«أوه؟ حمل شينغو القناع على طول ذراعه.» تانيزاكي. أيديمدساتي. هناك من فضلك».

«كلا، احمله كما تفعل، يقولون، إن على المرء حمل قناع النو فـوق مستوى النظر قليلاً وذراعاه ممدودتان. إنه في الحقيقة أفضل للشيوخ من أمثالنا. احنه قليلاً لكي تحجبه».

«يبدو شبيهاً بشخص أعرفه. واقعي تماماً».

إحناء قناع النو قليلاً إلى الأمام يعرف باسم «الحجب» هكذا شرح سوزوموتو، لأن القناع يأخذ جانباً كئيباً؛ ورفعه إلى الأعلى يعرف باسم «الإضاءة» لأن التعبير يصبح مشرقاً وسعيداً؛ أما تحويله إلى اليمـين أو اليسار، أضاف الرجل، فيعرف باسم «الاستهلاك» أو «البتر» أو شيء من هذا القبيل.

«يبدو شبيهاً بشخص أعرفه» ردد شينغو ثانية. «يصعب اعتباره طفلاً، إنه أقرب إلى الرجل الشاب».

«كان الأطفال يبكرون في النضج آنذاك. وجه طفـل حقيقي سيبدو ناشزاً عن قناع النو. تفحصه بعناية. إنه صبي. قيل لي أن الجيدو شبح من نوع خاص. لعله رمز للشباب الأبدي».

قلب شينغو قناع الجيدو بهذا الاتجاه أو ذاك، كما أشار سوزوموتو. كان الشعر يتجمع في خصلات طفولية.

«لماذا لا تأخذها كاملة؟»

وضع شينغو الأقنعة على الطاولة. «أنت اشتريتها، أنت الذي طلبت منك الزوجة شراءها».

«لديها خمسة أقنعة في الواقع. اشتريت قناعين نسائيين، وألزمت أونّو بواحد. فكرت أنك قد تأخذ البقية».
«تترك لي الفضلات إذن؟ اعتنيت جيداً بنفسك ـ فاشتريت أقنعة نسائية أولاً».
«هل تفضل الأقنعة النسائية؟».
«ما الفرق الآن، وقد ذهبت؟».
«أستطيع إحضارها إذا رغبت. سأوفر النقود لو أخذتها. كل ما في الأمر أنني شعرت بالإشفاق عليها بسبب طريقة موت ميزوتا، ولم أستطع الرفض. لكنها ذكرت أن صناعة هذه تفوق صناعة الأقنعة النسائية. ثم ألا تحب فكرة الشباب الأبدي؟».
«ميزوتا مات، وتورييا الذي كثيراً ما تملاها عند ميزوتا، مات بدوره أيضاً، أقنعتك لا تشعر المرء بارتياح كبير».
«لكن قناع الجيدو رمز للشباب الأبدي. ألا تحب الفكرة؟».
«هل شاركت في تشييع تورييا؟».
«لا أعرف السبب، لكني لم أذهب». نهض سوزوموتو. «حسناً، سأتركها عندك. تفحصها بعناية. فتش عمن يأخذها إذا لم تعجبك؟».
«تعجبني أم لا، مسألة أخرى، إنها لا شيء بالنسبة لي. لا أشك في أنها أقنعة جيدة، ولا يعني هذا أنني لو بترتها عن النو فسأقتلها حين أموت؟».
«لا حاجة للقلق».
«هل هي باهظة الثمن؟» سأل شينغو كأنه يطارده.
«نعم، خشيت أن أنسى، وأطلب منها كتابة السعر هناك على الطوق. يبدو أنها تستحق ما يدفع من أجلها، لكني واثق من قدرتك على عقد الصفقة».
وضع شينغو نظارته وأخذ يحل الطوق. حين تبين الشعر والشفتين بوضوح فاجأه الجمال الصارخ في قناع الجيدو حتى دهمته الرغبة في الصراخ.

حين انصرف سوزوموتو دنت إيكو من مكتبه.

«أليست جميلة؟».

أومأت كيكوكو بصمت.

«تقلّديها لبرهة قصيرة».

«ولكن في الأمر خطأ فادح. إنني أرتدي ثياباً أجنبية. مع ذلك، حين ناولها شينغو القناع ارتدته وربطت الطوق.

«حرّكي رأسك ببطء شديد».

وقفت إيكو أمامه، حركت رأسها هنا وهناك.

«جميل، جميل جداً» خرجت الكلمات عفوية متدفقة. كان القناع يضج بالحياة لدى أصغر حركة. إيكو ترتدي ثوباً خمرياً، وشعرها يرسل موجات تتساقط في شلالات على جانبي القناع، لكنها توهجت بسحر جعله أسيراً لها.

«أهذا يكفي؟»

«نعم». وعلى الفور أرسل شينغو إيكو لتشتري له مرجعاً خاصاً بأقنعة النو.

- ٣ -

حملت الأقنعة أسماء صانعيها. ذكر المرجع أنها لا تدخل في تصنيف «الأقنعة القديمة» من حقبة موروماشي، لكنها نتاج أحقاب العصر التالي. حتى المبتدىء من أمثال شينغو كان يحس، إذ يحتويها بين يديه، إنها ليست نماذج مقلدة.

«إنها تبعث على الحذر» قالت ياسوكو وهي تضع العدسات.

ضحكت كيكوكو بلطف «هل تبصرين بعدسات الأب؟»

«العدسات مشوشة للغاية» رد شينغو على زوجته. «يصلح أي منها لأي شخص». كانت تستخدم العدسات التي أخرجها من جيبه.

«في معظم البيوت يرتديها الزوج مثل غيره بصورة أبكر، لكن العجوز هنا أكبر بسنة». جلس شينغو في الكوتاتسو بنشاط باد، دون خلع معطفه.

«المشكلة الرئيسية إنك لا ترى حين تأكل. أنت لا تبصر الطعام الموجود أمامك، لـو كان مؤلفاً من قطع صغيـرة فسيتكرر مـراراً جهلك بنوع الطعام. تبدأ بارتدائها، ثم تتناول وعاء أرز كهذا فتزيغ الصحاف وتختلط ببعضها، فلا تفرق بينها. إنها مربكة للغاية بادىء الأمر»، وكان شينغو يحدق في الأقنعة.

ثم خطر له أن كيكوكو، التي تحمل الكيمونو ـ تنتظره ليبدل ثيابه ـ وأن شويشي سيغيب عن البيت لهذا المساء أيضاً.

واصل النظر إلى الكوتاتسو وهو يقف لتغيير ثيابه. كان حزيناً، يتجنب وجه كيكوكو.

شعر بثقل في صدره، لعل غياب شويشي عن البيت هو الذي دفع كيكوكو للمجيء والتفرج على الأقنعة كأن شيئاً ذا أهمية لم يحـدث من حولها.

«كالرؤوس في كتلة حطب، إنها تبعث على الخدر في مجموعها» قالت ياسوكو.

عاد شينغو إلى الكاتاتسو. «أيها تؤثرين أكثر؟».

«هذا» أجابت ياسوكو دون تردد، حاملة قناع كاسيشكي.

«أوه!» هال شينغو لهجة الحسم عند ياسوكو. «إنها من صنع اناس مختلفين، لكنها تنتمي للحقبة ذاتها. في زمن تويوتي هيديوشي. قرّب وجهه من قناع الجيدو لينظر إليه من الأعلى.

كان الكاسيشكي ذكراً، له حاجبا رجل، أما الجيدو فهو محايد. هناك مسافة واسعة بين الحاجبين والعينيـن، وكان الحاجبان المقوسان قليلاً حاجبي فتاة.

حين أدنى وجهه من القناع ليتفحصه من الأعـلى، أخذت البشـرة، الناعمة والبضة كبشرة فتـاة، ترق في عينيه الكليلتيـن، وانبعثت الحياة في القناع، دافئاً وباسماً.

التقط أنفاسه. على مبعدة ثلاث أو أربع بوصات من عينيه انبعثت صبية حية تبتسم له، بنقاء، بجمال.

الثغر والعينان والفم كانت تضطرم بالحياة. في المحجرين الفارغين استقر بؤبؤان أسودان. كانت الشفاه الحمراء ندية ومثيرة. كتم أنفاسه، قرب وجهه حتى كاد أنفه يمس القناع. طاف البؤبؤان الأسودان أمامه، وارتجف لحم الشفة السفلى، أوشك على تقبيلها. أطلق تنهيدة مخنوقة، وانكمش إلى الخلف.

أحسى أنها تخدعه عن بعد، تنفس بصعوبة لبعض الوقت.

كان منقبض النفس حين أعاد قناع الجيـدو إلى جرابـه المصنوع من القماش المطرز بالذهب فوق قاعدة حمراء. أعطى جراب قناع الهاسشيكي لياسوكو.

«ابعديه من هنا».

أحـسّ كأنه ببصره اخترق أعماق الشفة السفلى من الجيدو حيث يخبو اللون الأحمر العتيق داخل الفم، كان الفم منفرجاً قليلاً، لكن الأسنان لم تكن وراء الشفة السفلى. كان الفم أشبه بزهرة في برعم ينهض فوق ضفة ثلجية.

لعل تقريب الوجه من قناع النو إلى درجة الملامسة قد يعدّ ضرباً من شذوذ لا يغتفر. لعله طريقة في استعراض القناع لم يقصدها الصانع، أيقن شينغو بعشق الصانع ذاته للقناع، فهو يضج بالحياة حين يرى من بعد مناسب عن مسرح النو، فكيف إذا سقط البعد تماماً كما حدث الآن؟ لا بد أنه سيتفجر بالحياة.

أحس شينغو بوجيب يشبه عشق السماء الشاذ، لكنه ابتغى السخرية من الموقف، معللاً النفس بأن عيَنيه الذاويتين جعلتا البشرة أكثر فتنة من بشرة امرأة حقيقية.

تساءل إن كانت سلسلة الوقائع الغريبة هذه ـ عناقه لفتاة في الحلم، إحساسه بسحر إيكو الأسر وهي تتقلد القنـاع، دنوه من الجيدو لتقبيله ـ تعني اقتراب شيء ما يوشك على هزّ دعائم بيته...

لم يحدث أنه قرّب وجهه من وجه فتاة شابة منذ استخدامه للعدسات. أكان ذلك الوجه سيبدو لعينيه الكليلتين أشد رقة ونعومة؟.

«إنها ملك ميزوتا. تعرفينـه، ذاك الذي جلبت منه الغيوكورو. الرجل الذي مات في ينبوع حار».

«تبعث على الخدر» رددت ياسوكو من جديد.

سكب شينغو الويسكي على شايه. في المطبخ، كانت كيكوكو تقطع البصل لإعداد حساء السمك.

- ٤ -

صبيحة التاسع والعشرين من كانون الأول كان شينغو يغسل وجهه، حين لمح الكلبة تيرو تتشمس مع جرائها في الخارج.

حتى حين بدأت الجراء تخرج من مكمنها أسفل غرفة الخادمة، لم يعرف شينغو أنه كان عددها أربعة أم خمسة. سوف تنقض كيكوكو على أحدها وتعيده إلى البيت. كانت الجراء تستكين تماماً بين يديها، لكنها تهرب عائدة إلى أسفل البيت حالما تبصر شخصاً قادماً. قالت كيكوكو مرة أنها أربعة، ثم ذكرت أنها خمسة فيما بعد.

أبصر خمسة جراء تحت شمس الصباح.

كانت عند أقدام الجبل، حيث رأى عصافير الدُّرُّسة تختلط بالدوري، كانت رابضة حيث يتكوم التراب من كهف أُعدّ ليكون ملجأ من الغارات الجويـة، وحيث أقاموا مسكب خضار خلال الحرب، أصبح الآن مكاناً تتشمس فيه الحيوانات. يبس عشب الخيزران الذي انشغلت به عصافير الدوري - والدّرسة. لكن الحزم القوية التي ظلت شاخصة غطت جانب الـرابية. كـان التراب الـذي يعلوها مغـطى بالـطحلب الناعم، غمـره الإعجاب بحكمة تيرو في انتقاء المكان.

لقد أخرجت تيرو جراءها إلى مكان مناسب قبل استيقاظ المخلوقات، أو أثناء انهماكهم بإعداد الإفطار، واستلقت ترضعها وتدفئها تحت شمس الصباح. كانت تستمتع تماماً بلحظة لا يضايقها فيها أحد. لهذا تأمـل

المشهد في البداية، ثم ضحك مما ارتسم أمامه في الشمس الدافئة. شهر كانون الأول في أخريات أيامه، لكن شمس كاماكورا ما زالت دافئة في الخريف.

لكنه حين أنعم النظر رأى الجراء الخمسة تتدافع وتتزاحم فيما بينها خلال تنافس مثير على الضروع. كانت مخالبها الأمامية ترتطم ببطن تيرو كالسفود، فترتخي البطن أمام القوة الحيوانية الصغيرة، أما تيرو فبدت مكرهة على السماح للجراء بالرضاعة، فلعلها أصبحت الآن قوية بما يتيح لها تسلق المنحدر. تلفتت واستدارت ثم استلقت على بطنها، التي بدت محمّرة من أثر المخالب الطاحنة.

نهضت أخيراً وانتبذت الجراء، وهبطت المنحدر بسرعة. تعلق جرو أسود بالحلمة بعناد مختلف، فانحدر متدحرجاً من الرابية.

كانت سقطة من ارتفاع ثلاثة أقدام. حبس شينغو أنفاسه متحفزاً، نهض الجرو كأن شيئاً لم يحدث، لبث ساكناً، للحظة خاطفة، ثم سار مبتعداً يتشمم التراب.

«ما هذا؟» أحس أنه يرى الوقفة للمرة الأولى، لكنها تشبه تماماً وقفة سابقة مرّت به. فكر بعض الوقت.

«هكذا، إنها لوحة سوتاتسو» تمتم لنفسه. «رائعة».

كان شينغو قد ألقى نظرة على لوحة سوتاتسو المرسومة بالحبر والتي تصور جرواً. اعتبرها فريدة في أسلوبها كاللعبة؛ وها هو يُدهش الآن لرؤيتها متجسدة في الحياة. رونق الجرو الأول وبهاء وقفته وجمالها كانت شبيهة تماماً بلوحة سوتاتسو.

فكر ثانية في قناع كاسشيكي، وكيف ذكّره بشخص ما.

سوتاتسو وصانعو الأقنعة ينتمون لفترة واحدة.

رسم سوتاتسو ما يمكن تسميته اليوم بالجرو الهجين.

«تعالوا وانظروا. كل الجراء في الخارج».

هبطت الجراء الأربعة الأخرى إلى أسفل المنحدر وهي تنكش الأرض

فزعاً. تابع النظر إليها بترقب، لكن أحداً من الجراء الأربعة لم يكرر وقفة سوتاتسو.

رأى الجرو يجسد صورة سوتاتسو، وقناع الجيدو يتحول إلى امرأة حية؛ فهل أبصر أيضاً لمحة هاربة عن الاثنين معكوسين؟

علّق قناع الهاسشيكي على الجدار، لكنه ركن قناع الجيدو في قاع درج، كأنه رقية سحرية خفية.

جاءت ياسوكو وكيكوكو إلى منصب الغسل لرؤية الجراء.

«ألم تلاحظا خلال الغسيل»؟

كيكوكو، الناظرة من وراء كتفيهما، وضعت يدها برفق على كتف ياسوكو. «المرأة شديدة العجلة في الصباح. أليس صحيحاً أيتها الأم؟».

«صحيح. ماذا عن تيرو؟».

«أين ذهبت؟ تركت جراءها تتجول كالضالة» قال شينغو: «أكره التفكير في التخلص منها».

«لقد صرفت اثنين منها حتى الآن» قالت كيكوكو:

«أوجدت من يأخذهما؟ :

«نعم، يريد صاحب تيرو جرواً. يقولون أنه يريدها أنثى».

«حقاً؟ بعد أن ضلت يريد الآن استبدالها بجرو».

«هذا ما يبدو». التفتت كيكوكو إلى ياسوكو. «ذهبت تيرو لتأكل في مكان ما»، وإذ تركت إجابتها السابقة لتفصح عن نفسها أعادت تأكيد الملاحظة الأخيرة لشينغو. «الجميع في الجوار أدهشهم ذكاء تيرو. تعرف متى يأكل كل منهم وتظهر في الوقت المحدد تماماً».

«حقاً؟» شعر شينغو بشيء من خيبة الأمل، كان يعتقد أن تيرو، بتناولها وجبات الصباح والمساء هنا، قد جعلت من بيتهم موطناً لها. ألا تزال تجوب الجوار وعينها على الفضلات؟

«لمزيد من الدقة» أضافت كيكوكو، «إنها تعرف مواعيد الوجبات، لكنها المواعيد التي تعقب تنظيف الناس لبيوتهم. يتحدث جميع من في الجوار كيف أن تيرو وضعت جراءها هنا، وأتلقى كافة أنواع التقارير عن

نشاطاتها. وحين تكون غائباً أيها الأب فالأولاد يتقاطرون طالبين رؤية الجراء».

«تبدو محبوبةً من الجميع».

«أوه، نعم»، ردت ياسوكو. «ذكرت إحدى السيدات أمراً طريفاً. قالت إنها ستضع طفلاً طالما أن تيرو وضعت جراءها هنا. قالت إن تيرو تحثنا. ألا نستحق التهنئة؟»

«حقاً يا أماه» توردت كيكوكو، ورفعت يدها عن كتف ياسوكو.

«إنني أنقل ما ذكرته السيدة جارتنا فقط».

«هل تعنين أن هناك من يضع البشر والكلاب في مقولة واحدة؟» خطر ببال شينغو أن الملاحظة لم تكن لبقة تماماً.

لكن كيكوكو تطلعت لتقول: «الجدّ أمامييا شديد التعلق بتيرو. جاء مستفسراً عما إذا كنا لا ننوي إيواءها، تحدث عنها وكأنها طفلة، ولم أجد لدي رداً».

«ولم لا؟» قال شينغو: «إنها على كل حال مقيمة هنا طوال الوقت».

كان أمامييا يقيم قريباً من صاحب تيرو، لكنه باع بيته وانتقل إلى طوكيو بسبب فشل أعماله،عاش أبوه وأمه معه وقاما بأعمال غريبة من حول البيت. ولأن مقام طوكيو كان صغيراً فقد سكنا غرفة مستأجرة، وعرف العجوز في الجوار باسم «الجد أمامييا».

كانت تيرو مغرمة به أكثر من الجميع. واظب على السؤال عنها حتى بعد انتقاله إلى غرفة مستأجرة.

«سأهرع وأبلغه النبأ» قالت كيكوكو عائدة إلى البيت. «سيشعر بعزاء كبير».

ظل بصر شينغو معلقاً بالجرو الأسود، لاحظ شوكة مكسورة تحت النافذة. الزهرة سقطت، لكن الجذع المنحرف عن قاعدته بقي يانعاً مخضراً.

«الأشواك نباتات هائلة القوة» ردد شينغو.

شجرة الكرز في الشتاء

هطل المطر في ليلة رأس السنـة، وكان النهار الأول من السنة الجديدة ماطراً.

في النهار الأول من السنة أضحت الطريقة الغربية في حساب الأعمار رسمية، دخل شينغو بالتالي السنة الواحدة والستين، ودخلت ياسوكو الثانية والستين.

كان النهار الأول من السنة الجديدة يوماً للمتأخرين في النوم؛ لكن شينغو استيقظ مبكراً على صوت ساتوكو. كانت الطفلة تعدو في أرجاء الشرفة.

«تعالي يا ساتوكو»، بدت كيكوكو مستيقظة أيضاً. «لقد صنعت لك حلوى السنة الجديدة. ساعديني على تسخينها».

واضح أنها كانت تريد استدراج الصغيرة إلى المطبخ، بعيداً عن غرفة شينغو. لكن ساتوكو بدت غير عابئة، فواصلت عدوها وضجيجها.

«ساتوكو» نادت فوساكو من السرير. «تعالي إلي يا ساتوكو»، لم تكن ساتوكو مبالية بالرد على أمها.

«سنة جديدة ماطرة» قالت ياسوكو، المستيقظة أيضاً.

صرّ شينغو على أسنانه.

«حين تستيقظ ساتوكو، لا بـد أن تستيقظ كيكوكـو وتقتفي أثرهـا. فوساكو تتدبر أمر البقاء في الفراش كما أرى». تلعثمت عند الكلمـات الأخيرة. أحس شينغو بطرافة الموقف. «مضى زمن طويل منذ أن أيقظني طفل صبيحة السنة الجديدة».

«ستجدين المزيد من هذه الصباحات أيضاً».
«أوه، لا أظن ذلك حقاً. السبب أن منزل إيهارا ليست به أية شرفة. ستعتاد عليها وتقلع عن الهرولة هنا وهناك».
«أمر محيّر. ألا يحب معظم الأطفال في سنها الركض صعوداً وهبوطاً في الشرفات؟ لماذا تبدو قدماها وكأنهما مسمرتان إلى الأرض؟».
«لأنهما ناعمتان». أصغت ياسوكو. «تثير شعوراً غريباً، أليس كذلك؟ ينبغي أن تكون في الخامسة هذا العام، وها هي فجأة في الثالثة. لا أرى فارقاً كبيراً، بالانتقال من الرابعة والستين إلى الثانية والستين».
«هناك أمر لم تفكري به. عيد ميلادي يحل قبلك، وسنكون بعد فترة في عمر واحد. من عيد ميلادي وحتى عيد ميلادك».
بدت ياسوكو وكأنها تدرك هذه الحقيقة للمرة الأولى.
«اكتشاف ممتاز. مرة في العمر».
«ربما»، تمتمت ياسوكو «لكنه لن يفيد كثيراً للانطلاق من عمر متساو».
«ساتوكو» نادت فوساكو ثانية. «ساتوكو». ظهر أن ساتوكو تعبت من العدو فذهبت إلى أمها. «تحسسي كم أقدامك باردة».
أغلق شينغو عينيه.
«سيكون مفيداً لو مارست كل ذلك العدو على مرأى منا حين نكون حاضرين» قالت ياسوكو بعد برهة. «كلما تواجدنا أخذت في العبوس والتعلق بأذيال أمها».
«ربما كانت كل منهما تحاول أن تنتقص من الأخرى علامات التعاطف مع الطفلة».
لاح لشينغو أنه، في كل الأحوال، كان يتعرض لحالة سبر من ياسوكو، لعله كان يسبر أغوار نفسه.
لم تكن تسرّه ضجة الأقدام الصاخبة على الأرض، فهو لم ينل قسطاً كافياً من النوم، لكنها من جهة أخرى لم تثر امتعاضه على وجه التحديد
غير أنه لم يشعر برقّة وقع الأقدام التي تثيرها الحفيدة عادة، كان يقصد التعاطف معها دون شك.

لم يداخله إحساس بمعنى الظلام ، هناك على الشرفة والمصاريع ما زالت مغلقة. الظاهر أنه انتاب ياسوكو على الفور. بطرق كهذه تمكنت الطفلة من استثارة تسامحها.

- ٢ -

ترك زواج فوساكو البائس جرحاً في نفس ساتوكو. استدرت الفتاة عطفاً ما من شينغو أيضاً، لكنها بصورة عامة ظلت مصدر امتعاضه، ما من شيء يجعله يتفادى ذلك.

كان حائراً في درجة عجزه عن القيام بشيء ما.

ليس الوالد قادراً بالطبع على تقديم عون كبير لابنته المتزوجة، لكن المدهش حقاً - وقد بلغت الأمور الآن درجة أصبح فيها الطلاق هو الحل الوحيد - هو عجز الإبنة ذاتها.

ذلك أن احتواء أهلها لها ولأطفالها بعد الطلاق لن يحل شيئاً.. لن يكون عملاقاً، ولن يحقق لها حياتها الخاصة.

ألا يوجد البتة جواب لامرأة فشل زواجها؟

حين تركت فوساكو زوجها، في الخريف، لم تذهب إلى بيت أهلها بل إلى مقام الأسرة في شنياتو. من هناك أعلمتهم برقياً بمغادرتها.

ذهب شويشي لإحضارها.

غادرت من جديد، بعد شهر من الإقامة في كاماكورا، قائلة إنها مقدمة على انفصال مشرف ونهائي عن إيهارا.

ربما كان يحسن بشينغو أو شويشي الذهاب إليه ومحادثته، هكذا قالا. لكنها لم تصغ إليهما. عليها الذهاب بنفسها.

«هذه هي النقطة بالضبط، ماذا سيحل بالأطفال عندها» هكذا ردت على اقتراح ياسوكو بترك الأطفال هنا. انفجرت في وجه ياسوكو بطريقة تكاد تكون هستيرية. «لا أعرف ما إذا كنت أنا التي ستحتفظ بالأطفال أم إيهارا». ثم مضت دون عودة.

كان الأمر في النهاية يخص الزوج والزوجة، وأحس شينغو وأسرته بالقلق

دون أن يدركوا كم سيطول انتظارهم الصامت. وعلى هذا المنوال مرت الأيام المشحونة بالقلق.

لم تصل كلمة من فوساكو.

هل عادت إلى استقرارها مع إيهارا ثانية؟

«الأمور ستتفاقم؟» قالت ياسوكو.

«حسناً، نحن الذين نعجل بها» أجاب شينغو: اكفهر الوجهان معاً. فجأة، عشية رأس السنة الجديدة، عادت فوساكو.

«ماذا حدث؟» بدت ياسوكو فزعة وهي تختلس النظر إلى ابنتها وحفيدتها. بيدين مرتعشتين حاولت فوساكو إغلاق مظلتها. بدت بعض الأضلاع متكسرة.

«أهي تمطر؟» سألت ياسوكو.

تقدمت كيكوكو من العتبة وحملت ساتوكو بين ذراعيها.

كانت تساعد ياسوكو في إعداد طعام السنة الجديدة.

دخلت فوساكو من المطبخ.

ارتاب شينغو في أنها عادت من أجل النقود ، لكن حالتها بدت غير ذلك.

جففت ياسوكو يديها ودخلت إلى غرفة المعيشة. «أمر رائع أنه أرسلك».

كانت فوساكو تنتحب بصمت.

«هكذا أفضل» قال شينغو.

«أوه؟ كنت أجهل أن المرء قد يطرد من بيته عشية رأس السنة».

«جئت بملء إرادتي» كانت فوساكو تختنق بدموعها.

«أوه؟ حسناً، الأمر يختلف كما أظن، دعونا من هذا الحديث الآن سنجد متسعاً من الوقت خلال الإجازة». عادت ياسوكو إلى المطبخ.

فوجىء شينغو بنبرة زوجته، رغم انطوائها على صدى ما من العطف الأمومي.

تأثرت ياسوكو ـ بدرجة كافية بالطبع ـ لمرأى ابنتها تدخل البيت من

باب المطبخ عشية رأس السنة ويتعالى مع دخولها وقع خطوات الطفلة على الشرفة المظلمة؛ لكن شينغو لمس عندها جانب احترامه والإذعان له.

كانت فوساكو آخر المتأخرين في النوم صبيحة السنة الجديدة.

تناهى إليهم صوت غرغرتها وهم جلوس إلى الطاولة، كان اغتسالها يتواصل ويتواصل.

«لنشرب كوباً خلال انتظارها» قال شويشي وهو يسكب الساكي لأبيه. «شعراتك البيضاء تزداد عدداً هذه الأيام».

«بالطبع. يزداد عددها يومياً في مثل سني، كل يوم، يحدث أحياناً أن تراها تصطبغ بالشيب أمام عينيك».

«أمر مضحك».

«كلا، راقبني فقط»، انحنى شينغو إلى الأمام، نظر شويشي وياسوكو إلى رأسه، وراقبت كيكوكو بإمعان.

كانت تضع ابنة فوساكو الصغرى في حجرها.

- ٣ -

أُعِدَّ كوتاتسو جديد لفوساكو والطفلتين، التحقت بهنّ كيكوكو في غرفة أخرى.

جلست ياسوكو جانباً وتقابل شينغو وشويشي أمام كؤوس النبيذ.

نادراً ما يشرب شويشي في البيت، لكنه اليوم، لفشله في العثور على وسيلة للخروج في اليوم الأول الماطر من السنة الجديدة، أخذ يصب كأساً إثر أخرى، متجاهلاً والده تقريباً. لكن أساريره لم تكن في حالتها المعتادة. ترامى إلى شينغو كيف انغمس شويشي بصورة عنيفة في الشراب حين بدأ علاقته بعشيقته، وكيف دفع المرأة إلى البكاء حين ألحّ على صديقتها كي تغني له.

«كيكوكو» قالت ياسوكو، «هلا أحضرت لنا بعض البرتقال من فضلك؟» انسلت كيكوكو من الباب. «تعالي واجلسي بقربي. لدي زوج من الشاربين الصامتين تحت يدي».

اختلست كيكوكو نظرة خاطفة إلى شويشي. «لا أظن أن الأب يشرب كثيراً».

«كنت أفكر في حياة الأب» تمتم شويشي.

«في حياتي أنا؟».

«أوه، لا شيء محدداً تماماً. لكني لو أردت إيجاز تأملاتي لكانت على هذا النحو كما أعتقد: هل كان الأب ناجحاً أم فاشلاً؟».

«أتظن أنك قادر على الحكم؟» لزم شينغو الصمت لبعض الوقت.

«حسناً، الطعام في هذه السنة الجديدة يفوح منه شيء من مذاق ما قبل الحرب. بهذا المعنى يمكنك القول إنني كنت ناجحاً».

«الطعام! هل ذكرت الطعام؟».

«نعم. أليس الطعام موضوع حديثك؟ إذا كنت تقصد التفكير قليلاً في حياة أبيـك».

«قليلاً».

«حياة عادية معتدلة، بلغت ما بلغت. وهي الآن تتحول إلى طعام طيب في رأس السنة الجديدة. مات الكثير من الناس كما تعلم».

«حقاً».

«أما أن يكون الأب ناجحاً أم لا، فهي مسألة تتعلق كما يبدو بمدى نجاح أو فشل زيجات خلفه. هنا لم أفعل الكثير».

«هذا شعـورك، أليس كذلك؟»

«أوه، توقفا كلاكما». تطلعت ياسوكو إليهـما. «أنتما لا تبـدآن السنة الجديدة بداية حسنة»، خفضت صوتها، «ولا تنسيا أن فوساكو هنا. أين هي، بالمناسبة؟»

«إنها نائمة» ردّت كيكوكو.

«وساتوكو؟».

«ساتوكو والطفلة أيضاً».

««هكذا إذن. الثلاثة يغطون في النوم؟» استدارت عينا ياسوكو واكتسى وجهها بشيء من البراءة التي تجيء مع التقدم في السن.

انفتحت البوابة، خرجت كيكوكو. تانيزاكي إيكو جاءت للقيام بزيارة رأس السنة.

«هكذا. في هذا المطر» دهش شينغو حقاً، لكنه استعار كلمة «هكذا» من ياسوكو.

«تقول إنها لن تدخل» قالت كيكوكو.

«أوه؟» مضى شينغو إلى الباب.

وقفت ايكو ومعطفها على ذراعها. كانت ترتدي ثوباً مخملياً أسود. ظل تبرّجها كثيفاً رغم إزالتها للزغب. بدت أصغر سناً بسبب انحناءة أردافها.

كانت تحيتها جافة بعض الشيء.

«جميل منك أن تأتي في هذا السيل. لم أتوقع الزوّار، ولم يخطر لي الخروج من البيت. ادخلي وتدفأي».

«أشكرك».

جاءت إيكو وسط برودة الرياح وتساقط المطر، عانى صعوبة في معرفة ما إذا كانت قد حضرت لتسجيل احتجاج ما، أو أنها تريد الإفضاء بشيء حقيقي.

شعر أنها اتخذت خطوة شجاعة في كل الأحوال.

بدا أن كيكوكو تحجم عن الدخول.

«في هذه الحالة سأستجمع نفسي وأذهب معك. لماذا لا تنتظرين في الداخل ريثما أستعد؟ إنني أذهب عادة لزيارة السيد ايتاكورا على الأقل، إنه الرئيس القديم للشركة».

لم يبرح ايتاكورا ذهنه طيلة الصباح، ومجيء كيكوكو جعله يتخذ القرار. هرع لتغيير ثيابه.

لا بد أن شويشي قد استلقى، واضعاً قدميه في الكوتاتسو حين خرج شينغو. نهض من جديد حين شرع شينغو بتبديل ثيابه.

«تانيزاكي هنا» قال شينغو.

«نعم» أجاب شينغو وكأن الأمر لا يعنيه، ولم يظهر أنه معني بتجنبها.

حين غادر شينغو شيّعه شويشي بنظراته. «لا تتأخر حتى حلول الظلام».

«سأعود باكراً».

كانت تيرو في البوابة.

جرو أسود جاء راكضاً وقلّد أمه بالعبور أمام شينغو نحو البوابة. ترنح وسقط، مبللاً أحد جانبي جسده.

«وا أسفاه» قالت إيكو. بدت موشكة على الركوع قربه.

«لدينا خمسة منها. أعطينا أربعة وهذا هو الأخير. لقد وعدنا بإعطائه أيضاً».

كان قطار يوكو سوكو خالياً.

في مراقبته للمطر الذي مال قطرياً بفعل الريح، شعر شينغو ببعض السعادة لأنها أقدمت على هذه الخطوة الشجاعة.

«جرت العادة أن يغص المكان بأرتال بشرية من ضريح هاشيمان».

أومأت ايكو.

«نعم. هذا صحيح. تأتي دائماً في اليوم الأول من السنة الجديدة».

«نعم»، أطرقت ايكو لبعض الوقت. أحببت المجيء رغم مشاغلي العديدة».

«لن يكون بوسعك ذلك متى تزوجت. أتفكرين في شيء كهذا؟».

«كلا».

«لا حاجة للخجل. أشعر بشيء من البلادة والشرود هذه الأيام».

«كفاك تظاهراً». كانت ملاحظة غريبة. «أظن أنني سأطلب منك صرفي من العمل».

لم تكن هذه الملاحظة غير متوقعة تماماً، لكن شينغو ارتبك في الرد عليها.

«لم يكن قدومي في رأس السنة الجديدة بقصد إعلامك»، بدت بشرتها أكبر من سنوات عمرها، «سنناقش الموضوع فيما بعد».

«أوه؟» لم يعد شينغو يشعر بسعادته السابقة.

لقد عملت في مكتبه طيلة سنوات ثلاث، وهي الآن، فجأة، تبدو امرأة مختلفة. لم تكن هي نفسها التي عهدها.

ليس لأنه بذل اهتماماً كبيراً بها. لقد كانت سكرتيرته فقط.

شعر بالطبع أنه راغب في إبقائها. لكنها لم تكن أسيرته بأي حال.

«أظن أنني الملوم في رغبتك بترك العمل. لقد دفعتك إلى تعريفي على ذلك البيت، وسببت لك كراهية بعض الأمور؛ وأظن أن رؤية شويشي لم تعد سهلة».

«كانت شاقة»، لم يكن ردها قاطعاً. «لكني حين فكرت بكل شيء فيما بعد بدا التصرف طبيعياً جداً إذ يصدر عن أب. رأيت أنني لست مخطئة أيضاً. كنت شديدة الفخر بنفسي حين اصطحبني إلى الرقص فذهبت إلى بيت كينو. كنت فاسدة عندها».

«تبدو كلمة قوية بعض الشيء».

«لكن التدهور استمر» كانت عيناها نصف مغمضتين، على اللوعة. «لو تركت العمل فسأطلب من كينو أن تتخلى عنه. هذا لكي أعوضك عن كل ما فعلته».

فوجىء شينغو. كأن شيئاً ما دغدغ بقعة حساسة في داخله.

«أكانت تلك امرأته؟».

«كيكوكو؟».

«نعم. كان الموقف صعباً علي. لقد قررت أن علي محادثة كينو».

شعـر بإشراق ما في داخلها، يشرق في روحه أيضاً.

لم يكن مستحيلاً، راودته الفكرة، أن تحل المشكلة حتى بهذه الوسائل العابرة، وبإيفاد غير منتظر.

«الحق أنني لا أستطيع تكليفك بذلك».

«سأقوم به بمحض إرادتي، لأعوضك عن كل ما فعلت». أن تخرج هذه الملاحظة الكبيرة من شفتي إيكو الصغيرتين أمر يكرر إحساس شينغو بدغدغة البقعة الحساسة.

وفكر في إخبارها بألا تتورط في مسائل لا تعنيها.

بدت ايكو متأثرة للغاية بفعل «قراراها» هي.

«لا أستطيع فهمه، وهو الذي يملك تلك الزوجة. لا أحب مراقبته حين يكون برفقة كينو، لكني لا أحس بالغيرة من زوجته، ولا يهمني مدى عمق العلاقة بينهما. هل الأمر يفسر أن الرجال لا يعبأون بالنسوة اللواتي لا يثرن غيرة غيرهن؟»

ابتسم شينغو بوهن.

«كان دائماً يصفها بالطفلة».

«معك؟» انطوت الكلمة على نبرة حادة.

«نعم. ومع كينو أيضاً. قال إنك مغرم بها لأنها طفلة».

«المغفل!» تطلع شينغو إليها.

«لكنه لم يعد يفعل ذلك» قالت ايكو بشيء من الارتباك. «لم يعد يتحدث عنها».

كان شينغو يتميز غيظاً.

أحس أن شويشي كان يشير إلى جسدها.

هل كان يفتش في عروسه عن عاهرة؟ إنها حقيقة قائمة على تجاهل فظيع، وأحس شينغو أنها دليل على شلل مفزع في الروح.

هل تنبع الغطرسة التي تحدث بها عن زوجته مع كينو وايكو من ذلك الشلل ذاته؟

أحس بقسوة كامنة في ذات شويشي، ليس عنده فقط، أحس بقسوة كامنة عند كينو وإيكو أيضاً ضد كيكوكو.

ألا يحس شويشي بنقائها؟

طاف أمامه وجه كيكوكو الشاحب، الرقيق، الطفولي... طفلة أسرتها المدللة.

كان أمراً شاذاً بعض الشيء، كما لاحظ شينغو، أن يشعر باستياء حسي من ولده بسبب زوجة الأخير؛ لكنه لم يستطع مغالبة ذلك الشعور.

هناك تيار داخلي يجري متدفقاً مخترقاً حياته.. إنه الشذوذ الذي جعل شينغو، المشدود إلى شقيقة ياسوكو، يتزوج ياسوكو التي تكبره بسنة، عند

وفاة الأخت. أكان الأمر مدعاة شؤم لكيكوكو وإسخاط لها؟

حين وجد شويشي امرأة أخرى في فترة مبكرة مناسبة من بدء زواجهما، بدت كيكوكو وقد فقدت القدرة على ضبط غيرتها، مع ذلك يبدو أنها استيقظت كامرأة، بتنامي قسوة شويشي وشلله الروحي، وبسببهما في الحقيقة.

تذكر أن إيكو أقلّ تطوراً جسدياً من كيكوكو.

غرق شينغو في الصمت، مفتشاً بطريقة ما عن وسيلة لضبط غضبه من خلال أحزانه.

التزمت إيكو الصمت بدورها. أصلحت شعرها بعد نزع قفازيها.

- ٤ -

كان شينغو في آتامي. في حديقة المنزل انتصبت شجرة كرز بكامل تفتحها.

أشجار الكرز الشتائية تزهر، كما علم، قبل نهاية العام، لكنه أحس كأنه يطل على الربيع في عالم مختلف كل الاختلاف.

أخطأ في التعرف على البراعم المزهرة وظنها براعم خوخ، وتساءل إن كانت البيضاء منها للمشمش.

مشدوداً إلى أزاهير الكرز وهي تنعكس على الجدول، مضى ليقف قرب الضفة. لم يكن قد تعرف على غرفته بعد.

عبر الجسر إلى الضفة المقابلة، ليطل من هناك على شجرة سرو اتخذت شكل المظلة وتجللت بالأزاهير الحمراء.

تطايرت بضع بطات برية من أسفل الشجرة. أحس ثانية بقدوم الربيع من مناقيرها الصفراء وقوائمها المائلة إلى صفار أعمق.

تحتفل المؤسسة غداً بقدوم بعض الضيوف، وجاء شينغو ليعد الترتيبات. انتهت مهمته حالما تشاور مع مدير النزل.

جلس على الشرفة ناظراً إلى الحديقة.

هناك أيضاً نباتات الأزاليا البيضاء.

كانت سحب ماطرة تنحدر من معبر جيكوكو، فدلف إلى الداخل.
على الطاولة جثمت ساعة جيب وساعة يد. كانت ساعة اليد متقدمة عن الأخرى دقيقتين.
نادراً ما تتوافق الساعتان بدقة، وهي حقيقة أقلقته أحياناً.
«إذا كانت تزعجك، فلم لا تحمل واحدة فقط؟» سألت ياسوكو.
الحق معها في الواقع. لكن العادة رسخت لديه عبر السنين.
بعد العشاء مباشرة هطل مطر غزير وهبت ريح عاتية.
انطفأت الأضواء وأخلد إلى فراشه مبكراً.
استفاق على نباح كلب في الحديقة، وعلى رجيع الريح والمطر مثلما البحر المصطخب.
تجمعت على جبهته قطرات عرق. في الغرفة ركود وثقل، أشبه بتباشير عاصفة ربيعية قرب البحر. كان الهواء فاتراً، ولاح أنه يضغط على صدره.
سحب نفساً عميقاً، أحس بوطأة اعتلال.. كأنه يبصق دماً.
«ليس في صدري» تمتم لنفسه، لا يعاني سوى من هجمة غثيان. سرى في أذنيه توتر بغيض زحف من صدغيه ليتجمع في جبهته. حكّ جبهته وحنجرته.
كان الرجيع الشبيه باصطخاب البحر قادماً من سيل جبلي تلاه صريف حاد لرياح قريبة.
هدر الزئير من أعمق أعماق العاصفة.
ظن أن قطاراً يعبر نفق تانا، لا شيء غيره دون شك. تعالى صوت الصافرة حين انبثق القطار.
فزع شينغو بغتة، لقد استفاقت كل جوارحه الآن.
تواصل الزئير وتعالى. ربما كان النفق بطول خمسة أميال، حتى استغرق مرور القطار سبع أو ثماني دقائق، خيل إليه أنه سمعه يدخل الشدق البعيد، وراء كاتامي. ولكن هل يحتمل أنه، وهو على مبعدة نصف ميل من كاتامي، قد سمعه، من هذه المسافة؟
بطريقة ما استشعر وجود المطر في النفـق، كأنما كان يهطل فوق رأسه.

أحس به طوال الطريق المفضية إلى الشدق، وأطلق تنهيدة ارتياح حين خرج.

لكنه وقع أسير الحيرة. سيستفسر من أصحاب النزل غداً صباحاً، هكذا قرر. وسيتصل بالمحطة.

ظل عاجزاً عن النوم لبعض الوقت.

«شينغو ـ و ـ و ـ و! شينغو ـ و ـ ـ ه!»، نصف نائم ونصف مستفيق أحس بمن يناديه.

الشخص الوحيد الذي ينادي بهذه الخفة والمرح هي شقيقة ياسوكو.

كانت يقظة حلوة خارقة بالنسبة لشينغو.

«شينغو ـ و ـ و ـ ه! شينغو ـ و ـ و ـ ه! شينغو ـ و ـ و ه!»

انسل الصوت إلى الحديقة الخلفية وأخذ يتعالى من تحت النافذة.

استفاق شينغو. أصبح رجيع الغدير المحاذي للنزل زئيراً. علت أصوات صِبية صغار. نهض وفتح المصاريع الخلفية.

كانت شمس الصباح ساطعة. كان لها السطوع الدافىء لشمس شتائية تبلّلت بمطر الربيع. على الدرب المفضية إلى الغدير تجمع سبعة أو ثمانية صبية، في طريقهم إلى مدارسهم.

هل كان يسمعهم ينادون بعضهم بعضاً؟

لكن شينغو أطل من النافذة وفتش من خلال أيكة الخيزران عن الجانب القريب من الغدير.

الماء في الصباح

حين أخبره ابنه في اليوم الأول من السنة الجديدة أن شعره يزداد بياضاً، أجاب شينغو بأن المرء في سنه يكسب المزيد من الشعرات البيضاء في كل يوم، بل يمكن له في الحقيقة رؤية الشعرة وهي تصطبغ بالبياض أمام عينيه. لقد تذكر كيتاموكو.

زمـلاء دراسته دخلوا الآن في الستينات. كان بينهم عدد لا بأس به ممن كان حظهم عاثراً، بدءاً من منتصف الحرب وحتى الهزيمة. ولأنهم كانوا حينذاك في أخريات خمسيناتهم فقد كان السقوط قاسياً والصحوة صعبة. وكانوا في سن تؤهلهم لفقدان الأبناء في الحرب.

فقد كيتاموتو ثلاثة أبناء. حين تحولت شركته إلى الانتاج الحربي لم تعد خدماته الفنية ذات فائدة للشركة.

«يقولون أنه انتهى أمام المرآة وهو يجزّ شعرة بيضاء»، قال صديق عجوز كان يحدثه عن كيتاموتو إبان زيارة قام بها إلى مكتبه. «كان في البيت خالياً من كل عمل، فلم تحمل أسرته الأمور على محمل الجد في البداية. ظنوا أنه يسحب الشعرات البيضاء ليشغل نفسه. لم تكن المسألة بأسرها مثيرة للقلق. لكنه في كل يوم يجثـو أمام المرآة. كانت الشعرات البيضاء تتكاثر من جديد، وهو الذي يخال أنه اقتلعها جميعها. أتخيل أنها كانت أكثر عدداً من أن يقضي عليها بأكملها. أخذ يقضي وقتاً أطول كل يوم أمام المرآة. يتساءلون أين يختفي، ثم يكتشفون أنه هناك أمام المـرآة يقتلع شعره. يصبح عصبياً ونزقاً إذا ابتعد عن المرآة دقيقة واحدة، فيندفع إليها ثانية. أخذ في النهاية يصرف كامل وقته هناك».

«غريب أنه لم يفقد كامل شعره» كاد شينغو أن ينخرط في الضحك.
«ليس مزاحاً. لقد فعل. لقد اقتلع آخر شعرة في رأسه».
هذه المرة ضحك شينغو ملء شدقيه.
«لكنها الحقيقة» أردف الصديق، ناظراً إلى وجه شينغو. «يقولون إن شعره كان يزداد بياضاً حتى أثناء اقتلاعه للشعرات البيضاء. كان يقتلع شعرة بيضاء، فتبيضّ واحدة أو اثنتان بقربها، ينظر إلى نفسه في المرآة وتعبير القنوط طافح على وجهه، يمتقع لونه وهو يسحب الشعرات البيضاء. ولقد خف شعره شيئاً فشيئاً».
كتم شينغو ضحكته. «وسمحت له زوجته بمواصلة اقتلاع شعره؟».
لكن الصديق واصل كلامه كأن السؤال لا يحتاج إلى جواب. «أوشك أخيراً على فقدان شعره بالكامل، وما تبقى منه كان أبيض».
«لا بد أنه تألم».
«عند اقتلاعه؟ كلا، لم يكن يؤلمه. كان يخشى ضياع شعرة سوداء واحدة، بقدر حرصه على اقتلاع البيضاء منها. لكن جلده ذوى وتغضن حين انتهى. بدأ يؤلمه كلما تعرض للمسة يد، كما قال الطبيب. لم ينزف دماً، لكنه احتقن واخشوشن. دخل مصحاً عقلياً في النهاية. يقولون إنه اقتلع ما تبقى من شعره في المشفى. تخيل قوة الإرادة والتركيز. يكاد الأمر يصيبك بالهلع. لم يكن يرغب في التحول إلى كهل، أراد استعادة شبابه من جديد. لا يعرف أحد كما يبدو فيما إذا كان قد باشر قلع شعره لأنه فقد عقله، أم فقد عقله لأنه اقتلع الكثير الكثير».
«أظن أنه يتحسن الآن؟».
«نعم. وقد حدثت معجزة. نبتت خصلة رائعة من الشعر الأسود فوق رأسه العارية».
«لا بد أنك تمزح؟».
«لكنها الحقيقة» قال الصديق جاداً. «الموسوسون لا عمر لهم. لو جننا، أنا وأنت، لأصبحنا أكثر شباباً». نظر إلى شعر شينغو. «لا يزال أمامك أمل. فات الأوان بالنسبة لي...».

لقد فقد الصديق معظم شعره.

«هل اقتلع شعرة من رأسي؟» تمتم شينغو.

«جرِّب ذلك مرة. أشك في أنك تمتلك قوة الإرادة الكافية لاقتلاعه كله».

«أنا أشك أيضاً. والشعر الأبيض لا يقلقني. ليست عندي رغبة مجنونة في الشعر الأسود».

«لديك الأمان. كنت تسبح في التيار بهدوء فيما غاص الآخرون إلى القاع».

«إنك تجعل الأمور تبدو سهلة للغاية. ربما قلت أيضاً لكيتاموكو أن يجنِّب نفسه العناء بصبغ شعره».

«الصبغ خداع. إذا كنا سنسمح لأنفسنا بمزاولة الخداع، فأنا أشك في قدرتنا على تأمل أعجوبة مثل تلك التي حدثت لكيتاموتو».

«ولكن ألم يمت كيتاموتو؟ حتى بحدوث المعجزة».

«هل شاركت في التشييع؟»

«لم أكن أعرف آنذاك. لم أسمع به حتى انتهت الحرب. واستقرت الأمور قليلاً. أشك في أنني كنت سأذهب إلى طوكيو في كل الأحوال. تم تشييعه أثناء غارة جوية».

«لا تستطيع إيقاف المعجزات طويلاً. ربما اقتلع كيتاموتو شعره وصارع السنين. لكن الحياة تأخذ مجراها الخاص. لن تعيش أطول من عمرك لمجرد عودة السواد إلى شعرك من جديد. لعل العكس هو الصحيح. ربما استخدم كل طاقته في إنماء تلك الخصلة من الشعر الأسود، فقصرت حياته فعلياً. لكن لا تحسب أن الفراغ لا يعني شيئاً لك أو لي». أومأ برأسه ليؤكـد استنتاجه. كان الشعر مسرّحاً أعلى جمجمته كشرائط غمامة الخيل.

«كل من أقابله اليوم له شعرات بيضاء» قال شينغو. «لم يكن شعري شديد السواد خلال الحرب، لكني أزداد بياضاً يوماً بعد يوم».

لم يصدق شينغو كافة تفاصيل الحكاية. شـكَّ في نسج بعضهـا من الخيال.

لكن كيتاموتو حقيقة لا مراء فيها. سمع عنها من شخص آخر.

حين قلّب شينغو الفكرة في ذهنه، اتخذت أفكاره منحى غريباً. إذا صحت وفاة كيتاموتو، تصح حكاية شعره الأبيض الذي أنبت شعراً أسود. إذا صح فقدانه لعقله يصح أيضاً اقتلاعه لشعره. إذا صح اقتلاعه لشعره يصح بالتالي ازدياد بياضه كلما جلس إلى المرآة. ألا يعقل أن القصة صحيحة بأسرها؟ دهش شينغو نفسه من هذه النتيجة.

«نسيت أن أسأل: هل كان شعر كيتاموتو أسود أم أبيض حين توفي؟» قال ضاحكاً. لا الكلمات سمعت، ولا الضحكة. إنها موجهة له وحده.

حتى لو كانت القصة التي سمعها صحيحة وخالية من بعض اختلاف، فهناك شيء من المفارقة المضحكة في طريقة روايتها. تحدث رجل عجوز عن وفاة عجوز آخر بسخرية لا تخلو من قسوة. لم يكن المذاق الذي خلفته المقابلة مستطاباً.

بين أصدقاء دراسته مات كيتاموتو وميزوتا ميتة غريبة. مات ميزوتا فجأة في منتجع ينابيع حارة. كان قد قصد المنتجع برفقة فتاة. لقد علم شينغو قبل عام بشرائه لأقنعة النو، وكان قد استخدم تانيزاكي إيكو بتوصية من كيتاموتو. لم يسمع به حتى وقت متأخر، فلقد وافته المنية خلال الغارات الجوية، وحين جاءت تانيزاكي إيكو حاملة توصيتها، كانت زوجة كيتاموتو وأولاده في ولاية غيغو حيث التجأوا من الغارات.

كانت إيكو زميلة الدراسة لابنة كيتاموتو. لكنه لم يجد كياسة في أن تسأله الابنة ذلك الصنيع. لم يقابلها قط، وقالت إيكو إنها لم ترها منذ الحرب. بدا الأمر إمعاناً في التهور من جانب الفتاتين. لو أن أرملة كيتاموتو قد تذكرت شينغو ـ بدفع من الابنة ـ كان عليها الكتابة إليه بنفسها.

لم يشعر شينغو بالتزام تجاه الابنة ورسالة توصيتها.

أما بالنسبة لإيكو التي حملتها فقد بدت نحيلة الجسد وسطحية العقل. لكنه استخدمها وعيّنها في مكتبه الخاص. إنها تعمل هناك منذ ثلاث سنوات.

انصرمت السنوات الثلاث بخفة، ويبدو غريباً الآن أنها أمضت كل ذلك الوقت. وربما لم يكن مدهشاً أنها على مدار السنوات الثلاث لم تكتف بمرافقة شويشي للرقص بل ذهبت معه إلى دار صاحبة شويشي.

لاح أن هذه الأحداث أرهبت إيكو، فوصل بها الحال إلى كره العمل.

لم يتطرق شينغو إلى كيتاموتو خلال حديثه مع إيكو. لعلها لم تسمع بفقدانه لعقله، فهي لم تكن صديقة حميمة للابنة، وخلت علاقتهما من الزيارات المتبادلة في البيوت.

لقد ظنها سطحية، الآن وهي تستعد لترك العمل، ها هو يلمس لديها مشاعر الشهامة وصحوة الضمير. الطهارة ربما، فهي ليست متزوجة بعد.

- ٢ -

«لقد استيقظت باكراً أيها الأب». كانت كيكـوكو تصب المـاء الذي ستغسل به وجهها، ثم سحبت له الماء.

سقطت فيه قطرات من الدم، ثم انتشرت وتحللت.

تملكه الفزع من أن تبصق الدم هي أيضاً، متذكراً كيف بصق كمية قليلة من الدم، مفكراً في مدى نقاوة ماء كيكوكو. لكنه كان رعافاً.

وضعت قطعة قماش على أنفها. رسم الدم خيطاً ينحدر من ساعدها إلى مرفقها.

«ارفعي رأسك، أرفعي رأسك». وضع ساعده فوق كتفيها.

دنت إلى الأمام قليلاً، كأنها تتحاشاه، سحبها إلى الوراء من كتفيها، ثم جعلها تتطلع إلى الأعلى برفع جبهتها.

«إنني بخير أيها الأب. أنا آسفة».

«اصمتي واركعي. استلقي».

استندت كيكوكو على الجدار بمساعدة شينغو.

«استلقي»، ردد شينغو ثانية.

لكنها بقيت في الوضع ذاته، مغلقة العينين. ارتسمت علامة براءة على

وجهها، الممتقع بما يشبه الإغماءة، كطفل أقلع لتوه عن المقاومة. رأى الندبة الصغيرة على جبهتها.

«هل توقف؟ إذا كان قد توقف فادخلي واستلقي».

«نعم. أنا بخير»، مسحت أنفها بقطعة قماش.

«الحوض متسخ، سأغسله لك».

«أرجو ألا تزعج نفسك».

سكب شينغو الماء، بشيء من العجالة. هناك علامات دم على قاع الحوض، تتلاشى، تضمحل.

لم يستخدمه شينغو. غسل وجهه من الصنبور مباشرة.

فكر في إيقاظ ياسوكو وإرسالها للعون.

لكنه أحجم. قد لا ترغب كيكوكو في كشف اعتلالها لحماتها.

تساقط الدم كأنه يخرّ من جراب مثقوب. كان يرى فيه شيئاً أشبه بانبثاق الألم ذاته من الجراب.

مرّت كيكوكو به وهو يسرّح شعره.

«كيكوكو».

«نعم؟» نظرت إليه من وراء كتفيها، لكنها مضت إلى المطبخ. عادت حاملة الفحم في منقل. رآه يتلظى. لقد أشعلت الفحم من أجل الكوتاتسو فوق غاز المطبخ.

فوجىء شينغو بنفسه. لقد نسي تماماً أن ابنته هو، فوساكو، قد وصلت البيت. كانت غرفة الإفطار مظلمة لأن فوساكو وابنتها كانتا نائمتين في الغرفة المجاورة. لم تفتح المصاريع بعد.

يحسن به إيقاظ فوساكو كمساعدة لكيكوكو، بدلاً من زوجته العجوز. غريب ألا تخطر فوساكو بباله حين فكر في مناداة ياسوكو.

في الكاتوتسو سكبت له كيكوكو الشاي.

«هل تشعرين بدوخة؟».

«قليلاً».

«لا يزال الوقت مبكراً. لماذا لا تستريحين هذا الصباح؟».

«حان الوقت لأستيقظ وأفرغ من عملي». تكلمت كيكوكو وكأنها ترى الأمر تافهاً. «أفدت من الريح الباردة عند ذهابي لإحضار الصحيفة. ولقد قيل لي دائماً إن رعاف المرأة ليس جديراً بالقلق. لماذا استيقظت مبكراً؟ الجو بارد هذا الصباح أيضاً».

«لا أدري. لقد استيقظت قبل أن يقرع ناقوس المعبد. إنه يقرع في السادسة، صيفاً وشتاء، وطوال العام».

استيقظ شينغو مبكراً قبل شويشي، لكنه تأخر عنه في اللحاق بالمكتب.

اصطحب شويشي للغداء في مطعم غربي قريب.

«هل تعرف بوجود ندبة في جبهة كيكوكو؟» سأله.

«نعم».

«علامات الكلاليب الطبية كما أظن. كانت ولادتها عسيرة. لا تستطيع بحق تسميتها بآثار آلام الولادة كما أظن، لكنها تقفز أكثر حين ينتابها الألم».

«أتقصد صبيحة اليوم؟»

«نعم».

«لعل الرعاف هو السبب. إنها تقفز حين يتغير لونها».

أحس شينغو أنه محبط بطريقة ما. متى أخبرته كيكوكو؟

«لكنها لم تنم ليلة أمس».

قطّب شويشي حاجبيه. بعد لحظة صمت قال: «لا حاجة للتصرف بلياقة بالغة مع الغريب».

«غريب؟ أليست زوجتك؟»

«هذا ما أقوله. لا حاجة لإبداء لياقة بالغة أمام زوجة ابنك».

«ماذا تعني؟»

لم يجب شويشي.

- ٣ -

حين عاد شينغو إلى مكتبه. كانت إيكو جالسة في غرفة الاستعلامات. وقفت إلى جانبها امرأة أخرى.

وقفت إيكو أيضاً. قدمت الترحيبات المألوفة بحديثها عن الطقس وعن خمولها.

«مضى زمن طويل. شهران».

زاد وزن إيكو قليلاً، وزاد تجميلها لوجهها. تذكر كيف بدا ثدياها حين اصطحبها للرقص، بحجم يكاد لا يملأ راحتيه.

«هذه هي السيدة إيكيدا. تذكر أنني حدثتك عنها». كانت عينا إيكو تستصرخان، كأن الدموع ستطفر منهما وشيكاً. هكذا حالها في المناسبات المهيبة.

«أهلاً بك». لم يتمالك نفسه بحيث يشكر المرأة إيكيدا، كما يقتضي العرف، على رعايتها لشويشي.

«لقد جررت السيدة إيكيدا إلى هنا. قالت إنها عازفة عن المجيء. قالت إنه لا جدوى من المجيء».

«أوه؟ هل نتحدث، أم تفضلين الخروج؟»

نظرت إيكو إلى المرأة الأخرى مستفسرة.

«هذا يكفيني تماماً بقدر ما أنا معنية بالأمر»، قالت باقتضاب.

اضطرب شينغو. خيل إليه أنه سمع إيكو تعد بتقديمه للمرأة التي تساكن صاحبة شويشي. لم يكن يلاحق المسألة بنفسه.

غريب حقاً أن تنفض إيكو يدها من المبادرة بعد شهر من تركها العمل.

هل اتفق شويشي وصاحبته أخيراً على الانفصال؟ انتظر شينغو أن تتكلم إيكو أو إيكيدا.

«أجبرتني إيكو على المجيء. لا فائدة ترجى من حضوري». كانت لهجتها عدائية. «كنت ألح على كينو كي تهجر شويشي. فكرت أنني سأجد عوناً منك إذا جئت».

«إنني أفهم».

«إيكو تقف في صفك، وهي تتعاطف مع زوجته».

«سيدة لطيفة جداً» أضافت إيكو.

«هكذا قالت إيكو لكينو أيضاً. لكن النسوة اللواتي ينسحبن لمجرد أن

الرجل متزوج من امرأة لطيفة أصبحن قليلات هذه الأيام. تقول كينو إنها إذا ردّت زوجاً لامرأته فستطالب بمن يـرد زوجها إليهـا. لقد قتـل في الحرب. تقول: أعيدوه إليّ حياً وسأجعله يفعل ما يحلو له. له أن يقيم ما يشاء من العلاقات الغرامية ويصاحب من يشاء من العشيقات. تسألني إن كنت لا أوافقها. كل من فقدت زوجها في الحرب لا بد أن توافق. ألم نرسلهم نحن إلى الحرب؟ وماذا سنفعل الآن وهم موتى؟ لن يتعرض لخطر الموت إذا جاء لرؤيتي، هكذا تقول. إنني أعيده سليماً معافى في كل مرة.

ابتسم شينغو بإشفاق.

«لا يهمني كم هي زوجة طيبة. إنها ليست أرملة حرب».

«هذه طريقة فظة في التعبير عن المسألة».

«نعم. هذا ما تقوله حين تكون ثملة. إنها وشويشي مدمنان بغيضان. تقول إنها لن تنتظر أوبة رجل ما من الحرب كي تخبر زوجته. إنها تنتظر شخصاً سيعود دون شك. حسناً، تهتف صارخة، سوف يخبرها أنني أرملة أيضاً. ألا تكون الأمور سيئة على الدوام، حين تعشق أرملة حرب؟»

«ماذا تقصدين؟»

«شويشي أيضاً. إنه مدمن بغيض. كان جلفاً تماماً معها. أراد أن تغني له. إنها لا تحب الغناء. ولم يكن أمامي ما أفعله سوى الغناء بدلاً عنها. أخذت أغني بصوت خافت للغاية. ولو لم أفعل شيئاً لتهدئة غضبه قليلاً لأثرنا فضيحة في الجوار. شعرت أنني تعرضت شخصياً لإهانة لن أستطيع احتمالها. لكني أتساءل حقاً، هل الشراب هو السبب؟ ألا يمكن أن تكون الحرب هي السبب؟ ألا تظن أنه اعتاد على النساء في مكان ما؟ حين أراه يخرج عن طوره، كنت كمن ترى زوجها خلال الحرب. لقـد أصابني الإغماء وضاقت أنفاسي حتى ظننت نفسي المرأة التي يعاشرها. انتحبت وغنيت بعض الأغاني التي لم تكن مناسبة. قلت لكينو إنني سأعتبر زوجي الاستثناء الوحيد، لكني أفترض أنه كان لا يقل عنه في شيء. في النهاية، حين أجبرني شويشي على الغناء، كانت كينو تشاركني البكاء أيضاً».

اكفهر وجه شينغو. حكاية كئيبة.

«أفضل ما ينبغي عمله هو وضع حد لهذه العلاقة بأسرع ما يمكن».

«أوافقك. كانت دائماً تردد بعد رحيله أن هذا الشيء يعني الخراب التام. إذا كانت هذه أحاسيسها، فعليها أن تهجره بالطبع. لكني أشك في خشيتها من أن ما سيأتي بعد وسيكون هو الخراب. المرأة...»

«لا حاجة لقلقها» أضافت إيكو.

«أنت على حق كما أظن لديها عملها. لقد رأيت عملها».

«نعم».

«إنها تقوم به من أجلي» أومأت المرأة إيكيدا مشيرة إلى زيّها الخاص. وأظن أنها الشخص الأهم بعد المدير. إنهم يقدرونها عالياً. لقد استخدموا إيكو بفضلها».

«هل تعملين في المكان ذاته؟» نظر شينغو إلى إيكو بدهشة.

«نعم». أومأت إيكو، وتوردت قليلاً.

وجد صعوبة في فهمها. سعت أولاً كي تؤمن لها عشيقة شويشي عملاً في المحل ذاته، وهي الآن تحضر الفتاة إيكيدا كي يراها.

«وهكذا أشك في أنها تكلف شويشي كثيراً من النقود» قالت الأخيرة.

«ليست مسألة نقود». استثير شينغو، لكنه تمالك نفسه.

«هناك شيء أكرر قوله لها كلما أساء معاملتها» وجلست مطرقة الرأس وطوت يديها فوق ركبتها. «يذهب إلى البيت مجروحاً كما أعتقد. يعود إلى بيته جندياً جريحاً».

رفعت بصرها إليه. «ألا يستطيع هو وزوجته العيش بعيداً عنك؟ غالباً ما أفكر أنه لو عاش مع زوجته لوحدهما فسيهجر كينو. لقد فكرت في ذلك كثيراً».

«الأمر محتمل. سأفكر فيه بدوري».

حدق فيها بتمعن، لكنه كان مضطراً لموافقتها.

- ٤ -

لم تكن لدى شينغو نية طرح أي شيء عن المرأة المسماة إيكيدا، ولم يكن لديه ما يقوله لها. لقد تركها تواصل حديثها.

ربما بدت الزيارة لا معنى لها بالنسبة للمرأة. كان على شينغو مناقشة الأمر معها بنزاهة، دون الذهاب بعيداً إلى حد التوسل. لقد فعلت ما بوسعها لتقول ما تقوله. كأنها كانت تعتذر من كينو، وتقوم بشيء يفوق الاعتذار.

أحس شينغو أن عليه الإعراب عن شكره لفضل إيكو وإيكيدا.

لم تثر الزيارة شكوكاً ولا شبهات.

ولكن، ربما لأن كرامته الشخصية كانت محل اختبار، أجاب باقتضاب حين همست فتاة غيشا بشيء في أذنه خلال عشاء عمل.

«ماذا؟ اللعنة! إنني أصم، لا أستطيع سماعك».

قبض على كتفها. سحب يده على الفور. لكن فتاة الغيشا عبست متألمة ومسحت كتفها.

«تعال معي هنيهة» قالت وهي تقرأ الثورة على وجهه. ضغطت كتفها على كتفه وقادته إلى الشرفة.

عـاد إلى كاماكورا في حوالي الحادية عشرة. لم يكن شويشي قد رجع بعد.

في غرفتها المجاورة لغرفة الافطار، استندت إيكو على مرفقها وتطلعت إليه. كانت ترضع طفلتها الصغرى.

«هل ساتوكو نائمة؟»

«رقدت لتوها. سألتني أيهما أكبر. الألف ين أم المليون. أيهما أكبر؟ ضحكنا وضحكنا. قلت لها اسألي جدك حين يعود. غافلها النوم خلال انتظارها لك».

«لو كانت تسأل عن الألف ين قبل الحرب ومليون بعدها فهو سؤال وجيه»، ضحك شينغو. «كيكوكو، هل لي بكوب من الماء من فضلك؟»

«ماء؟ كوب ماء؟» نهضت كيكوكو، لكنها تحدثت وكأنما كان الطلب غريباً.

«من البئر. لا أريد تلك الكيماويات».

«حسناً».

«لم تولد فوساكو قبل الحرب.» قالت فوساكو من فراشها.

«لم أكن قد تزوجت بعد».

«كان خيراً لو أنك لم تتزوجي، لا قبل الحرب ولا بعدها»، قالت ياسوكو. سمعوا الماء يسحب من البئر. «يبدو أن المضخة لم تعد باردة. في الشتاء، حين تذهب كيكوكو لجلب الماء اللازم لصنع الشاي، كان ذلك الصرير يجعلني أرتعش وأنا متدثر في فراشي».

«أفكر في جعلهما يعيشان منفصلين عنا»، قال بصوت خفيض.

«منفصلين عنا؟»

«ألا يكون هذا أفضل؟»

«ربما، إذا كانت فوساكو ستمكث هنا».

«سأغادر يا أماه، إذا كانت المسألة تؤدي إلى انفصالهما عنكم».

نهضت فوساكو من الفراش. «سأنتقل. أليس هذا ما ينبغي القيام به؟».

«لا شأن لك بذلك». كاد شينغو أن يزمجر في وجهها.

«لي كل الشأن. شأن كبير في الحقيقة. حين قال إيهارا أنكم جعلتموني هكذا لأنكم لا تحبونني كدت أغص مختنقة. لم أتعرض لأذى كهذا في حياتي».

«تمالكي نفسك، تمالكي نفسك. ها أنت في ثلاثيناتك».

«لا أستطيع تمالك نفسي لأني لا أجد مكاناً أتمالك فيه نفسي».

ضمت فوساكو كيمونو النوم على ثدييها العاريين.

نهض شينغو بإعياء. «لنذهب إلى النوم أيتها الجدّة».

أحضرت كيكوكو كوب الماء. في يدها الأخرى جثمت ورقة شجر ضخمة.

«ما هذه؟» سألها محتسياً الماء دفعة واحدة.

«ورقة البشملة. هناك قمر جديد، وهناك غشاوة جديدة قرب البئر. تساءلت عما تكون. ورقة بشملة جديدة، كبيرة بهذا الحجم».

«شطارة تلميذات المدارس» قالت فوساكو بتهكم.

الصوت في الليل

استفاق شينغو على صوت أنين رجل.

لم يكن واثقاً ما إذا كان كلباً أم رجلاً. كان في البداية أشبه بأنين الكلب. لعلها تيرو، تعاني من آلام الاحتضار. هل تسممت؟

تسارع قلبه.

رفع كفه إلى صدره. كأنما انتابته ذبحة قلبية.

لكنه حين استيقظ تماماً أدرك أنه لم يكن كلباً بل رجلاً. كان يتعرض للاختناق. كان صوته أجش خشناً. تصبب شينغو عرقاً بارداً. شخص ما يتعرض للهجوم.

«كيكو- كو- وه! كيكو- كو- و- ه». خيل إليه أن الصوت يحشرج: «أخبريني أخبريني». كان الألم كامناً فيه.. الحنجرة تغص والكلمات تأبى اتخاذ شكلها.

«كيكوكو- و- ه. كيكو- و- و- ه».

يكاد يقتل. هل يسأل من يغير عليه عن مطالبه أم دواعيه؟

سمع شينغو شخصاً ما يسقط على البوابة. قوّس كتفيه في تهيؤ للنهوض.

«كيكو- و- و- ه. كيكو- و- و- ه».

إنه شويشي ينادي كيكوكو. كان كلامه مشوشاً والمقطع الثاني منه مفقوداً. كان غارقاً في السكر.

تهاوى شينغو على مخدته بإعياء. أخذ قلبه يواصل تسارعه. مسح صدره وتنفس بعمق وانتظام.

«كيكو كو ـ و ـ ه. كيكو ـ كو ـ و ـ ه».
يبدو أن شويشي لا يقرع البوابة بقدر ما يرتطم بها متداعياً.
فكر شينغو في الخروج بعدما استراح قليلاً.
ثم قرر. ليس هذا أفضل ما يجب عمله. لاح أن شويشي يستصرخ من قلب كسير وطافح بالأسى والحب. كان صوتاً ينبعث ممن لا يملك غير الصوت. الأنين شبيه برجيع طفل ينادي أمه في لحظة ألم ومرارة، أو هو شبيه بفزع قاتل مدمر. وبدا أنه يخرج من أعمق أغوار الإثم.
كان شويشي ينادي كيكوكو، ساعياً إلى تقريب نفسه منها، تصلب، استكان عارياً، وجثم بكل قوته. لعله، والسكر عذره، استصرخ متوسلاً ومستعطفاً، ظاناً أن هناك من يصغي إليه. كأنه يقيم لها مظاهر التبجيل.
«كيكو ـ كو ـ و ـ ه. كيكو ـ كو ـ و ـ ه».
عبر الحزن المسافة ليبلغ شينغو.
هل سبق له شخصياً، ولو لمرة واحدة، أن نادى زوجته بصوت يفيض بذلك الحب البائس؟ ربما، دون وعي، ضمّ الصوت قنوط لحظة ما على أرض معركة غريبة.
واصل الإصغاء، راجياً أن تستيقظ كيكوكو. أحس في الوقت ذاته بقليل من الحرج لأن كنّته تصغي لذلك الصوت المفعم بالبؤس. فكر في إيقاظ ياسوكو إذا تأخرت كيكوكو في الاستيقاظ، لكن ذهاب كيكوكو هو الأفضل.
دفع زجاجة الماء الساخن إلى قدم السرير. هل يتسارع قلبه لأنه ما زال يحتفظ بزجاجة الماء الساخن، حتى في الربيع؟
كيكوكو هي المسؤولة عن الزجاجة. كان يسألها إعداد الزجاجة في مناسبات عدة. يبقى الماء ساخناً فترة أطول حين تعدّها هي، فهي تبقي السدادة محكمة.
ربما لأن ياسوكو عنيدة، ربما لأنها كانت معافاة، فهي تكره زجاجات الماء الساحن حتى في عمرها. كانت قدماها دافئتين. عاش شينغو يستدر الدفء من زوجته حتى بدايات خمسيناته، لكنهما الآن ينامان منفصلين.

لم تكن تتحرك كي تلمس زجاجة مائه الساخن.

«كيكوكو- و- و- ه. كيكوكو- و- و- ه». تعالى الصوت من جديد آتياً من البوابة.

أشعل شينغو الضوء المجاور لوسادته. الساعة تناهز الثانية والنصف.

القطار الأخير على خط ياكوسوكا يبلغ كاماكورا قبيل الواحدة. لا بد أن شويشي تلكأ في إحدى حانات المحطة.

فكر شينغو، بوحي من إيقاع الصوت، أن النهاية مرتقبة بين شويشي والمرأة من طوكيو.

مرت كيكوكو عابرة المطبخ.

أطفأ شينغو الضوء، بعد شعوره بارتياح كبير.

«أغفري له» تمتم، موجهاً الكلمات إلى كيكوكو.

بدت تحاول انتشال شويشي.

«أرجوك. أنت تؤلمني»، كانت تلك كيكوكو. «أنت تشد شعري بيدك اليسرى».

«حقاً؟»

تهاويا كلاهما في المطبخ.

«تمسك الآن. على ركبتيّ. قدماك تتورمان حين تشرب».

«قدماي تتورمان؟ أنت كاذبة».

بدت كيكوكو تقوم بخلع جوربيه، وقدماه على ركبتيها.

لقد غفرت له. لعله لم يكن بحاجة للقلق. لعلها مثل زوجته تجد متعة أحياناً في كونها قادرة على منح المغفرة. لعلها أصاخت السمع إلى الصوت.

قدماه على ركبتيها. سحبت جوربي الزوج المخمور والعائد من زيارة امرأة أخرى. أحس شينغو بالرقة التي في داخلها.

حين وضعت شويشي في فراشه مضت لاغلاق البوابة الخلفية وباب المطبخ.

ارتفع شخير شويشي حتى أصبح بمقدور شينغو سماعه.

ها هو شويشي.. أرقدته زوجته في الفراش واستسلم سريعاً للنوم،

فماذا سيكون موقع المرأة كينو التي جعل منها حتى الآن جليسة معاقرته للخمر؟ ألم يسمع شينغو أنه كان يشرب ويسلم قياد نفسه للعنف حتى يدفعها للبكاء؟

وكيكوكو؟ لقد كان الشحوب والإعياء يبدوان عليها أحياناً بسبب كينو، لكن ردفيها اكتنزا باللحم مع ذلك.

- ٢ -

سرعان ما توقف الشخير، لكن شينغو لم يتمكن من معاودة النوم.

تساءل إن كان شخير ياسوكو قد انتقل إلى ابنها.

ربما لا. لعله شخر اليوم لإفراطه في الشرب.

ياسوكو تشخر هذه الأيام كما يبدو. لاح أنها تنام بهدوء حتى في الطقس البارد.

كره شينغو الصباحات التي يستفيق فيها وقد قضى نوماً قلقاً، فذاكرته تزداد سوءاً عما هو معتاد، ويصبح عرضة لنوبات جيشان العاطفة.

قد يكون جيشان العاطفة هو الذي جعله يسمع صوت شويشي كما سمعه. لعله كان صوتاً أجش خشناً بسبب الشرب، ولا شيء غيره. هل تتجسد خيبة شويشي في السكر؟

لاح لشينغو أن الحب والحزن اللذين استشعرهما في ذلك الصوت الثمل كان كل ما يأمله لابنه.

غفر شينغو ذاته لشويشي بسبب ذلك الصوت. وظن أن كيكوكو غفرت له بدورها. كانت أواصر الدم تجد استجابة في نفس شينغو.

خيل إليه أنه طيب مع كنته، لكنه ظهر أخيراً وكأنه ينحاز إلى صف ابنه.

صورة بشعة. شرب شويشي كثيراً في منزل تلك المرأة في طوكيو، وعاد إلى البيت ليتهاوى عند المدخل.

لو بادر شينغو لفتح البوابة بنفسه، لكان قد حدق في شويشي، فاستفاق

من سكره. حسن أن كيكوكو هي التي ذهبت فأتيح لشويشي أن يتوكأ على كتفها.

كيكوكو الطرف الجريح، كيكوكو الغافرة.

كم من المرات يتعين على كيكوكو، وهي الآن في مقتبل عشريناتها، أن تغفر لشويشي قبل بلوغهما عمر شينغو وياسوكو؟ ألن يكون لغفرانها حدّ؟

الزواج كالمستنقع الخطر، يمتص قبائح الأطراف بلا حدود؛ ونهاية حب كينو لشويشي، حب شينغو لكيكوكو. هل سيغوصون دون أن يخلفوا أثراً يذكر في الحمأة التي تدعى زواج شويشي وكيكوكو؟

من المناسب تماماً، كما بدا لشينغو، أن تكون الوحدة الأساسية في القانون الداخلي التالي للحرب قد تغيرت من الأهل والطفل إلى الزوج والزوجة.

«بكلمات أخرى، مستنقع الزوج والزوجة» تمتم مخاطباً نفسه. «لا بد من حصولهما على منزل خاص».

هذه الطريقة في تمتمة ما يجول بباله مردها شيخوخته.

تعبير «مستنقع الزوج والزوجة» لا يعني سوى أن الزوج والزوجة هما الوحيدان اللذان يعمقان المستنقع بمرور السنين، بتقاسمهما أخطاء بعضهما البعض.

لعل السبب يعود إلى صحوة الزوجة على نفسها في مواجهة كبائر الزوج. حكّ شينغو حاجباً محتقناً.

الربيع وشيك.

استيقظ على حلم، قبل أن يوقظه صوت شويشي. كان يتذكر عندها، لكنه نسي كل شيء حين استيقظ ثانية.

لعل وجيب قلبه هو الذي طمس الحلم.

تذكر حقيقة واحدة هي أن فتاة في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها كانت تجهض، وكانت الكلمات: لقد أصبحت طفلة مقدسة إلى الأبد.

كان يقرأ رواية خاتمتها تلك الكلمات.

قرأ الرواية بكلماتها، ورأى الحبكة في فيلم سينمائي أو مسرحية. لم يظهر شخصياً في الرواية. كان المتفرج فقط، ولا شيء سوى ذلك.

فتاة تجهض في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، ثم تكون في ذات الوقت فتاة مقدسة أمر يدعو للغرابة، لكن الحكاية طويلة. قرأت أحلام شينغو تحفة عن الحب الطاهر بين صبي وفتاة. ظلت مشاعره تواكبه حتى أفاق في نهاية القراءة.

هل حدث أن غفلت الفتاة عن حملها ولم تعتبره اجهاضاً، وواصلت شوقها إلى الفتى الذي انفصلت عنه؟ لكن هذا الانعطاف لن يكون طبيعياً وسليماً.

حلم جنسي لا يمكن تجميعه من جديد. وأحاسيسه عند قراءة الرواية كانت حلماً.

لا بد أن الفتاة تحمل اسماً ما، ولا بد أنه رأى وجهها، لكن حجمها فقط، أو ضآلة جسمها بالأحرى، ظل مبهماً في ذهنه. بدت ترتدي ثوباً يابانياً.

سأل نفسه: هل كان الحلم رؤيا لشقيقة ياسوكو الجميلة؟ لكنه قرر نفي هذا الاحتمال.

ليس مصدر الحلم سوى مقال قرأه في صحيفة، مساء البارحة.

«فتاة تلد توأمين. يقظة ضالة للربيع في آوموري». تحت هذه العناوين الضخمة كانت المقالة التالية: طبقاً لتحقيق قامت به وكالة الصحة العامة في ولاية آوموري، حول حالات الاجهاض الشرعي وفقاً لقانون تحسين النسل. أجريت حالات اجهاض لخمس فتيات في الخامسة عشرة، ثلاث فتيات في الرابعة عشرة، وفتاة واحدة في الثالثة عشرة. جرت اربعمئة حالة اجهاض لفتيات في سن الدراسة الثانوية، بين السادسة عشرة والثامنة عشرة. عشرون بالمئة منهن كنّ طالبات مواظبات. حدثت حالة حمل واحدة في الدراسة الاعدادية في هيروساكي وواحدة في آوموري وأربع في مقاطعة تسوغارو الجنوبية وواحدة في مقاطعة تساغورو الشمالية. ورغم مراجعة الفتيات للأخصائيين فقد أسفر نقص المعرفة الجنسية عن نتائج مريعة

تمثلت في وفاة/٢/ بالمئة من الحالات وأمراض خطيرة بنسبة ٢,٥ بالمئة. وفكرة وجود أخريات يلاقين حتفهن سراً على أيدي أطباء غير مرخص لهم تجعل المرء يرتجف إزاء الأمهات ـ الصبايا».

«أدرجت أربع حالات. طالبة في السنة الإعدادية، عمرها أربعة عشر عاماً، في مقاطعة تسوغارو الشمالية، أحست فجأة في مطلع شباط من السنة الفائتة بآلام الطلق، ثم وضعت توأماً. أصبحت الأم وطفلها بصحة جيدة، وعادت الفتاة إلى مدرستها وهي الآن في السنة الثالثة. لم يعلم ذووها بحملها.

فتاة في الحلقة الثانوية في آوموري، وقد نذرت نفسها لزميل دراستها فحملت في الصيف الماضي. قرر أهل الشريكين اجراء الاجهاض على أساس أنهما لا زالا في المدرسة، لكن الفتى قال: لم نكن نلهو، سوف نتزوج سريعاً».

كانت المقالة صدمة لشينغو، ولذا هجع في سريره وحلم بالاجهاض. لكن حلمه لم يجد نقيصة بشعة عند الفتى والفتاة. لقد روى الحلم قصة حب طاهر، وجعل من الفتاة «طفلة مقدسة». لم يقلب الأمر على كافة وجوهه قبل النوم.

أصبحت الصدمة شيئاً جميلاً. لماذا يتحتم حدوث ذلك الانتقال؟

لعله، في الحلم، هبّ لنجدة الفتاة، ونجدة نفسه أيضاً.

في كل حال، الشهامة انبثقت من الحلم.

راجع شينغو نفسه، متسائلاً إن كانت شهامته قد استفاقت في الأحلام.

وجاشت عاطفته بعض الشيء. هل نفحته شرارة الشباب حلماً بالحب الطاهر في شيخوخة العمر؟

مكثت العاطفة بعد الحلم، ولعلها دفعته لملاقاة صوت شويشي ووجهه المتعالي بالشهامة، جعله يلتمس فيه الحب والحزن.

ـ ٣ ـ

في فراشه سمع شينغو كيكوكو وهي توقظ شويشي.

إنه يستيقظ مبكراً هذه الأيام. لامته ياسوكو المتأخرة في نومها. «ليس

مستحباً أن يعرّض الشيوخ أنفسهم للسخرية باستيقاظهم مبكرين».

كان بدوره لا يرى في الاستيقاظ قبل كيكوكو أمراً مناسباً. يمضي متمهلاً إلى الباب الأمامي ليحضر الصحيفة، ثم ينهمك في قراءتها داخل فراشه.

بدا أن شويشي يغتسل.

تناهى صوت إقياء. لا شك أنه غصّ عند غسيله لأسنانه.

هرعت كيكوكو إلى المطبخ.

نهض شينغو. التقى بكيكوكو في الشرفة عائدة من المطبخ.

«أبتاه!»

توقفت، تكاد تلقي بنفسها في أحضانه، واحمر وجهها. انسكب شيء من الكوب على يدها. لعله الساكي البارد، علاج ما للصداع الناتج عن سكر شويشي.

فكر شينغو أنها باهرة الجمال... تورد الوجه الشاحب قليلاً، الخالي من الأصباغ، حياء في العينين الناعستين الساكتتين، بهاء في الأسنان الجميلة المطلة من شفتين مستويتين بغير طلاء، تتراقص فوقهما ابتسامة حرج.

ألا زالت تحمل تلك السمة الطفولية؟ فكر شينغو في حلمه.

لكنه ليس أمراً في منتهى الغرابة... فتيات لا يتجاوزن الأعمار الواردة في المقالة يتزوجن ويحملن أطفالاً. إنه الشيء ذاته الذي ساد في الأزمنة الغابرة.

شينغو ذاته انجذب بقوة إلى شقيقة ياسوكو، حين لم يتجاوز عمره سنوات الصبا.

فتحت كيكوكو المصاريع بعجالة حين دخلت غرفة الافطار.

سبحت الغرفة بشمس الربيع.

بدت كيكوكو فزعة من الضياء. كان شينغو يرقبها من الخلف. وضعت

كلتا يديها على رأسها وسحبتهما على شعرها الذي ما زال منكوشاً من أثر النوم.

لم تكن براعم الغينغكو الكبيرة في الضريح قد تفتقت بعد. ومع ذلك عبق في ضياء الصباح وفي خياشيم الصباح شيء قريب من أريج البراعم.

أحضرت كيكوكو شراب الغيوكورو، وهي تتعجل ترتيب نفسها.

«خذ يا أبتاه. كنت بطيئة جداً هذا الصباح».

اعتاد شينغو على تناول الغيوكورو بماء شديد السخونة عند كل يقظة صباحية. كلما ارتفعت سخونة الماء زادت صعوبة نقع الشراب. وكيكوكو أفضل من يقوم به.

تساءل هل يكون شراب الغيوكورو أفضل بكثير لو أعدته امرأة عازبة.

«أنت مشغولة للغاية» قال بابتهاج. «الساكي للمخمور، الغيوكورو للخرف».

«أوَكنت تعرف؟»

«لقد أيقظني. ظننته تيرو في البداية».

«حقاً؟» جلست كيكوكو محنية الرأس، كأنها مشلولة الحركة.

«لقد استيقظت قبلك يا كيكوكو» صاحت فوساكو من الغرفة الثانية. «لم يكن المشهد ساراً. عرفت أنه شويشي لأن تيرو من نوع أكثر هدوءاً».

دخلت فوساكو إلى غرفة الافطار وهي لا تزال في ثوب نومها وطفلتها الصغرى على ثديها.

كانت ملامحها متعبة، لكن ثدييها ناصعان وممتلئان بصورة ملفتة للنظر.

«أنت في حالة فوضوية» قال شينغو. «لماذا لا ترتدين شيئاً؟»

«إيهارا هو الفوضوي، وأنا مثله تماماً. لن تكون واحدتنا على حال مختلف حين تتزوج من شخص فوضوي». نقلت فوساكو طفلتها كونيكو من الثدي الأيمن إلى الأيسر. «إذا كنت لا تريدني هكذا، فقد كانت فكرة صائبة لو تبيّنت الأشياء قبل تزويجي».

«الرجال مختلفون عن النساء».

«إنهم سواء. أنظر إلى شويشي».

توجهت نحو منصة الاغتسال.

كيكوكو تناولت كونيكو. رفعت فوساكو الطفلة بصورة خشنة جعلتها تشرع في البكاء.

ابتعدت فوساكو غير مكترثة.

ياسوكو، العائدة من غسيل وجهها، أخذت الطفلة. «وماذا ينوي والدها في رأيك؟ عادت فوساكو ليلة رأس السنة الجديدة. قبل شهرين من الآن. تصف فوساكو بالفوضى، لكني أظن هذا الأب الذي أمامك أكثر فوضوية في المسألة الأهم. قلت في ليلة رأس السنة أن انفصالاً مشرفاً هو الأفضل، ولم تفعل شيئاً منذ ذلك الحين. لم تصل كلمة واحدة من إيهارا». كانت تنظر إلى الطفلة خلال كلامها. «الفتاة تانيزاكي التي قابلتها في مكتبك، يقول شويشي أنها نصف أرملة. أظن أن فوساكو نصف مطلقة».

«ماذا تعني عبارة نصف أرملة؟»

«لم تتزوج، ومات الرجل الذي أحبته في الحرب».

«لكن تانيزاكي لن تكون أكثر من طفلة».

«كانت في الخامسة عشرة أو السابعة عشرة بالتقويم القديم. في سن يكفي لمصاحبة رجل لا تستطيع نسيانه».

اعتبر شينغو تعبير «رجل لا تستطيع نسيانه» غريباً إذ يصدر عن ياسوكو.

غادر شويشي دون إفطار. كان متأخراً، ولعله متوعك.

قتل شينغو الوقت حتى ورد بريد الصباح. بين الرسائل التي أحضرتها كيكوكو واحدة موجهة إليها.

سلمها إليها.

لا بد أنها أحضرت البريد دون أن تقلبه. نادراً ما تتلقى الرسائل، ولم يكن واضحاً أيضاً أنها تنتظرها.

قرأت الرسالة في غرفة الافطار.

«إنها من صديقة. لقد خضعت لعملية اجهاض ولم تتحسن من يومها. إنها في مشفى الجامعة في هونغو».

«أوه؟» نزع نظارته وتطلع في وجهها. «هل وقعت في أحابيل قابلة عجوز غير مرخص لها؟ أمر شديد الخطوره».
مقالة الجريدة ليلة أمس ورسالة كيكوكو. صعقت المفاجأة شينغو. لقد حلم باجهاض.
أغرته الرغبة في اطلاع كيكوكو على الحلم.
لكنه بات عاجزاً عن الكلام وهو يحدق بها. أحسّ بتوقد شيء ما يضطرم شباباً. وفزع حين داهمته فكرة أخرى: هل يمكن أن تكون كيكوكو حاملاً، وتفكر في الاجهاض؟

- ٤ -

«أنظر كيف يزهر البرقوق؟» قالت كيكوكو متسائلة، والقطار يمرّ في وادي كاماكورا.
في شمال كاماكورا هناك أعداد كبيرة من أشجار البرقوق قريبة جداً من نوافذ القطار. كان شينغو يراها كل يوم، لكنه لا يعيرها اهتماماً خاصاً.
البراعم البيضاء توشك على التفتح، تأخذ في الاتساخ حتى في ضوء الشمس الدافئة.
«لكن برقوقنا يزهر أيضاً» قال شينغو. هناك ثلاث أو أربع منها مع ذلك، ولعله المشهد الأول الذي رأته كيكوكو.
نادراً ما تتلقى الرسائل، ونادراً ما تخرج أيضاً، باستثناء الذهاب للتبضع في كاماكورا.
غادرت مع شينغو في طريقها لعيادة صديقتها المريضة في مشفى الجامعة.
كان منزل صديقة شويشي قريباً من الجامعة. اضطرب شينغو لهذه الحقيقة.
أراد طوال الطريق أن يسألها إن كانت حاملاً.
لم يكن السؤال صعباً، لكن تفويته للفرصة بدا محتملاً تماماً.
كم من السنين انقضت قبل أن يتوقف عن سؤال ياسوكو فيما يخص

أحوالها الفيزيولوجية؟ منذ أن تغيرت الحياة، لم تذكر ياسوكو نفسها أي شيء. هل أصبحت مسألة تفسخ أكثر منها مسألة نشاط وحيوية؟

نسي شينغو مسألة توقفت ياسوكو عن ذكرها.

خطرت ياسوكو بباله حين فكر في طرح السؤال على كيكوكو.

ربما كانت ياسوكو ستقترح اجراء فحص طبي لو علمت.

كانت ياسوكو تشير أحياناً إلى الأطفال في حديثها مع كيكوكو. أما شينغو فقد اعتبر أن كيكوكو تجد الموضوع محرّماً.

لا شك في أن كيكوكو قد فاتحت شويشي بأمر ما. منذ زمن طويل أصغى شينغو بإعجاب لنظرية أحد أصدقائه القائلة بأن المرأة ترى في الرجل الذي استحق بوحها وأسرارها كل شيء في حياتها. لو اتخذت رجلاً غيره لاحتفظت بسرٍّ حالتها لنفسها فقط.

الابنة لا تبوح به لأبيها.

بدا أن شينغو يتجنب مفاتحة كيكوكو بأمر عشيقة شويشي، وكانت هذه حالة كيكوكو أيضاً.

لو كانت حاملاً فالسبب يعود ربما إلى النضج الذي أضفته صاحبة شويشي. فكرة بغيضة، لكنها جزء من الكيان الإنساني، ولاح له أن مفاتحة كيكوكو بأمر الأطفال تنطوي على قسوة خفية.

«هل أخبرتك الأم بحضور الجد أمامييا البارحة؟»

«كلا».

«جاء ليخبرنا أنه سينتقل إلى بيت في طوكيو. وأحضر كيسين كبيرين من الكعك المحلّى وطلب مني الترفق بتيرو».

«هل الكعك لتيرو؟».

«هكذا تعتقد الأم. لعل أحدهما لنا. كان الجد أمامييا سعيداً للغاية. قال إن أعمال أمامييا الشاب تسير بصورة حسنة، وأنه أنهى تشييد المنزل».

«هكذا الأمور. رجل الأعمال الناجح يبيع منزله ليبدأ كل شيء من جديد، ثم يفاجئك ببناء منزل حديث. بالنسبة لأناس من أمثالي تمرّ السنوات العشر وكأنها يوم واحد. حتى مشوار القطار هذا يصبح أشبه بمصاعب

بالغة شديدة. تعشينا ليلة البارحة، جميع المسنين من أمثالي. أمر فائق كيف أننا نواصل العيش سنة بعد سنة، نمارس الأشياء القديمة ذاتها. يصيبنا التعصب والسأم، ونسأل متى يحضرون لطلبنا».

لم تظهر كيكوكو دليلاً على فهمها للعبارة الأخيرة بحقيقتها.

«قال أحدنا إننا حين نمثل أمام الحاكم فسنخبره بأن قطع الغيار لا ترتكب الأثام. هذه حالنا.. قطع غيار للحياة. وطالما بقينا على قيد الحياة، ألا نستحق من الحياة رأفة بحالنا على الأقل؟».

«لكن...»

«إنها الحقيقة. أشك في وجود رجل واحد، مهما كان عمره، قادر على القول بأنه عاش حياته بكل ما فيها. فكري بالرجل الذي يسلمك حذاءك في المطعم. كل ما يفعله طوال حياته لا يتجاوز تقديم الأحذية واستلام الأحذية. أحد أصحابنا المسنّين لديه نظريته الخاصة ـ الأشياء أكثر سهولة فعلياً بالنسبة لذلك النوع من قطع الغيار. لكن الساقية لم توافق، فالرجل العجوز الذي يأخذ الأحذية يقاسي حياة شاقة صعبة، هكذا قالت. يتعين عليه العمل في جحر تحيط به رفوف الأحذية من كل جانب. هناك يقبع معاقراً نار الفحم والأحذية اللامعة. الجو قارس شتاء وقائظ صيفاً في ذلك الرواق. لقد لاحظت كم تتوق الجدة للحديث عن بيوت الناس».

«الأم؟ لكن الأمر ليس جدياً إلى هذا الحد بالنسبة لها. كالشباب الذين يرددون أبداً أنهم يتمنون لو كانوا أمواتاً».

«هذا صحيح كما أظن. تعتقد أنها ستعيش بعدي. ولكن عن أي شباب تتحدثين؟»

«الشباب...» ترددت كيكوكو. «في رسالة صديقتي».

«رسالة هذا الصباح؟»

«نعم. إنها ليست متزوجة».

«هكذا!».

غرق في الصمت. لم تستطع كيكوكو مواصلة كلامها.

حدث ذلك عندما غادر القطار توتسوكا. بقي على هودوغايا، المحطة التالية، مسافة لا بأس بها.

«كيكوكو.. لقد كنت أفكر. ألا تحبان أنت وشويشي العيش بعيداً عنا؟»

تطلعت إليه كيكوكو، منتظرة أن يضيف شيئاً. ثم أجابت وعلامات توسل تغمر صوتها: «لماذا يا أبتاه؟ لأن فوساكو حلّت في البيت؟».

«لا شأن لفوساكو بالأمر. أعرف أنه من العسير عليك العيش مع نصف مطلقة. ولكن حتى لو تطلقت من إيهارا، فلن تمكث معنا طويلاً. كلا، لا شأن لها. الأمر يتصل بكما. ألا ترين أنه أفضل؟».

«كلا. أنت طيب معي، وأفضل البقاء معك. لا أظنك تتخيل كم سأشعر بالوحشة بعيداً عنك».

«أنت تبدين لطفاً جمّاً».

«أوه، كلا. أنا استغل مزاياك. أنا الطفلة، الابنة المدللة في الأسرة. كنت دائماً صاحبة حظوة عند أبي كما أنا عندك».

«أفهم لماذا فضلك أبوك على غيرك، ورائع أن تمكثي معنا. لن أشعر بالسعادة لمشهد رحيلك. لكنك تعرفين حالة شويشي، ولم يسبق لي أن بحثت المشكلة معك. نحن أهل لا فائدة من العيش معنا. هل ستتوصلان إلى حلّ خاص بكما لو عشتما وحيدين؟»

«كلا. أنت لا تقول شيئاً، لكني أحس بعطفك عليّ وتعاطفك معي. هكذا بالضبط أتدبر الاستمرار في حياتي». ملأت الدموع مآقيها الواسعة. «أظن أنني سأصاب بالهلع إذا جعلتنا نرحل، ولا أظن أنني سأحتمل الانتظار وحيدة. سأشعر بوحشة قاسية، سيتملكني الرعب».

«إنني أفهم. انتظارك له وحيدة.. لكنها ليست مسألة تناقش في قطار. فكري بها ملياً».

بدت فزعة حقاً. كان كتفاها يرتجفان.

رافقها إلى هونغو في تاكسي.

لم يظهر عليها أنها ترى في خدمته لها أمراً غير طبيعي، وربما عاد السبب إلى تنعمّها بتدليل أبيها، أو شعورها بالاحباط.

لم يكن متوقعاً إلى درجة كبيرة أن تكون صاحبة شويشي قد خرجت للنزهة لكنه حرص على الانتظار حتى أصبحت كيكوكو داخل المشفى، بأمان.

الناقوس في الربيع

كاماكورا في فصل تفتح الكرز. يجري الاحتفال بالذكرى المئوية السابعة لتأسيس العاصمة البوذية. قرع ناقوس المعبد طوال النهار.

حدث أحياناً أن شينغو لم يسمعه. لا بد أن كيكوكو سمعته، حتى وهي تتكلم أو تعمل، لكن شينغو بحاجة لإصاخة السمع والإصغاء بأناة.

«اسمع!». كانت كيكوكو متنبهة. «اسمع. . إنه يقرع ثانية».

«أوه؟» قال شينغو، مائلاً برأسه جانباً. «هل تسمعه الجدة؟»

لم تكن ياسوكو بخير. «أستطيع سماعه بالطبع. إنه يصم الآذان عملياً».

كانت تقرأ بطريقتها الخاصة ركام خمسة أيام من الصحف.

«ها هو، ها هو يتعالى» قال شينغو. بعد أن التقط الصوت أصبح من اليسير متابعة الضربات اللاحقة.

«تبدو مبتهجاً للغاية». نزعت ياسوكو نظارتها وتطلعت إليه. «ينبغي أن يتعب الرهبان، فهم يقرعون الناقوس يوماً بعدم يوم».

«كلا. الحجاج هم الذين يقرعونه، مقابل عشر ينّات للضربة»، شرحت كيكوكو.

«لا يقوم الرهبان بهذا العمل».

«فكرة ذكية»، عقب شينغو.

«يسمونه ناقوس الموتى، أو شيئاً من هذا القبيل. ها هو الطعم الذي بواسطته يدفعون مئات الآلاف من الناس، ملايين البشر إلى قرع الناقوس».

«الطعم؟» كان اختيارها للكلمات يفاجىء شينغو بطرافته.

«صوته قاتم وشرير» قالت كيكوكو، ثم أردفت: «إنني لا أحبه في الحقيقة».

«أتظنينه قاتماً؟».

كان شينغو ذاته يفكر كم يكون مريحاً ومبهجاً وآمناً أن يجلس المرء في غرفة الإفطار، ذات يوم أحد من شهر نيسان، متملياً أزاهير الكرز ومصيخاً السمع إلى الناقوس.

«بالمناسبة، ما هي هذه الذكرى المئوية السابعة؟» سألت ياسوكو.

«يقول البعض إن لها صلة ببوذا العظيم، ويقول آخرون أنها لنيشيرين».

لم يكن بوسع شينغو إجابتها.

«هل تعرفين يا كيكوكو؟»

«كلا».

«غريب حقاً، ونحن الذين نعيش هنا في كاماكورا».

«ألا يوجد في صحفك جديد يا أماه؟»

«ربما». ألقت ياسوكو بالصحف إلى كيكوكو. وكانت مطوية ومرتبة بعناية. احتفظت ياسوكو بواحدة لنفسها، «أظن أنني فعلت شيئاً. صعقني كثيراً المقطع الخاص بالعجوزين اللذين غادرا بيتهما فنسيت كل شيء. رأيتها كما أظن؟» سألت ياسوكو.

«نعم».

«هبة خيرية ضخمة لسباق القوارب الياباني. نائب رئيس اتحاد التجديف الياباني» باشرت قراءة المقال ثم تابعته بكلماتها الخاصة. «كان رئيساً لشركة تصنع القوارب واليخوت. كان في التاسعة والستين، وكانت في الثامنة والستين».

«وما الذي صعقك في الخبر؟»

«تركا وراءهما رسالة لابنتهما وصهرهما وأحفادهما. ها هي في الصحيفة». عادت ياسوكو للقراءة. «مخلوقات يائسة كهلة، نعيش فضلات حياتنا، منسيين من العالم؟ كلا، لقد قررنا أننا لا نرغب في العيش طويلاً.

نقدّر تماماً مشاعر الـفيكونت تاكاغي[1] ينبغي أن يرحل الناس وهم لا يزالون متمتعين بحب من حولهم. سنذهب الآن، ولا نزال نتفيأ عاطفة الأسرة، مباركين من قبل عدد من الرفاق وزملاء الدراسة». هذه للابنة والصهر، وهذه هي الرسالة الموجهة للأحفاد: يوم استقلال اليابان قادم، لكن طريق التقدم مظلمة. إذا كان الطلاب الشباب الذين قاسوا أهوال الحرب يرغبون حقاً في السلام، فعليهم الصمود حتى النهاية في أساليب اللاعنف المستمدة من غاندي. لقد عشنا طويلاً، ولم تعد لدينا قوة تكفينا لريادة ومتابعة الطريق الذي نعتبره صائباً. لو عشنا ببلادة في (سنوات الضغينة)[2] لأفرغنا السنوات التي عشناها حتى الآن من كل معنى. رغبتنا أن نخلف وراءنا ذكريات طيبة لجدّين. لا نعرف لنا اتجاهاً. نحن فقط نكتفي برحيل هادىء».

لزمت ياسوكو الصمت.

أشاح شينغو بوجهه، لينظر إلى أشجار الكرز في الحديقة.

كانت ياسوكو ما تزال تحملق في الصحيفة. «تركا بيتهما في طوكيو واختفيا بعد قيامهما بزيارة شقيقته في أوساكا. الأخت في الثمانينات من عمرها».

«هل تركت الزوجة رسالة ما؟»

«ماذا؟» تطلعت ياسوكو بدهشة.

«ألم تترك الزوجة رسالة؟»

«الزوجة؟ المرأة العجوز؟»

«بالطبع. إذا غادرا سوياً، فمن الطبيعي أن تترك الزوجة ملاحظة ما أيضاً. افترضي أننا قررنا الانتحار سوياً. سيكون لديك ما تريدين قوله وتدوينه كتابة».

«لن يكون هذا ضرورياً» قالت ياسوكو باقتضاب. «يحدث ذلك حين

---

(١) الفيكونت تاكاغي حمو الشقيق الأصغر للامبراطور الحالي. يعتقد العامة أن موته عام ١٩٤٨ تمّ على يديه شخصياً.

(٢) إشارة إلى قصة كتبها فيوافوسيو سنة ١٩٤٧.

يقرر الشباب الانتحار فيتركون الرسائل. يريدون التحدث عن مأساة التلوث في العزلة. ماذا سأقول أنا؟ في حالة الزوج والزوجة سيكون كافياً أن يترك الزوج ملاحظاته».

«هل تظنين ذلك حقاً؟»

«يختلف الأمر حين يتعين عليّ تنفيذ الموت بنفسي».

«ستعانين جبالاً من الآلام والحسرات كما أظن».

«لن تهمني. ليس في سني».

ضحك شينغو. «ملاحظات مريحة من امرأة عجوز لا تنوي الموت وليست موشكة عليه. وماذا عن كيكوكو؟»

«أنا؟» كان صوتها خافتاً متردداً.

«لنفترض أنك تريدين الانتحار برفقة شويشي. هل سترغبين في ترك رسالة؟»

«عرف من فوره أنها لم تكن العبارة التي أراد قولها».

«لا أدري. أتساءل كيف ستكون الحالة». نظرت إلى شينغو. كانت سبابة يدها اليمنى في رداء الأوبي، كأنها تريد ارخاءها. «يخامرني شعور بأني سأترك شيأً لك أيها الأب». راحت عيناها تغرقان في نداوة شابة، ثم امتلأتا بالدموع.

ليست لدى ياسوكو أشياء حميمة عن الموت، فكر شينغو. لكن كيكوكو لا تفتقر إليها.

أطرقت كيكوكو. ظن أنها توشك على الانهيار والانخراط في البكاء، لكنها نهضت.

تبعتها ياسوكو بنظراتها. «غريب. ما من شيء يدعوها للبكاء. إنها الهيستيريا دون غيرها. الهستيريا واضحة».

حلّ شينغو أزرار قميصه وأسبل يده على صدره.

«هل يتسارع قلبك؟»

«كلا. الحلمة تحكني. إنها قاسية ومحتقنة».

«كفتاة في مقتبل عمرها».

حكّ شينغو حلمته اليسرى بسبابته.

حين يرتكب زوجان انتحاراً مشتركاً يترك الزوج رسالة ولا تفعل الزوجة. هل تضع الزوجة الزوج بديلاً عنها، أم أنه ينوب عن الاثنين في اتساق واشتراك؟ حيّر السؤال شينغو فيما تابعت ياسوكو قراءة الصحيفة.

هل تجسدا في كيان واحد خلال عيشهما معاً هذه السنوات الطويلة؟ هل فقدت الزوجة العجوز هويتها؟ ألا تحمل وصية تتركها وراءها؟

هل الأمر أن المرأة، بغياب الوازع الذي يدفعها للموت، أشرفت على رعاية زوجها، أخذت نصيبها في وصية الزوج دونما مرارة أو حزن أو تردد؟ بدا الأمر بأسره غريباً لشينغو.

لكن زوجته العجوز ذكرت أنهما لو ارتكبا الانتحار حقاً فلن تكون بحاجة لترك رسالة. يكفي أن يفعل هو.

امرأة ترافق الرجل إلى الموت دون شكوى.. لقد كان العكس هو السائد في الماضي، لكن المرأة تتبع الرجل عادة. فزع شينغو إلى حدٍّ ما عندما فكر بأن امرأة كهذه، طاعنة في السن، تتنفس هنا بقربه.

لم تتغمض كيكوكو زمناً طويلاً مع شويشي، وها هما يتعرضان للمتاعب.

لعله قسى على كيكوكو أو جرحها حين سألها هل ترغب في ترك رسالة.

كان يعرف أنها تقف على شفير هاوية خطرة.

«أنت تفرط في مسايرتها. لهذا تجدها تبكي لمسائل سخيفة كهذه»، قالت ياسوكو. «أنت تدلّلها، وأنت الذي لم تقم بشيء واحد لمعالجة المشكلة الأهم. الأمر سواء بالنسبة لغوساكو».

كان شينغو يرقب شجرة الكرز المثقلة بالأزاهير.

تحت شجرة الكرز تكاثفت نبتة ياتسودي[1] شابة يانعة.

يكره شينغو الياتسودي، وقد نوى قطعها قبل إزهار الكرز، لكن الثلج تساقط بكثافة في آذار، وقد أينعت أزاهيرها من جديد.

ورغم أنه قطعها قبل ثلاث سنوات، فقد عادت ثانية بمزيد من الفخامة. فكر حينها في اقتلاع الجذور، وكان مصيباً.

---

(١) Fatsia Japonica

ملاحظات ياسوكو جعلته يزداد كرهاً للخضرة الداكنة في الأوراق. لو اقتلع الياتسودي لانتصبت الكرزة دون سواها تتطامن حتى تمتد أغصانها إلى الجهات الأربع. ولقد تطاولت أيضاً حتى باحتشاد الياتسودي من حولها.

كانت مثقلة بأزاهير كثيرة حتى ليعجب المرء كيف تحمل شجرة كل هذه الأثقال.

طفت الأزاهير شامخة في ضوء سماء الظهيرة. لم يكن مظهر الشجرة أو لونها قوياً بصورة خاصة، لكن المرء يحس بأنها تغمر السماء وتفيض عليها. الأزاهير في أوج نضجها. كان التفكير في سقوطها عصياً على الأذهان.

لكن ورقتين أو ثلاثاً واصلت سقوطها، لتصبح الأرض سجادة لها.

«حين تقرأ أن شاباً قتل أو انتحر، تكتفي بالقول إن الأمر يحدث من جديد» تهكمت ياسوكو. «أما بالنسبة للكهول فهو يؤثر فيك حقاً. لا بد أن يرحل البشر وهم ما يزالون متمتعين بحب من حولهم». لا بد أنها كررت قراءة المقالة مرتين أو ثلاثاً. «في اليوم السابق نشرت مقالة عن شيخ في الواحدة والستين من عمره أحضر حفيده من توشيفي ليضعه في مشفى سان لوك. كان الفتى في السابعة عشرة ويعاني من شلل الأطفال. حمل الجد حفيده على ظهره وتنقل به من مكان إلى آخر ليريه طوكيو، وفي النهاية خنقه الجد بمنشفة. نشرت المقالة في الصحيفة يوم أمس».

«أوه؟ لم أنتبه إليها». كانت إجابة شينغو لا مبالية، لكنه تذكر مبلغ تأثره العميق بالمقالة التي تحدثت عن الفتيات وحالات إجهاضهن، وكيف حلم بها أيضاً.

كان البون شاسعاً بينه وبين المرأة العجوز، زوجته.

- ٢ -

«كيكوكو!» صاحت فوساكو. «آلة الخياطة هذه تقطع الخيط دائماً. أبها عطل ما؟ تعالي والقي عليها نظرة. إنها من نوع سينجر وينبغي أن تكون آلة جيدة. لا أدري إن كنت فقدت لمسة المهارة.. لا أدري، هل أصابتني الهستيريا».

«سوف تتحطم قطعة قطعة ذات يوم. لقد ابتعتها مذ كنت طالبة»، دخلت كيكوكو الغرفة. «لكنها تصغي إليّ حين أحادثها أحياناً. دعيني أبذل محاولة».

«أوه.. تتوتر أعصابي حين تتعلق ساتوكو بي. أكاد أخيط يدها في أغلب الأوقات. لا أقصد بالطبع أنني أخيط يدها، لكنها تضعها هنا، هكذ، وبينما أراقب الدرزة يزيغ كل شيء ويختلط القماش ببعضه».

«أنت متعبة».

«كما قلت تماماً. مصابة بالهستيريا. أنت أيضاً متعبة. إثنان فقط في هذا البيت ليسا متعبين: الجد والجدة. ها هو الجد في الستينات ويشكو حكة في حلمته. أمر مضحك».

اشترت كيكوكو بعض القماش للطفلين وهي في طريق عودتها من عيادة صديقتها المريضة في طوكيو.

كانت فوساكو منهمكة في إصلاح الثياب، غير مكترثة نهائياً بكيكوكو.

بان الامتعاض بوضوح على وجه ساتوكو، حين تبادلت كيكوكو المكان مع فوساكو.

«العمة كيكوكو ابتاعت القماش، وها أنت تجعلينها تخيطه الآن».

«لا تلقي بالاً إليها يا كيكوكو. إنها شبيهة بايهارا».

لم يخرج الاعتذار يسيراً من فوساكو.

وضعت كيكوكو يدها على ظهر ساتوكو. «أطلبي من الجد أن يصحبك إلى بوذا. سيقام موكب فيه أمراء صغار وغيرهم. وستعقد حلقات الرقص».

تحت الحاح فوساكو، خرج شينغو مصطحباً فوساكو وساتوكو.

ساروا منحدرين في الشارع الرئيسي لضاحية هاسي، حين وقعت عينا شينغو على شجرة كاميليا أمام دكان تبغ. اشترى علبة من سجائر هيكاري وأبدى كلمة اطراء. كانت الأزاهير، التي توفر منها أربع أو خمس، مزدوجة، ذات تويجات متغضنة.

كلا، أجاب بائع الدخان. الأزاهير المزدوجة ليست سليمة في

الشتلات. يجب على المرء حفظ الكاميليا البرية أحادية التويج. قادهم إلى الحديقة الخلفية. كانت شتلات الأشجار مزروعة في أصص مصفوفة قرب مسكب خضار بمساحة أربع أو خمس ياردات مربعة. كانت الكاميليا البرية شجرة عجوز ذات جذع هائل جبار.

«لقد قطفت البراعم» قال الرجل. «لن تكبر فترهق الشجرة وتهلكها».

«هل تبرعم؟»

«الكثير. لكني أترك القليل منها. ذاك الذي تجده أمامك حمل عشرين برعماً أو ثلاثين».

تحدث الرجل عن تقنيات التقليم، وعن الناس في كاماكورا وكيف هم مغرمون بشتلات الأشجار القصيرة. لطالما رآهم شينغو يضعونها في نوافذ المحلات.

«شكراً جزيلاً». قال للرجل مغادراً المحل. «إنني أحسدك».

وليست لدي براعم جيدة حقاً. لكن الكاميليا البرية لها عواملها الخاصة. تقتني واحدة، ثم تصبح مسؤولاً عن حفظها من الموت أو فقدان هيئتها. إنها أفضل علاج للكسل».

أشعل شينغو واحدة من السجائر التي اشتراها لتوه. «البوذا مرسوم عليها» قال مناولاً العلبة إلى فوساكو. «مصنوعة خصيصاً لكاماكورا».

«دعني أراها» مدت ساتوكو يدها لتأخذ السجائر.

«هل تتذكرين سقوط أوراق الشجر الأخير حين هربت من البيت وذهبت إلى تيناتو؟»

«لم أهرب من البيت».

«هل كانت في البيت القديم بعض أقلام الأشجار؟»

«لم أر شيئاً منها».

«ربما. ربما مضى عليها أربعون سنة. كان العجوز مهووساً بأقلام الأشجار وصهر ياسوكو. لكنك تعرفين ياسوكو، ولقد فضل شقيقتها. كان يطلب من شقيقتها مساعدته في العناية بالأشجار. كانت جميلة لدرجة لا تجعل المرء يحلم بأنها شقيقة ياسوكو. أستطيع رؤيتها الآن، ترتدي الكيمونو

الأحمر، خصلات الشعر على جبهتها، تهبط منحدرة في صباح تكوم فيه الثلج على الرفوف لتكنسه عن الأغصان. أستطيع رؤيتها نصب عينيّ الآن، نضرة وناصعة. شينانو متلفعه بالبرد، وأنفاسها بيضاء».

الأنفاس البيضاء كانت عابقة بطراوة الفتاة الشابة.

غرق شينغو في الذكريات، منتهزاً حقيقة أن فوساكو، المنتمية إلى جيل مختلف، ظلت غير عابئة.

«أتخيل أن الكاميليا لازمت الدار أربعين سنة». بدا عمرها عريقاً. كم من السنين يستغرق جذع قلم حتى يصبح كعضلات الفخذ المتينة؟

القيقب الذي اتّقد احمراراً على المذبح يوم وفاة شقيقة ياسوكو، هل يتاح له أن يظل حيّاً، برعاية من يدين ما؟

- ٣ -

حين وصل الثلاثة إلى أرض المعبد كان موكب «الأمراء الصغار» يشق طريقه صعوداً على ممشى الشارع الحجري أمام بوذا الكبير. لقد سار الصبية الصغار مسافة معقولة كما يبدو. كان بعضهم مرهقاً.

تركت فوساكو ابنتها ساتوكو لتستعرض جدار البشر. حدقت فوساكو بالفتيات في كيموناتهن المزهرة.

حين تناهى إليهم أن هناك حجراً في الأرياض يحمل قصيدة ليوسانو اكيكو[1] التفوا حول التمثال للبحث عنه. يبدو أنه مكتوب بخط اكيكو، مكبراً ومحفوراً على حجر.

«أرى أنه يحتوي على الساكياموني» قال شينغو.

دهش لأن فوساكو لم تكن تعرف هذه القصيدة، الأشهر بين القصائد.

كتبت اكيكو:

«غيضة صيفية، كاماكورا، لعله البوذا،

---

(١) ١٨٧٨ - ١٩٤٢. أثرت كثيراً في إحياء تقاليد «التانكا» في الشعر الياباني المعاصر. وارتبطت بالمجلة الأدبية المسماة «ميوجو». (م)

لكنه فتى وسيم أيضاً، اللورد ساكياموني.

ولكن البوذا الكبير ليس ساكياموني، إنه فعلياً أمتياباه. وحين رأت أنها ارتكبت خطأ أعادت كتابة القصيدة، بيد أن طبعة ساكياموني كانت قد طبقت الآفاق، وتغييرها إلى بوذا العظيم أو شيء من ذلك القبيل سيفسد الوزن، ويكرر كلمة بوذا. لكنها خطأ. خطأ محفور على حجر، نصب أعيننا تماماً».

كان الشاي الاحتفالي يقدم في مساحة مفتوحة الستائر قرب الحجر. منحت كيكوكو بعض البطاقات لفوساكو.

الشاي تحت الشمس وفي الهواء الطلق له لونه الخاص. تساءل شينغو هل تشربه ساتوكو أيضاً. قبضت ساتوكو على حافة الإناء بيد واحدة. كان وعاءً عادياً للغاية، لكن شينغو مدّ يده لمساعدتها.

«إنه مرٌّ».

أعلن وجه ساتوكو أن الشاي مرّ، حتى قبل تذوقها له.

دخلت الفتيات الصغيرات الراقصات وراء الستار. لعل نصفهن جلسن على مقاعد قرب الباب. تجمهرت الأخريات أمامهن، جنباً إلى جنب. التبرج كثيف على وجوههن، حيث ارتدين كيمونوهات احتفالية طويلة الأكمام.

انتصبت وراءهن بضع شجيرات كرز كانت في أوج تفتحها. هزمتها الألوان القاهرة في كيمونوهات الفتيات، فبدت شاحبة ذابلة. كانت الشمس تلقي بضوئها على خضرة الأشجار الطويلة البعيدة.

«ماء يا أماه، ماء» رددت ساتوكو محملقة في الراقصات.

«لا ماء هنا. ستشربين حين نصل البيت».

فجأة أحس شينغو أيضاً بالحاجة إلى الماء.

ذات يوم في آذار، من قطار ياكوسوكا، لمح شينغو صبية في عمر ساتوكو تشرب من نافورة. ضحكت مندهشة حين فتحت الصنبور فتدفق الماء في الهواء. كان الوجه الضاحك بديعاً. عدّلت أمها الصنبور. كان شينغو

يراقبها تعبّ الماء وكأنه أصفى وأطيب ماء في العالم. فكّر آنذاك بأن الربيع قادم هذا العام أيضاً. استعاد المشهد هذه اللحظة.

تساءل عما في مشهد كتلة الفتيات الصغيرات المرتديات زي الرقص من شيء يدفعه وساتوكو لطلب الماء. أخذت ساتوكو تتذمر ثانية. «اشتري لي كيمونو يا أماه، أريد كيمونو».

نهضت فوساكو.

إحدى الفتيات التي تكبر ساتوكو بسنة أو سنتين كانت جذابة للغاية. كان حاجباها مرسومين بخطوط كثيفة قصيرة مقوسة، وكانت عيناها المستديرتان كالأجراس محاطتين باللون الأحمر.

حدقت ساتوكو في الفتاة فيما كانت فوساكو تقودها، وحالما شرعوا في الخروج من خلف الستارة تلكأت في مكانها.

«كيمونو» ـ عادت إلى الإلحاح. «أريد كيمونو».

«وعد الجدّ أن يشتري لك واحداً يوم عيد الثالثة والخامسة والسابعة[1]». قالت فوساكو ملمِّحة. «لم يسبق لها أن ارتدت الكيمونو. ليس سوى الأردية المصنوعة من كيمونو قطني قديم، من مخلفات الكيمونو».

ذهبوا إلى كشك شاي حيث طلب شينغو الماء. تجرعت ساتوكو كوبين كاملين.

غادروا أرياض بوذا العظيم، وكانوا في طريقهم إلى البيت حين مرّت فتاة بثياب الرقص تتأبط ذراع أمها، في طريقهما إلى البيت أيضاً. حَمْل ساتوكو على الأكتاف لا يقيدها. فكر شينغو. لكنه تأخر.

«كيمونو» قالت ساتوكو ممسكة بكمّ الفتاة.

«كلا!» جرّت الفتاة نفسها، ثم تعثرت بكمها الطويل فسقطت.

شهق شينغو وغطى وجهه بيديه.

كادت الفتاة الصغيرة تتعرّض للدهس. لم يسمع شينغو سوى شهقته، لكن عدداً من الناس صرخوا أيضاً.

---

(١) ١٥ تشرين الثاني. الأطفال من هذه الأعمار الثلاثة يتلقون الهدايا في الأضرحة.

صرّت عجلات الحافلة وهي تتوقف. هرع ثلاثة أو أربعة من العابرين المذعورين.

قفزت الفتاة. تعلّقت بتنورة أمها، بدأت تصرخ وكأنها لسعت بالنار.

«عظيم، عظيم» قال أحدهم. «الكوابح عملت. سيارة باهظة».

«لو كانت حطاماً معطوباً لما سلمت الفتاة منها».

فزعت ساتوكو. قفزت عيناها من محجريها كأنها أصيبت بقشعريرة عنيفة.

هل أصيبت الفتاة بأذى، هل تمزق كيمونها، سألت فوساكو معتذرة بحرارة من أم الصبية. كانت الأم تحدق في الفراغ بذهول.

لم يكن لدى شينغو سوى القليل مما ينبغي قوله في الطريق إلى البيت.

سمعوا الطفلة تنتحب.

خرجت كيكوكو لملاقاتهم، وهي تغني تهويدة للطفلة.

«إنني آسفة» قالت لفوساكو. «لا حيلة لي في ايقاف بكائها».

انخرطت ساتوكو في البكاء بدورها، ربما بتأثير من شقيقتها، ربما لانها استكانت الآن بعد وصولها آمنة إلى البيت.

حلت فوساكو الكيمونو وأخذت الطفلة من كيكوكو متجاهلة ساتوكو.

«هل لك أن تنتظري. إنني أتصبب عرقاً من كل جسدي».

ألقى شينغو نظرة على كتابة مؤطرة تعود إلى ريوكان[1]: «في السموات، الريح عاتية». اشتراها حين كان ريوكان ما يزال رخيص الثمن. لكنها كانت نسخة مزيفة على كل حال. أوضح صديق هذه الحقيقة، وكان جليّاً أنه على حق.

«ألقينا نظرة على حجر أكيكوكو» قال مخاطباً كيكوكو. «إنها مكتوبة بخط أكيكوكو ذاتها، وهي تقول ساكيموني».

«حقاً؟»

- ٤ -

بعد الغداء غادر شينغو بمفرده للقيام بجولة على محال الكيمونو الجديدة والمستعملة.

---

(١) شاعر ياباني: ١٧٥٧ - ١٨٣١.

لكنه لم يجد ما يناسب ساتوكو.
أثقلت المسألة ذهنه أكثر فأكثر.
أحس بدنو نذير مظلم.
هل تشتهي صبية بهذا السن كيمونو غيرها؟
هل كان حسد ساتوكو وجشعها أقوى مما هو معتاد فحسب؟ أم أنهما جارفان بصورة غير عادية؟ في كلتا الحالتين صعق الانفجار شينغو وأدهشه حجم الاثم فيه.
ماذا كان سيحدث لو دهست الفتاة التي ترتدي ثياب الرقص وماتت قتلاً؟ تجلّى كيمونو الفتاة أمام عينيه بطرازه البهي. لم يكن في واجهة المحال أي شيء جدير بالاحتفال.
لكن فكرة عودته صفر اليدين جعلت الشارع يسودّ أمام عينيه.
هل اكتفت ياسوكو حقاً بصنع الأردية لساتوكو من بقايا الكيمونوهات القطنية؟ أم أنها تكذب؟ كان السم يختفي طيّ ملاحظتها. ألم تعط ياسوكو الفتاة كيمونو قطنياً، أو كيمونو بمناسبة زيارتها الأولى للمعبد؟ لعل فوساكو طلبت ثياباً غريبة؟
«لقد نسيت» تمتم لنفسه.
نسي إن كانت ياسوكو قد شاورته في الأمر، ولكن لو أنهما، هو وياسوكو، أعارا انتباهاً أكثر لفوساكو لامتلكا حفيدة رائعة حتى لو كانت من نسل امرأة عاقة. لاحقته أحاسيس ذنب لا مهرب منه.
«لأني أعرف الحالة التي سبقت الولادة، لأني أعرف الحالة التي ستعقب الولادة، ليس لي أهل أحبهم. لأني لا أهل لي، لا طفلة عندي أحظى بالحب من خلالها».
استذكر شينغو مقطعاً من إحدى مسرحيات النو، لكن هذا وحده نادراً ما يجلب استنارة لحكيم متلفع بالسواد.
«بوذا السابق قد رحل. اللاحق لم يأت بعد. إنني مولود في الحلم. فما الذي سأعتبره حقيقياً؟ تلقيت هذا الجسد الإنساني بالمصادفة، إنه الأشد صعوبة على التلقي».

أكانت ساتوكو لحظة انقضاضها على فتاة الرقص قد ورثت العنف واللؤم من فوساكو؟ أم ورثتها من ايهارا؟ وإذا كانت فوساكو، فهل ورثتها الأخيرة من ياساكو أم من شينغو؟

لو تزوج شينغو شقيقة ياسوكو، لما كانت له على الأرجح ابنة مثل فوساكو أو حفيدة مثل ساتوكو.

ويصعب أن تكون هذه الحادثة مناسبة تبعث فيه كل هذا التوق الكثيف لمخلوقة ماتت منذ زمن بعيد لدرجة الرغبة في الاندفاع بين أحضانها.

كان في الثالثة والستين، والفتاة التي ماتت في العشرينات من عمرها أكبر منه.

حين قفل راجعاً إلى البيت، كانت فوساكو في فراشها والطفلة بين ذراعيها. كان الباب مفتوحاً بين غرفتها وغرفة الإفطار.

«إنها نائمة» قالت فوساكو. «كان قلبها يدق ويدق، وأعطتها فوساكو دواء منوماً. استسلمت للنوم من فورها.

أومأ شينغو. «هلا أغلقت الباب؟»

«نعم». نهضت كيكوكو.

ظلت ساتوكو ملتصقة بظهر فوساكو. لكن عينيها كانتا مفتوحتين. إنها تنفرد بطريقتها في التحديق بمن يواجهها، بصمت ووجوم.

لم يذكر شينغو شيئاً عن ذهابه لشراء كيمونو لها.

لاح أن فوساكو لم تخبر أمها بالأزمة التي نشبت عن رغبة ساتوكو في كيمونو.

مضى إلى غرفته. أحضرت كيكوكو الفحم.

«اجلسي»، قال لها.

«ثانية واحدة»، خرجت، ثم عادت تحمل ابريقاً على طبق. ليس المرء بحاجة إلى طبق محمل إبريقاً، لكن بعض الأزهار بدت قريبة من الابريق.

«ما هذه؟» تناول زهرة بيده. «لعلها الكيكيو؟»[1].

---

(١) وتسمى أحياناً زهرة الجريس.

«قيل لي إنها زنابق سوداء».
«زنابق سوداء؟»
«نعم. أعطتني إياها صديقة أتلقى معها دروساً في الشاي». فتحت باب الخوان وراء شينغو وأخرجت أصيصاً صغيراً.
«أهي زنابق سوداء؟»
«قالت إن مدير مدرسة اينشو أعدّ حفل شاي في كوخ متحف الشاي، بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة ريكيو. كان ثمة أصيص برونزي قديم ضيق العنق في فجوة الجدار يضم زنابق سوداء وياقوتيات بيضاء. مجموعة مثيرة كما قالت».
«أوه؟»
حدق شينغو في الزنابق السوداء. كان منها اثنتان تحمل كل منهما زهرتين.
«لا بد أن الثلج تساقط أكثر من ثلاث عشرة مرة هذا الربيع»
«لقد شهدنا الكثير من الثلج».
«قالت إن الثلج سقط بارتفاع ثلاث أو أربع بوصات في ذكرى وفاة ريكيو. بكّر الثلج كثيراً هذا الربيع، وبدت الزنابق البيضاء أشدّ مباغتةً. إنها أزهار جبلية كما تعرف».
«اللون قريب قليلاً من الكاميليا السوداء».
«نعم». صبت كيكوكو الماء في الأصيص. «وقالت أيضاً إن وصية ريكيو قد عرضت، كذلك الخنجر الذي استخدمه في الانتحار».
«أوه؟ هل تعطي صديقتك دروساً في الشاي؟»
«نعم. إنها أرملة حرب. بذلت جهودها، وها هي العائدات تثمر».
«أية مدرسة؟»
«كاتكيوان. أسرة موشاتكوجي».
لم يفهم شينغو شيئاً، فهو لا يعرف سوى القليل عن الشاي».
انتظرت كيكوكو، مستعدة لوضع الزهور في الأصيص، لكن شينغو كان يحمل واحدة بيده.

«يبدو أنها تنحني قليلاً. لا أظنها تذوي؟»
«كلا. لقد وضعتها في الماء».
«هل تنحني الكيكيو أيضاً؟»
«أرجو معذرتك، ماذا قلت؟»
«تبدو أصغر قليلاً من الكيكيو».
«أظن ذلك».
«تبدو سوداء للوهلة الأولى، لكنها ليست كذلك. إنها كالأرجواني القاتم، لكنها ليست ذاك أيضاً، ففيها لمسة قرمزية، لا بد لي من إلقاء نظرة فاحصة عليها نهار الغد».
«تبدو في ضوء الشمس بلون ارجواني شفاف مشوب بالاحمرار».
الأزهار كاملة التفتح، نادراً ما تكون بقطر بوصة واحدة. هناك ستة تويجات. تنقسم رؤوس المدقات إلى ثلاثة اتجاهات، وهناك أربع أو خمس سُدى. انتشرت الأوراق في الاتجاهات الأربعة وفق منصات متباعدة بمسافة بوصة واحدة. كانت أصغر من أوراق الزنبق، ليست أكثر من بوصتين في الطول.
شمّ شينغو الزهرة أخيراً.
«رائحة امرأة قذرة». كان اختيار الملاحظة سيئاً.
لم يكن يقصد الايحاء بمعنى الشهوة، إلا أن كيكوكو أطرقت وتوردت المنطقة المحيطة بعينيها قليلاً.
«رائحة مخيبة للآمال»، أصلح ملاحظته. «هيا، جرّبيها».
«أظن أنني لن أتحقق منها كما تفعل أنت أيها الأب». بدأت تضع الأزهار في الإناء. «تكفي أربع منها لاحتفال الشاي. ولكن هل أدعها كما هي؟»
«نعم، افعلي».
وضعت كيكوكو الإناء في فجوة الجدار.
«الأقنعة في الخوان الذي أخرجت منه الإناء هل تسمحين بإحضارها؟»
فكر بأقنعة النو حين استذكر مقطعاً من مسرحية نو.

تناول الجيدو. «هذا هو الجني. رمز للشباب الدائم. هل حدثتك عنه حين اشتريته؟»

«كلا».

«تانيزاكي، الفتاة التي كانت في المكتب. حين ابتعت القناع جعلتها ترتديه. كانت ساحرة. مفاجأة كبيرة».

وضعت كيكوكو القناع على وجهها. «هل تربطه من الخلف؟»

دون شك. . . عميقاً خلف عيني القناع، كانت عينا كيكوكو مثبتتين عليه.

«لن يظهر عليه أي تعبير، ما لم تحركيه».

يوم أحضر القناع إلى البيت أوشك شينغو على تقبيل شفتيه القرمزيتين. لقد أحس بومضة شبيهة بعشق السماء العسير، الصعب المراس.

«قد يضيع في الأغوار السحيقة، ولكن حين لا يزال زهرة القلب. . .»

بدت هذه بدورها كلمات من مسرحية نو.

لم يستطع شينغو التطلع إلى كيكوكو وهي تحرك القناع المتوهج الشاب، بهذه الطريقة أو تلك.

كان وجهها دقيقاً، يكاد طرف ذقنها يختفي خلف القناع. كانت الدموع تنثال من الذقن المختفي لتسيل على الحنجرة. كانت تسيل، تسحب خطين، ثم ثلاثة.

«كيكوكو» قال شينغو. «كيكوكو! هل تفكرين في إعطاء دروس حول اعداد الشاي في حال انفصالك عن شويشي؟ لهذا ذهبت لرؤية صديقتك؟» أومأت كيكوكو المتقنعة بالجيدو.

«أظن أنني أحب البقاء معك هنا واعطاء الدروس». كانت الكلمات متميزة حتى من وراء القناع.

ارتفع نحيب ثاقب من ساتوكو.

عوت تيرو بخشونة وحدّة من الحديقة.

أحس شينغو بنذير سوء في ذلك كله. بدت كيكوكو ترهف السمع لعلامة من البوابة تدل على أن شويشي، الذي مضى حتماً لزيارة المرأة حتى في يوم الأحد، قد عاد إلى البيت.

بيت الحدأة

في الصيف والشتاء يقرع الناقوس في السادسة، حدّث شينغو نفسه. يعرف أنه سرعان ما يستيقظ.

ولا يعني استيقاظه أن ينهض من السرير.

ليست الساعة السادسة صيفاً كما هي عليه في الشتاء. ولأن الناقوس يقرع في الوقت ذاته، فقد بات بوسعه القول إنها السادسة. لكن الشمس في الصيف تشرق بسرعة.

تحت وسادته ساعة جيب ضخمة، لكنه مضطر مع ذلك لإشعال الضوء ووضع نظارته، ولذا كان لا ينظر فيها إلا لماماً. كان بدون نظارة يجد صعوبة في تمييز عقرب الساعات من عقرب الدقائق.

لم تكن لديه مخاوف من كثرة النوم. العكس هو الأشد إثارة للاضطراب، إنه يستيقظ مبكراً.

السادسة من صباح شتائي وقت متأخر، لكن شينغو يذهب لإحضار الصحيفة لعجزه عن البقاء في السرير.

اعتادت كيكوكو النهوض باكراً للقيام بأعمال الصباح منذ انصرفت الخادمة.

«أنت مبكر أيها الأب»، كانت تقول له.

«سأنام بعض الوقت أيضاً»، كان يردّ محرجاً.

«نعم، أرجو أن تفعل. حتى الماء الساخن لم أفرغ من إعداده بعد».

وكان يشعر بالألفة مع استيقاظ كيكوكو.

في أي مرحلة من عمره بدأ يحس بالوحشة، بالاستيقاظ قبل يقظة شمس الشتاء؟

أصبح استيقاظه أكثر دفئاً بمجيء الربيع.

مرّ منتصف أيار وظل يسمع صراخ الحدأة بعد قرع الناقوس.

«إنها تعود ثانية إذن» تمتم لنفسه، مصغياً من فراشه.

بدأت الحدأة تحوم بصلف فوق السطح، ثم حلقت منطلقة صوب البحر.

نهض شينغو.

جال ببصره في السماء وهو يغسل أسنانه، لكن الحدأة اختفت عن الأبصار.

كأنها كانت صوتاً ندياً شاباً رحل وخلّف السماء جاثمة فوق سكينة السقف.

«كيكوكو، هل سمعت حدأتنا؟»

«كلا، لم أسمعها. إنه اهمال مني». كانت كيكوكو تنقل الأرز ساخناً يتصاعد منه البخار، من الوعاء إلى طاولة الطعام.

«إنها تبني منزلها عندنا. هل تعتقدين ذلك؟»

«نعم. أعتقد ذلك».

«سمعناها مراراً. السنة الماضية أيضاً. في أي شهر حدث ذلك؟ في مثا هذه الأيام؟ ليست ذاكرتي على ما يرام».

حلّت كيكوكو الشريط الذي يلف شعرها، وشينغو يتطلع إليها.

يبدو أنها تنام أحياناً، وشعرها ملفوف.

هرعت لتعدّ شاي شينغو، تاركة البرميل الخشبي مفتوحاً.

«إذا كانت حدأتنا هنا، فعصافير الدُّرسة لا بد أن تكون هنا أيضاً».

«نعم، وكذلك الغربان».

«الغربان؟» ضحك شينغو. «إذا قيل حدأتنا فيجب أن يقال غربانا

أيضاً، نحن نعتبره منزلاً للكائنات البشرية، لكن كل أنواع الطيور تعيش هنا بدورها».

«وسيجيء الذباب والبعوض قريباً».

«فكرة لطيفة. لكن الذباب والبعوض لا يعيش هنا، إنه لا يعيش حولاً كاملاً».

«لا أظن أن الذباب يفعل. نراه في الشتاء».

«ليست لدي فكرة عن عمر الذباب، لكني أشك في أن تكون ذبابات هذا العام هي نفسها ذبابات العام الفائت».

نظرت إليه كيكوكو وضحكت. «ذلك الثعبان سوف يخرج ذات يوم».

«هل أفزعك الأودايشو؟»[1]

«نعم».

«إنه سيد المكان».

في عودتها من التبضع، ذات نهار من الصيف الماضي، رأت كيكوكو الثعبان عند باب المطبخ، فدخلت البيت ترتجف فزعاً.

هرعت تيرو عند سماع صرخة كيكوكو وأخذت تنبح بجنون. كانت تيرو تخفض رأسها وكأنها تحاول عضّ الثعبان، تقفز إلى الوراء أربع خطوات، ثم تعود ثانية للهجوم. تكررت العملية مراراً.

رفع الثعبان رأسه ومدّ لساناً أحمر، ثم استدار وانزلق عائداً إلى عتبة المطبخ.

وتصفه كيكوكو فتقول إنه تمدد حتى أصبح بعرض الباب مرتين، أو بعرض يزيد على ياردتين؛ وكان أشدّ سماكة من معصمها.

استثيرت كيكوكو إلى حد بعيد، لكن ياسوكو ظلت هادئة. «إنه سيد المكان»، قالت: «يقيم هنا منذ سنين عديدة تسبق مجيئك بكثير».

«وماذا كان سيحدث لو عضته تيرو؟»

---

(١) ثعبان ضخم، غير مؤذٍ.

«ستضيع تيرو. كانت ستتورط في نزال لا قبل لها به. إنها تعرف ذلك، وهذا ما جعلها تكتفي بالنباح فقط».

ظلت كيكوكو ترتجف. أخذت تتجنب باب المطبخ لفترة من الزمن. وظلت تدخل وتخرج من الباب الأمامي.

أرّقها التفكير بوجود ذلك الوحش تحت الباب.

ولكن لعله كان يعيش في الجبل الخلفي ويهبط في فترات متباعدة.

لم تكن الأرض الواقعة خلف بيت شينغو ملكاً له، ولم يكن يعرف مالكها.

الجبل يجثم عبر منحدر شاهق فوق منزل شينغو، فلا ترى الحيوانات حاجزاً يرسم حدود حديقته، حيث تتساقط أوراق الأشجار وتهوي الأزهار من أعالي الجبل دون عائق.

«إنها تعود ثانية» تمتم لنفسه، ثم صاح مبتهجاً: «كيكوكو! يبدو أن الحدأة عادت».

«نعم. سمعتها هذه المرة». ألقت كيكوكو نظرة عجلى على السقف.

استمر صراخ الحدأة لبعض الوقت.

«لقد حلقت نحو البحر منذ دقائق خلت».

«هكذا يبدو».

«ذهبت تبحث عما تأكله، ثم عادت».

الآن وقد ذكرت كيكوكو هذا، فمن المحتمل جداً أن يكون ما تخيله صحيحاً.

«ربما وضعنا سمكة هناك بحيث تتمكن من رؤيتها».

«سوف تأكلها تيرو».

«في مكان أعلى».

حدث الشيء ذاته في العام الماضي والذي سبقه. أحس شينغو بدفقة تأثر حين سمع صيحة الحدأة عند استيقاظه.

لم يكن وحيداً كما يبدو. كان تعبير «حدأتنا» شائعاً في كل البيت.

لكنه ليس واثقاً ما إذا كانت حدأة واحدة أم اثنتين. خيل إليه، في عام

من الأعوام أنه رأى حدأتين ترقصان على السطح.

وهل هي الحدأة ذاتها التي يسمعون صيحاتها عاماً بعد عام؟ هل اتخذ جيل جديد مكانه بدل القديم؟ هل ماتت الحدأة والأم، وصغيرتها هي التي تحوم الآن بدلاً عنها؟ خطرت له هذه الفكرة صباح اليوم، للمرة الأولى.

بدت فكرة ملفتة للانتباه أن تكون الحدأة العجوز قد ماتت في العام الماضي، وأنهم سيصغون ـ في يقظة أم في منام؟ لا يدري ـ لحدأة جديدة هذه السنة فيخالونها حدأتهم.

بدا غريباً أيضاً أن تختار الحدأة العيش على الجبل الواقع خلف بيت شينغو، تاركة كل الجبال المحيطة بكاماكورا.

«ها قد لقيت ما هو عصي على اللقيا، ها قد سمعت ما هو عصي على السماع»[1]. لعله حال الحدأة.

إذا كانت الحدأة ستقطن معهم، فستتيح لهم الاستمتاع بصوتها.

- ٢ -

لأن شينغو وكيكوكو كانا أول المستيقظين، فقد صار بوسعهما تجاذب الأحاديث كما يشاءان في الصباح الباكر. وما كان بوسع شينغو محادثة شويشي على انفراد إلا حين يترافقان في قطار واحد بالمصادفة.

«نكاد نصل»، أخذ يحدث نفسه وهما يعبران جسر القطار نحو طوكيو حيث تصبح غيضة ايكيفاي على مرمى الأبصار. كان من عادته الإطلال برأسه من نافذة قطار الصباح ليتملى الغيضة.

لكنه، طيلة السنوات التي استقل فيها هذا القطار، لم يكتشف شجرتي الصنوبر في الغيضة إلا مؤخراً.

شمخت شجرتا الصنوبر عالياً فوق الغيضة. كانتا تحنوان على بعضهما البعض، كأنهما توشكان على العناق، الأغصان تتقارب كثيراً حتى تكاد تتعانق في أية لحظة.

(١) قول مأثور في مبادىء التقوى البوذية.

لأنهما شمختا هكذا، شجرتان طويلتان وحيدتان في الغيضة، فقد خطفا بصره على الفور. أما وقد لاحظهما الآن، فقد عرف أنهما كانتا شجرتي الصنوبر الوحيدتين اللتين رآهما قبل أي شيء.

إنهما متلفعتان بالريح والمطر هذا الصباح.

«ما خطب كيكوكو يا شويشي؟»

«لا شيء على وجه التحديد». كان شويشي يقرأ مجلة أسبوعية.

ابتاع اثنتين في محطة كاماكورا وناول واحدة لأبيه. ظلت مجلة شينغو دون قراءة.

«ما خطبها؟» كرر شينغو سؤاله بهدوء.

«إنها تشكو الصداع».

«أوه؟ تقول العجوز أنها كانت في طوكيو البارحة وأوت إلى فراشها فور عودتها ليلة أمس. إنها غير طبيعية. تعتقد العجوز أن أمراً ما قد حدث. لم تتناول عشاءها ليلة أمس، وحين عدت إلى البيت وذهبت إلى غرفتك، حوالي التاسعة سمعناها تنتحب. حاولت خنق بكائها، لكننا سمعناه».

«ستكون على ما يرام خلال أيام قليلة. لا أظن أن هناك ما يدعو للقلق».

«أوه؟ ما كانت لتبكي لو اقتصر الأمر على الصداع. ثم ألم تبكي ثانية في ساعة مبكرة من صباح اليوم».

«نعم».

«تقول فوساكو إنها حين دخلت للإفطار رفضت كيكوكو النظر إليها، استاءت فوساكو كثيراً. فكرت في سؤالك عما حلّ بها».

«يبدو أن كل العيون في الأسرة تتركز على كيكوكو»، حملق شويشي في أبيه. «وهي تمرض أحياناً، مثلها مثل غيرها».

«وما هو العلاج؟» سأل باستفزاز.

«إجهاض»، أطلق شويشي ردّه.

بهت شينغو، نظر إلى المقعد المواجه له، والذي شغله جنديان أمريكيان. بدأ الحديث مفترضاً إنهما لا يفهمان ما يقول.

خفض صوته. «هل ذهبت إلى طبيب؟»

«نعم».

«البارحة؟» كانت مجرد تمتمة جوفاء.

ألقى شويشي مجلته، «نعم».

«وعادت في اليوم ذاته؟»

«نعم».

«لقد دفعتها إلى ذلك».

«كانت تريده، ولم تكن تصغي لأي شيء أقوله».

«كيكوكو تريده؟ أنت تكذب».

«إنها الحقيقة».

«لماذا؟ ما الذي يدعوها لإحساس كهذا؟»

صمت شويشي.

«ألا تظن أنها غلطتك؟»

«أظن ذلك، لكنها قالت إنها لا تريده الآن، وهكذا كان».

«كان بوسعك إيقافها لو حاولت».

«لا أظن هذا الوقت مناسباً».

«ماذا تقصد بهذا الوقت؟»

«أنت تعرف ما أعنيه. لن تلد مني طفلاً وأنا في حالتي الراهنة».

«وأنت تصاحب المرأة الأخرى؟»

«أظن ذلك»

«تظن ذلك!» كان الحزن يطبق على صدر شينغو والحنق يشده. «كان نصف انتحار. ألا تعتقد ذلك؟ لم تكن تعيد نفسها إليك بقدر ما كانت تقتل نفسها».

تراجع شويشي أمام الهجوم. «لقد دمرت روحها فما عاد إصلاح العطب ممكناً».

«أما أنا فأقول أن روحها لا تزال قوية بما يكفي».

«أليست امرأة؟ زوجتك؟ لو فعلت شيئاً واحداً يعزيها لكانت سعيدة بولادة الطفـل، بمعزل عن المرأة الأخرى تماماً».

«لكنها ليست بمعزل عنها تماماً».

«كيكوكو تعرف كم ترغب ياسوكو في الأحفاد، لدرجة كبيرة تحس معها بالذنب لطول الأمد. لا تملك الطفل الذي تريـده، وهذا لأنـك وأدتها روحياً».

«هناك فارق صغير في واقع الأمر. لديها حساسيتها الشديدة الخاصة».

«حالات امتعاض في مواقف مناسبة».

«أوه؟» كان أمراً يخص الزوج والزوجة، تساءل إن كان شويشي قد دفع كيكوكو فعلياً إلى الإحساس بالمهانـة والإذلال. «لا أصدق. قـد تكون تحدثت وتصرفت كأنها تحمل ذلك الشعـور، لكني أشك في أنها كذلك حقاً. فالزوج الذي يغالي إلى هذا الحد في فهم حساسية زوجته المفرطة يثبت افتقاره إلى العاطفة. هل يظهر الزوج في نوبة تجهم جدية إلى هذا الحد؟» فقد شينغو حماسه إلى حد ما.

«أتساءل عما ستقوله ياسوكو لو سمعت بفقدان حفيد».

«أخالها ستشعر بارتياح. تعرف الآن أن كيكوكو يمكن أن تحمل».

«ما هذا؟ أتضمن أنها ستحمل فيما بعد؟»

«أنا مستعد لضمان ذلك».

«كل من يستطيع قول هـذا لا يخشى السماء ويضـل درب العاطفـة الإنسانية».

«طريقة صعبة في التعبير. أليست مسألة بسيطة بما يكفي؟»

«ليست بسيطة على الإطلاق. فكِّرْ فيها لحظة واحدة. فكر في طريقة بكائها».

«ليس الأمر أنني شخصياً لا أحب الأولاد، لكني أرتاب في أن يصبح طفلاً خائفاً وسط ما بيننا الآن من أشياء».

«لست أدري ما تعانيه أنت، لكني أعرف أن كيكوكو لا غبار عليها، أنت وحدك صاحب الأخطاء. إنها ليست مثلك، أنت لا تفعل شيئاً لتساعدها

في التخلص من غيرتها. لهذا فقدت الطفل، وأكثر من الطفل ربما».

كان شويشي يحملق فيه بدهشة. «أظنك ستحاول الإفراط في شرب الخمر مع تلك المرأة وتقفل راجعاً إلى البيت بحذاءيك القذرين لتضعهما على ركبتي كيكوكو وتجبرها على خلعهما عن قدميك».

- ٣ -

ذهب شينغو ذات صباح إلى المصرف في مهمة عمل، وتناول طعام الغداء مع صديق يعمل هناك. تحادثا حتى الثانية والنصف. بعد الاتصال بالمكتب من المطعم قفل راجعاً إلى البيت.

كانت كيكوكو جالسة على الشرفة وكونيكو في حجرها.

نهضت متعجلة، وقد فاجأتها عودته المبكرة.

«كلا، أرجوك». خرج إلى الشرفة. «أليس مفروضاً بك أن تلزمي الفراش؟».

«كنت أزمع تغيير ردائها».

«فوساكو؟»

«ذهبت إلى مكتب البريد برفقة ساتوكو».

«ما الذي تبغيه من الذهاب إلى مكتب البريد؟ وتترك طفلتها وراءها».

«انتظري لحظة واحدة» خاطبت كيكوكو الطفلة. «سأحضر كيمونو الجد أولاً».

«كلا، أرجوك. غيري ثيابها أولاً».

تطلعت كيكوكو إليه مبتسمة. بانَ سنّها الصغير من بين شفتيها.

«يقول إن عليّ تغيير ثيابك أولاً». كانت ترتدي ثوب العمل المنزلي وقد ربطت الكيمونو الحريري، الأزرق بالأوبي.

«هل توقف المطر في طوكيو؟»

«المطر؟ كانت تمطر حين صعدت إلى القطار. لكن السماء نضبت حين غادرته لم ألاحظ مكان انقطاعه».

«ظل المطر ينهمر ولم يتوقف إلا قبل دقائق معدودات. خرجت فوساكو حين توقف».

«لا تزال النداوة تغطي التلال هناك».

كانت الطفلة مستلقية في الشرفة ووجهها إلى الأعلى، رفعت قدميها العاريتين وتناولت أصابع رجلها بيديها. تحركت القدمان بحرية أكثر من اليدين.

«نعم، انظر إلى الجبل» قالت كيكوكو، وهي تجفف ظهر الطفلة.

حلّقت طائرتـان عسكريتـان أمريكيتـان على ارتفـاع منخفض. أفزع الضجيج الطفلة فتطلعت إلى الجبل. لم يشاهد الطائرتين، لكن ظلالهما الضخمة عبرت المنحدر، لعل الطفلة رأتها.

تأثر شينغو ببريق المفاجأة الذي ارتسم في العينين البريئتين.

«إنها لا تعرف شيئاً عن الغارات الجوية. هناك الكثـير من الأطفال الذين يجهلون الحرب».

خفض بصره صوب الطفلة. تلاشى البريق الآن. «أتمنى لو التقطت صورة لعينيها قبل قليل، حين ارتسم ظل الطائرتين عليها، والصـورة الثانية...»

لطفل ميت قصفته طائرة، كاد أن يقول ذلك. لكنه أحجم، فتذكر أن كيكوكو قامت بعملية إجهاض أمس.

هناك في الحقيقة أطفال لا حصر لهم يشبهون كونيكـو كما رآهـا في الصورتين.

مضت كيكوكو إلى الحمام تحمل كونيكو بين ذراعيها، وتحمـل رداء ملفوفاً في إحدى يديها.

عاد شينغو مبكراً إلى البيت بدافع اهتمامه بكيكوكو. مضى إلى غرفة الإفطار.

«ما الذي جاء بك مبكراً هكذا؟» سألته ياسوكو لاحقة به.

«وأين كنت؟».

«كنت أغسل شعري، توقف المطر وسطعت الشمس، وشعرت بحكة

في رأسي. رأس امرأة عجوز يبدو وكأنه يحكّ دونما سبب على الإطلاق».
«رأسي لا يحكني».
«لعل السبب عائد إلى أنه رأس طيب» قالت ضاحكة. «علمت بعودتك. لكني فكرت أنني سأتعرض لتوبيخك لو جئت بشعري المنكوش».
«شعر المرأة العجوز غير مسرّح ـ لماذا لا تقصينه وتصنعين منه مقشة شاي؟»
«ليست فكرة سيئة. للرجال مقشاتهم أيضاً. لقد جرت العادة، كما تعرف، أن يقص الرجال والنساء شعورهم ويقلبونها مثل مقشة الشاي. تراهم في كابوكي».
«لا أقصد الشعر المربوط، بل الشعر المقصوص».
«لا أمانع. كلانا لدينا شعر غزير».
«هل تجولت كيكوكو؟» سأل بصوت خافت.
«كانت تحاول. لا تبدو على ما يرام».
«لا ينبغي أن تعنى هي بالطفلة».
«أعتني بها لحظة واحدة من فضلك» قالت فوساكو وألقت بالطفلة على سرير كونيكو. كانت الطفلة تغط في نوم عميق.
«لماذا لم تأخذيها أنت؟»
«كنت أغسل شعري حين انخرطت في البكاء». مضت ياسوكو لتحضر له الكيمونو.
«أتساءل إن كان قد أصابك شيء أنت أيضاً. إنك تعود مبكراً للغاية».
صاح شينغو منادياً كيكوكو، التي كانت تنتقل من الحمام إلى غرفتها.
«نعم؟».
«أحضري كونيكو إلى هنا».
«سنعود خلال دقائق».
أخذت كونيكو تسير على أطراف أصابعها، ويدها في يد كيكوكو. ارتدت كيكوكو رداء رسمياً إضافياً.

تعلقت كونيكو بكتف ياسوكو، التي وضعتها على ركبتها، وهي تنفض الغبار عن سراويل شينغو.

مضت كيكوكو حاملة ثياب شينغو.

بعد أن وضعتها في الغرفة الثانية أغلقت أبواب خزانة المكتب ببطء.

بدت مشدودة إلى وجهها المنعكس على مرآة الخزانة، وترددت بين الذهاب إلى غرفتها والعودة إلى غرفة الإفطار.

«أليس الأفضل لك أن تأوي إلى الفراش؟» قال شينغو.

«نعم»، عبرت رعشة كتفي ياسوكو. انسحبت إلى غرفتها دون التفات إلى الوراء.

«ألا تبدو غريبة في رأيك؟» قطبت ياسوكو حاجبيها.

لم يجب شينغو.

«وليست المسألة واضحة كل الوضوح. تستيقظ مبكرة، تتجول هنا وهناك، ثم تبدأ في الإنهيار من جديد. إنني قلقة للغاية».

«وأنا كذلك».

«لا بد أن تفعل شيئاً في قضية شويشي وعلاقته تلك».

أومأ شينغو.

«لعلك تتحدث مطولاً مع كيكوكو. سأخرج بالطفلة إلى فوساكو وأفعل شيئاً خلال قيامي بشراء حاجيات العشاء. فوساكو تلك، إنها نوع مختلف».

نهضت ياسوكو والطفلة بين ذراعيها.

«ما الذي يجعلها تذهب إلى مكتب البريد».

التفتت ياسوكو إليه. «أتساءل أنا أيضاً. هل تظن أنها كتبت لإيهارا؟ لقد انفصلا طيلة ستة شهور. تكاد تمر ستة شهور على عودتها. كان ذلك عشية رأس السنة الجديدة».

«لو اقتصر الأمر على الرسالة وحدها لكان بوسعها الاكتفاء بوضعها في صندوق بريد الشارع».

«أظن أنها تعتبر إرسالها من مكتب البريد أسرع وأسلم، لعل التفكير

بإيهارا يراودها على الدوام فلا يسمح لها بدقيقة هدوء واحدة».

ابتسم شينغو بإشفاق. أحس برائحة التفاؤل في كلام ياسوكو.

يبدو أن التفاؤل يضرب جذوره عميقاً في امرأة تولت إدارة بيت ورعاية أسرة وهي في شيخوختها.

تناول ركام الصحف، جماع أيام أربعة أو خمسة، التي كانت ياسوكو تطالعها. ورغم أنه لم يكن مهتماً بها حقاً، فقد وقع بصره على عنوان مثير: «العثور على براعم لوتس عمرها ألفا سنة».

في الربيع الماضي، خلال حفريات يابولي بمقاطعة كيميفاوا في شيبا، عثر على بذور ثلاث زهرات لوتس داخل زورق صغير دفين. دكتورٌ ما مختص بزهرر اللوتس نجح في استنباتها في نيسان من هذا العام. زرعت شتلاتها في ثلاثة أمكنة: محطة التجارب الزراعية في شيبا، بحيرة حديقة شيبا، ومنزل شراب الساكي في هاتاكي ويشاي في شيبا أيضاً. كان المخمّر كما يبدو أحد المشرفين على الحفريات. وضع شتلته في دورق ماء وأفسح لها مكاناً في الحديقة، فكانت أول شتلة تزهر. «لقد أزهرت، لقد أزهرت!» هتف مداعباً الزهرة البديعة الأنيقة. إنها ستنتقل من «طور الإناء» إلى «طور الكأس» إلى «طور الوعاء» كما ذكرت الصحيفة، ثم تدخل أخيراً في «طور الصينية» حيث تطرح تويجاتها. إنها أربعة وعشرين تويجاً كما قيل فيما بعد.

في ذلك المقال نشرت صورة للدكتور الأشيب ذي النظارة، يحمل زهرة لوتس متفتحة بين يديه. ألقى شينغو نظرة خاطفة على الصحيفة، ولاحظ أنه في التاسعة والستين من عمره.

أمعن شينغو النظر لبعض الوقت في صورة اللوتس، ثم أخذ الصحيفة إلى غرفة كيكوكو.

كانت الغرفة مخصصة لها ولشويشي. على الطاولة، التي كانت جزءاً من بائنتها، جثمت قبعة لباد لشويشي. هناك بعض القرطاسية بقربها، ولعلها فكرت بالكتابة لإحداهن. تدلت قطعة تطريز من الدرج.

خيل إليه أنه يلتقط رائحة المطر.

«كيف حالك؟ لا ينبغي لك القفز من السرير طوال الوقت». جلس قرب الطاولة.

تأملته بعينين مفتوحتين. بدت محرجة لأنه أمرها بملازمة الفراش. تورد خداها قليلاً، لكن جبهتها ظلت شاحبة وبرز حاجباها بجلاء.

«هل قرأت في الصحيفة كيف أزهرت زهرة لوتس عمرها ألفا عام؟»

«أوه، حقاً» تمتم. «لو أنك أخبرتنا.. ليس مفروضاً بك احتمال كل هذا العناء بمفردك، كان عليك ألا تعودي في اليوم ذاته».

حملقت كيكوكو بدهشة.

«حدث الأمر في الشهر الماضي، أليس كذلك؟ تحدثنا عن طفل؟ أظن أنك تعرفين الآن» هزت كيكوكو رأسها. «كلا. لو كنت أعرف لتملكني حرج كبير من قول أي شيء».

«أوه؟» قال شويشي «أنه حساسية مفرطة». أسقط الموضوع من حسابه حين لمح الدموع في مآقيها. «يتوجب عليك زيارة الطبيب ثانية».

«سأمر عليه غداً».

حين عاد من العمل في اليوم التالي كانت ياسوكو تنتظره وقد نفد صبرها.

«عادت كيكوكو إلى أسرتها. يقولون إنها طريحة الفراش. وردت مكالمة هاتفية من ساغاراي في حوالي الثانية. تلقتها فوساكو. قالوا إن كيكوكو مرّت بهم ولم تكن على ما يرام فرقدت في الفراش، ويتساءلون هل يدعونها تمكث عندهم لترتاح يومين أو أو ثلاثة».

«أوه؟»

«طلبت من فوساكو إعلامهم بأننا سنرسل شويشي غداً. تقول فوساكو إن أم كيكوكو هي التي تكلمت. هل تعتقد أن كيكوكو ذهبت إلى طوكيو لهذه الغاية خصيصاً؟»

«كلا».

«ما الذي أصابها إذن؟»

خلع شينغو معطفه وأخذ يحل ربطة عنقه، رافعاً ذقنه.

«لقد اجهضت».

«ماذا؟» جمدت ياسوكو في مكانها. «دون علمنا؟ هل تفعل كيكوكو ذلك؟ لم أعد أفهم الناس هذه الأيام».

«أنت شديدة الإهمال أيتها الأم» قالت فوساكو وهي تدخل غرفة الإفطار وكونيكو بين ذراعيها. «عرفت كل شيء».

«وكيف عرفت؟» جاء السؤال تلقائياً.

«هذا ما لا أستطيع الإفصاح عنه، لكن الأمور ستنجلي فيما بعد، كما تعرفين».

لم يعد شينغو يفكر بإضافة شيء آخر.

بستان في العاصمة

«الوالد شخص طريف للغاية، أليس كذلك يا أماه؟» سألت فوساكو مثيرة الضجيج وهي تعيد ترتيب صحون المائدة على طبق كبير. «إنه مع ابنته أكثر تحفظاً مما هو عليه مع الفتاة الغريبة القادمة من خارج الأسرة».

«أرجوك يا فوساكو».

«ولكنها الحقيقة، إذا كان هذا السبانج قد تفسخ فلماذا لا يأتي ويقول الحقيقة؟ ليس صحيحاً أنني طبخت بلبابه. يظل بوسعك رؤية شكل السبانخ لعله يريد طبخه في نبع حار».

«نبع حار؟»

«ألا يطبخون البيض والزلابية في الينابيع الحارة؟ أذكر أنك أعطيتني ذات مرة شيئاً يدعى بيضة الراديوم، من هنا أو هناك، حيث البياض صلب والصّفار رقيق. ألم تقولي آنذاك أنهم يسلقون بيضة شهية في دار الهرس في كيوتو؟».

«دار الهرس؟»

«أوه، دار اليقطين. المتسولون يعرفونه جيداً. أقول فقط أنك قادرة على هرس أفكارك الخاصة بالطبخ الجيد والسّيّء، مع كل الفارق الذي يتشكل لديّ».

ضحكت ياسوكو.

لكن فوساكو تابعت كلامها دون ابتسام: «لو أخذها إلى نبع راديوم وراقب الزمن ودرجة الحرارة بأناة كبيرة كبيرة، لأصبح معافى مثل باباي حتى يغير اعتناء كيكوكو به. أما أنا فقد شبعت من هذه المسائل المقبضة».

دفعت نفسها من الركبتين، ومضت حاملة الطبق الثقيل. «مذاق العشاء مختلف بغياب الابن الوسيم والكنة الجميلة».

رفع شينغو بصره. التقت عيناه بعيني ياسوكو. «إنها تثرثر».

«نعم. كانت تحبس الدموع والكلام بسبب كيكوكو».

«ليس بوسع المرء منع الأطفال عن البكاء» تمتم شينغو.

فتح فمه قليلاً، كأنه يريد قول شيء ما، لكن فوساكو المتعثرة في مشيتها نحو المطبخ، سبقته فقالت: «ليس الأطفال، بل أنا. الأطفال يبكون بالطبع».

تحاملت ياسوكو على نفسها للوقوف. سمعا نشيجاً في المطبخ.

قلّبت ساتوكو بصرها في ياسوكو، ثم هرعت إلى المطبخ مقتفية أثر أمها.

تعبير في منتهى الإزعاج، فكر شينغو.

وضعت ياسوكو كونيكو على ركبتي شينغو. «اعتن بها برهة قصيرة» قالت، ثم تبعتهما إلى المطبخ.

كانت الطفلة خفيفة ناعمة بين ذراعيه. أدناها قريباً منه. تناول قدمها بيده. تجويف الكاحل وتورم القدمين كانا في يده أيضاً.

«هل يدغدغك؟» لكن كونيكو لم تتلق الأمر هكذا كما يبدو.

خيل لشينغو أن فوساكو، حين كانت تحمل على الذراعين، كانت تستلقي عارية عند تغيير ثيابها، وكان يدغدغ إبطيها فيتجعد أنفها وتلوح له بذراعيها، لكنه لم يعد يتذكر تماماً.

نادراً ما أشار شينغو إلى أنها كانت طفلة أليفة، فالحديث عن هذه المسألة يستدرج صورة شقيقة ياسوكو الجميلة.

لم يتحقق حلمه في أن تبدل وجهها مرات عديدة، ولقد جنى الأمل ذاته مع السنين.

بدت حفيدته ساتوكو أثيرة لديه أكثر من أمها، فالأمل ينتظر الطفلتين.

هل كان يفتش عن صورة شقيقة ياسوكو حتى في حفيدته؟ دفعته الفكرة إلى إحساس بكراهية الذات.

ظل تائهاً في الوهم حتى خلال لحظات بغضه لنفسه؛ أما كانت الطفلة

التي تخلصت منها كيكوكـو، حفيدته الضائعـة، ستصبح شقيقة كونيكو في ولادة يسيرة؟ أليست كائناً جميلاً ضنوا عليه بالحياة في عالم كهذا؟ تزايد ضيقه بنفسه.

حين أرخى قبضته عن قدمها، تسلقت كونيكو ركبتـه وهبطت منهـا متجهة صوب المطبخ. كان ذراعاها مطويين أمامها، ورجلاها غير ثابتتين.

«سوف تسقطين»، لكن الطفلة كانت قد سقطت.

سقطت على وجهها ثم انقلبت جانباً، ولبثت ساكتة لبعض الوقت.

عاد الأربعة إلى غرفة الإفطـار، ساتوكو متعلقة بأكمام فوساكو وسايوكو تحمل كونيكو بين ذراعيها.

«الوالد ساهم الذهن كثيراً هذه الأيام يا أماه» قالت فوساكو وهي تجفف الطاولة. «بدا في حالة غريبة حين كان يقوم بتبديل ثيابه هذا الصباح. أوشك على ارتداء الأوبي بينما الكيمونو والجوباني[1] مقلوبين يساراً ويميناً. هل تتخيلين؟ لا أظنه فعلها من قبل. لعله بدأ يخرّف».

«لقد فعلتها أنا ذات مرة. قلبت الجانب الأيمن على الأيسـر. تقول كيكوكو أنهم في أوكيناوا لا يكترثون للجانب الذي سينطبق على الآخر».

«في أوكيناوا؟ أتساءل إن كان هذا صحيحاً».

عبست فوساكو من جديد. «تعرف كيكوكو كيف تسعدكم. فكرة ذكية حقاً. في أوكيناوا؟».

كبح شينغو غضبه. «كلمة جوبان مستمدة من البرتغالية. لا أدري هل يضعون الجانب الأيسر أم الأيمن في الجهة العليا هناك في البرتغال».

«معلومات أخرى من تقديم كيكوكو؟»

حاولت ياسوكو التدخل فقالت: «اعتاد الأب ارتداء الكيمونو الصيفي مقلوباً».

«هناك فارق بين ارتداء الكيمونو مقلوباً بطريق الصدفة وبين الوقوف هناك كالمشدوه ووضع الجانب الأيمن على الأيسر».

---

(١) قميص داخلي يرتدى تحت الكيمونو.

«دعي كونيكو تحاول ارتداء الكيمونو. لن تكوني واثقة من الجانب الذي ستبرزه».

«الوقت مبكر على طفولة ثانية يا أبي» قالت فوساكو دون مهادنة. «ألم يطفح الكيل قليلاً يا أماه؟ ذهاب كنته إلى أهلها يوماً أو يومين ليس عذراً يبيح له فقدان الطريق إلى طرف الكيمونو الذي يجب وضعه من الأمام، ألم تمض ستة شهور على مجيء ابنته نفسها يا أماه؟»

كانت على حق. مرت ستة شهور على عشية رأس السنة الماطرة. لم تتلق كلمة واحدة من زوجها إيهارا، ولم يحاول شينغو مقابلته.

«ستة شهور» أومأت ياسوكو. «ولكن لا علاقة لكيكوكو بهذا الأمر».

«لا علاقة؟ أظن أن للأمرين علاقة بالأب».

«أنت طفلته، سيكون لطيفاً منه أن يشارك بردّ ما».

أطرقت فوساكو صامتة.

«حسناً يا فوساكو. ها قد حانت فرصتك. اكشفي النقاب عن كل ما تريدين، قولي ما تشائين. سوف تشعرين بتحسن. كيكوكو ليست هنا».

«كنت مخطئة، ولست أنوي التشكي. لكني أعتبر أن بمقدورك تناول الطعام حتى لو لم تلمسه يد كيكوكو». أجهشت فوساكو بالبكاء ثانية. «أليست هذه هي الحقيقة؟ تجلس هناك مقطباً وتجبرني على قول ما أقول. لست سعيدة أنا أيضاً».

«فوساكو. لا بد أن لديك الكثير مما تودين قوله. حين ذهبت إلى مكتب البريد ذلك اليوم تخيلت أنك قصدت وضع رسالة ما لإيهارا».

خيل إليه أن رجفة عبرت وجه فوساكو، لكنها هزت رأسها.

«لقد قررت أنه إيهارا، لأني لم أجد شخصاً غيره تملكين سبباً واحداً يجعلك تكتبين له». لم يكن صوت ياسوكو حاداً إلى هذه الدرجة. «هل أرسلت نقوداً؟»

فوساكو إذن كانت تمنح إيهارا نقوداً.

«أين إيهارا؟» تطلع شينغو في وجه فوساكو منتظراً إجابتها. «لا يبدو مقيماً في البيت. لقد كنت أرسل شخصاً من المكتب كل شهر تقريباً ليلقي

نظرة على المكان. كلا، ليس إلى هذا الحد حقاً، بل ليعطي بعض النقود لأمّه. لو أنك هناك لكنت أنت من تعتني بها ربما».

جلست ياسوكو فاغرة الفم. «هل ترسل أحداً من المكتب؟»

«لا تقلقي. إنه شخص يعتمد عليه. شخص لا يفضي بالأسرار ولا يطرح الأسئلة. لو كان إيهارا هناك لذهبت وحدثته في المشكلة. ولكن لا فائدة من محادثة امرأة عجوز مُقْعَدة».

«ماذا يفعل إيهارا؟»

«يوزع العقاقير وأشياء من هذا القبيل، كما يبدو. أظنه استخدم لتوزيع المخدر، فانتقل من الخمور إلى العقاقير».

تطلعت ياسوكو إليه بفزع. بدا فزعها من قضية إيهارا يقل عن فزعها من زوجها ذاته، الذي أخفى السرّ كل هذا الزمن.

تابع شينغو كلامه. «ولكن يبدو الآن ان العجوز أيضاً لم تعد هناك. في الدار شخص آخر. وبهذا المعنى لم يعد لفوساكو أي بيت».

«وماذا عن أشياء فوساكو؟»

«خزانتي وصندوقي فارغان منذ زمن بعيد يا أماه».

«حسناً»، تنهدت ياسوكو. «أنت هدف سهل أمامه وقد جئت إلى البيت حاملة كل ما يمكن حزمه في منديل».

تساءل شينغو إن كانت فوساكو تعرف مستقر إيهارا، وهل هي على اتصال به؟

وإذ مد بصره إلى الحديقة التي يلفها الغسق، تساءل عمن كان عاجزاً عن تجنيب إيهارا سقطته، فوساكو أم شينغو أم إيهارا ذاته.

وربما لا أحد على الإطلاق.

- ٢ -

بلغ شينغو المكتب في حوالي العاشرة ليجد قصاصة من تانيزاكي إيكو. أرادت محادثته في أمر العشيقة الصغيرة، وستعود فيما بعد.

لا يمكن أن تكون العشيقة الصغيرة سوى كيكوكو.

استفسر شينغو من ايرامورا ناتسوكو، التي حلت محل ايكو سكرتيرة له.
«متى جاءت تانيزاكي؟»
«كنت قد جئت لتوي، وكنت أمسح المكاتب، أظنها جاءت بعد الثامنة بقليل».
«وهل انتظرت؟»
«نعم، بعض الوقت».
كان شينغو يكره الطريقة البليدة الثقيلة التي تلفظ بها ناتسوكو كلمة «نعم». لعل الأمر عائد إلى لهجتها المحلية.
«هل قابلت شويشي؟»
«أظنها ذهبت دون رؤيته».
«أوه؟» أخذ شينغو يكلم نفسه. «جاءت بعد الثامنة بقليل...»
لعل ايكو مرت به في طريقها إلى العمل، لعلها ستعود عند الظهيرة.
بعد قراءة الملاحظة الصغيرة، المدونة على هامش ورقة كبيرة، أطلّ بنظره من النافذة.
نظر إلى السماء الصاخبة في يوم أكثر تمثيلاً لشهر أيار من الأيام الأخرى. لقد شاهدها من القطار. كان المسافرون بأجمعهم قد فتحوا نوافذهم.
الطيور المحلقة على ارتفاع منخفض فوق الجدول اللامع الذي رسم حدود طوكيو عكست لون الفضة بدورها. لم تكن المصادفة وحدها وراء عبور الباص ذي الخط الأحمر للجسر في طريقه إلى الشمال.
«في السماء، الريح عاتية»، وجد نفسه دون سبب محدد يكرر الشعار المحفور على نموذج ريوكان المقلّد الذي يملكه.
«حسناً!». أصبحت غيضة ايكيفالي على مرمى البصر، وانحنى إلى الأمام كأنه ينوي القفز إلى الخارج. «لعل أشجار الصنوبر غير موجودة في غيضة ايكيفالي على الإطلاق».
هذا الصباح بدت الصنوبرتان الشامختان فوق الغيضة أكثر دنواً.
هل زاغ منظر المشهد وسط الأمطار وضباب الربيع؟

حدّق بإمعان، محاولاً التأكد من شعوره.

هذا ما يفعله كل صباح، وظن أنه سيكون راغباً في الذهاب وتفقد الموقع ذاته.

ولكن رغم رؤيته للغيضة كل صباح، فهو لم يكتشف الصنوبرتين إلا مؤخراً فقط. كان ينظر إلى الغيضة بشرود الستين عاماً، مدركاً أنها كانت غيضة معبد ايكيفالي.

اليوم، تحت سماء أيار الصافية، اكتشف أن الصنوبرتين لا يلوح عليهما أنهما كانتا في غيضة ايكيفالي على الإطلاق.

وهكذا، تكرر ثانية اكتشافه للصنوبرتين اللتين تحنوان على بعضهما وكأنهما على وشك العناق.

بعد عشاء الليلة الماضية، حين أعلن أنه يتفقد منزل ايهارا ويقدم مساعدة متواضعة لأمه العجوز، التزمت فوساكو الثائرة جانب الصمت.

شعر بالأسف عليها. أحس أنه اكتشف فيها شيئاً ما، لكن ما اكتشفه لم يكن واضحاً كاكتشافه للصنوبرتين في غيضة ايكيفالي.

قبل بضعة أيام، خلال استعراضه للغيضة ذاتها، استجوب شويشي وحصل منه على خبر إجهاض كيكوكو.

لم تعد الصنوبرتان مجرد صنوبرتين. لقد التحمتا بالإجهاض، لسوف يتذكره على الدوام كلما مرّ بهما في مجيئه وذهابه إلى العمل.

حدث الأمر ذاته هذا الصباح بالطبع.

صبيحة اعتراف شويشي ذابت الصنوبرتان في الغيضة، غرقتا في عتمة من مطر وريح، بدتا هذا الصباح متسختين قليلاً، وها هو يقف وحيداً والصنوبرتان ترتبطان في ذهنه بإجهاض كيكوكو. لعل الطقس كان مفرطاً في تحسنه.

«الطقس الإنساني رديء حتى حين يتحسن الطقس الطبيعي»، تمتم لنفسه، بما يشبه الدعة. تنحى عن السماء المحتبسة في نافذة المكتب، وباشر عمله اليومي.

بعد الظهيرة بقليل وردت مكالمة من إيكو. قالت إنها قد لا تتمكن من المجيء اليوم لانشغالها بالثياب الصيفية.

«هل أصبحت ماهرة في العمل حتى يشغلك هكذا؟»

«نعم». لزمت إيكو الصمت.

«هل أنت في متجر؟»

«نعم. لكن كينو ليست هنا». لفظت اسم صاحبة شويشي بسلاسة وسهولة. «انتظرتها حتى غادرت».

«أوه؟»

«نعم؟ سأمر صباح الغد».

«صباح الغد؟ في الثامنة أيضاً؟»

«كلا. سوف أنتظرك».

«هل الأمر ملحّ إلى هذا الحد؟»

«نعم. حسناً، إنه ملحّ وغير ملحّ. أراه ملحّاً. أريد محادثتك بأسرع وقت ممكن. إنني مشغولة البال كثيراً».

«مشغولة البال؟ حول شويشي؟»

«سأخبرك حين أراك».

لم يعلق أهمية كبيرة على «انشغال بالها»، لكن رغبتها الجارفة في رؤيته لدرجة المجيء يومين متتاليين أقلقته.

تزايد القلق. في الثالثة اتصل بمنزل كيكوكو.

أجابت خادمة الساغاوا. صدحت الموسيقى من خلال الهاتف وأثناء انتظار كيكوكو.

امتنع عن مفاتحة شويشي بأمور كيكوكو منذ مغادرتها البيت إلى أهلها. بدا شويشي متلهفاً على تجنب الموضوع.

أما شينغو فتفادى الذهاب للاستفسار عن كيكوكو، إذ لا تضيف زيارته سوى المزيد من التشديد على المسألة.

خيل لشينغو أن كيكوكو، وهي ما هي عليه، لن تفصح لأسرتها عن أمر كينو أو أمر الإجهاض. لكنه لم يكن متأكداً.

طمس صوت كيكوكو السيمفونية التي كانت تتعالى عبر الهاتف. «أبتاه!» كان الحنان ينبعث من صوتها. «لقد جعلتك تنتظر».

«مرحباً». اجتاحته موجة ارتياح. «وكيف حالك؟»

«أوه، إنني بخير من جديد. أنا أدلّل نفسي».

«كلا، إطلاقاً». وجد صعوبة في مواصلة الكلام.

«أبي» قالت كيكوكو بسعادة، «أريد رؤيتك. هل أجيء الآن؟»

«الآن؟ هل أنت بخير؟»

«نعم. كلما أسرعت في رؤيتك كلما سهلت علي العودة إلى البيت».

«سوف أنتظرك هنا». صدحت الموسيقى.

«نعم، نعم». لم يكن شينغو يريدها أن تقفل الخط. «إنها موسيقى جميلة».

«نسيت إيقافها أليس كذلك؟ إنها موسيقى باليه Les Sylphides لشوبان، سأسرقها منهم وأحضرها معي إلى البيت».

«هل ستأتين فوراً؟»

«نعم. ولكن دعني أفكر دقيقة واحدة. لا أريد الذهاب إلى المكتب في الحقيقة».

اقترحت أن يلتقيا في حديقة شينجوكو.

ضحك شينغو، مرتبكاً بعض الشيء لهذا الموعد الذي ضرب له.

بدت كيكوكو أقرب إلى التفكير بأنها طرحت فكرة صائبة رفيعة.

«الخضرة سترد إليك الحياة».

«حديقة شينجوكو؟ زرتها مرة واحدة فقط. لسبب أو آخر زرت معرض كلاب هناك».

«تعال ودعني أريك نفسي بدلاً منها». وبعد ضحكتها صدحت موسيقى شوبان.

- ٣ -

دلف من المدخل الرئيسي لحديقة شينجوكو.

كانت إحدى اللوحات قرب المدخل تعلن عن توفر عربات الأطفال

مقابل عشرة ينّات في الساعة، وحصائر قش مقابل عشرين يناً طوال النهار.

كان أمامه زوجان أمريكيان، الزوج يحمل طفلة بين ذراعيه، والزوجة تقود كلب صيد ألماني، هناك أشخاص آخرون أيضاً. جميعهم أزواج شباب. الأمريكيون فقط كانوا يتمشون بخطوات بطيئة.

اندس شينغو خلفهما.

إلى يسار الممشى مساقط بدت أشبه بمدرج صنوبر، ثم تبين أنها أشجار أرز هندية. حين جاء لمشاهدة معرض الكلاب، بدعوة من جمعية الرفق بالحيوان، رأى مدرجاً رائعاً من أرز الهند، لكنه لم يعد يتذكر مكانها.

إلى اليمين انتصبت لافتات تحدد هوية الأشجار والشجيرات: شجرات الحياة الشرقية والأوتسوكوشيماتسو وغيرها.

سار الهوينا، ظانّاً أنه سيصبح وجهاً لوجه أمام كيكوكو؛ لكنه وجدها جالسة فوق مقعد مجاور لشجرة غينغكو، قرب البحيرة التي يقود إليها الممشى.

التفتت كيكوكو نحوه، وكادت تنهض بكامل طولها، ثم انحنت.

«أنت مبكرة. أمامنا خمس عشرة دقيقة على الرابعة والنصف». تطلع في ساعته.

«فرحت كثيراً بمكالمتك فهرولت خارجة من البيت على الفور». تحدثت بسرعة، «لا أستطيع التعبير عن سعادتي».

«كنت تنتظرين إذن؟ أما كان الأفضل لو ارتديت ثياباً أثقل من هذه؟»

«لقد اشتريت هذه الكنزة مذ كنت طالبة»، واختلط صوتها بنبرة حياء. «لم تعد لدي ثياب في البيت، لم يكن بوسعي استعارة كيمونو من شقيقتي».

كانت كيكوكو صغرى ثمانية أنجاب، وشقيقاتها تزوجن جميعهن. لعلها تشير إلى كنّة ما.

كانت الكنزة الخضراء الغامقة ذات أكمام قصيرة. بدا أن شينغو يبصر ذراعيها العاريتين للمرة الأولى هذا العام.

اعتذرت بطريقة رسمية بعض الشيء عن ذهابها إلى بيت أسرتها.

«ومع ذلك، هل بإمكانك العودة إلى كاماكورا؟» سأل برقة دون معرفة ما يستدعيه سؤاله من إجابة.

«نعم» أومأت ببساطة وسرعة. «لقد رغبت في العودة». تحرك كتفاها الجميلان وهي تحدق بشينغو. لم تلتقط عيناه الحركة ذاتها، لكن اريجاً لطيفاً انبعث منها ليفاجئه.

«هل جاء شويشي لرؤيتك؟.

«نعم. ولكن لو لم تتصل. . .»

ستكون عودتها شاقة؟ لم تكمل ملاحظتها، وخرجت من الظل.

خيل إليه أن خضرة الأشجار العملاقة، الثرية المثقلة، تسقط على العنق الأهيف للجسم المتراجع.

البحيرة يابانية، وفق طراز الجزيرة الصغيرة. كان جندي أجنبي يمازح عاهرة وقدمه فوق المصباح الحجري. أزواج آخرون احتلوا مقاعد تحيط بالبحيرة.

رافق شينغو كيكوكو خلال الأشجار إلى الجانب الأيمن من البحيرة.

«إنها هائلة» هتف مندهشاً لضخامة الاتساع الماثل أمامهما.

«لقد ردت الحياة إليك يا أبتاه» قالت وفرح صريح يغمرها. «قلت لك ذلك».

«بشملة جميلة. ما من شيء يعيق طريقها، وهي تضرب جذورها كما تشاء حتى القاع».

تأثر شينغو بعمق لمرأى الشكل الذي اتخذته الشجـرة في نمو طبيعي طليق.

«نعم، بديعة. حين جئت لزيارة معرض الكلاب كانت صفوف أشجار الأرز الهندي تنمو كما تشاء، تمتد وتتقشر حتى آخر مدى لها، تقطع كامل الطريق إلى القاع. أحسست أنني أنمو معها. أتساءل أين كانت».

«هناك، في اتجاه شينجوكو».

«حقاً. لقد جئت يومها من شينجوكو».

«قلت في الهاتف أنك جئت للتفرج على الكلاب».

«لم يكن هناك الكثير منها، لكنها دعوة من جمعية الرفق بالحيوان. تواجد الأجانب أكثر من اليابانيين. دبلوماسيون وأناس من جيش الاحتلال كما أتخيل. كان الوقت ضيقاً. الفتيات الهنديات كن الأجمل، جميعهن يرفلن بأردية حريرية حمراء. كانت هناك أكشاك هندية وأمريكية. لم تكن لدينا شؤون كثيرة تشغلنا تلك الأيام».

حدث هذا قبل سنة أو سنتين، لكن شينغو لم يستطع تذكر التاريخ بالضبط.

ابتعد عن شجرة البشملة وهو يتحدث.

«دعينا نتخلص من حشائش الياتوسدي عند أقدام الكرزة. ذكّريني حين نعود إلى البيت».

«سأفعل».

«لم يسبق لنا تقليم الكرزة. أحبها كما هي».

«بكل تلك الأغصان الدقيقة الصغيرة المثقلة بالأزاهير. أصغينا إلى ناقوس المعبد حين كانت في أوج تفتحها، أتذكر؟ الشهر الماضي خلال المهرجان».

«أمر صغير كهذا ـ جميل منك أن تتذكري».

«لن أنساه. الحدأة أيضاً».

اقتربت منه. سارا خارجين من ظل كيباكي ضخمة إلى المرج الواسع.

الاتساع الأخضر الهائل حرر شينغو.

«بوسعك الامتداد. إنها أشبه بالخروج من اليابان. لم أكن أحلم بوجود مكان كهذا في منتصف طوكيو تماماً». تأمل الاتساع المترامي للخضرة المترامية نحو شينجوكو.

«يبذلون عناية أكبر بالفييستات. إنها تبدو أبعد مما هي عليه حقاً».

«ما هي الفييستا؟» كانت كيكوكو قد استخدمت الكلمة الايطالية.

«يمكن القول إنها أفق من الرؤية. أنظر كيف تتجمع الدروب والحواف في منحنيات لطيفة».

كانت كيكوكو قد جاءت من قبل في نزهة مدرسية. وحدثتهم المدرّسة بكل شيء عن الحديقة. المرج الواسع، بأشجاره المبعثرة عليه، كان على الطراز الانكليزي كما يبدو.

هناك القليل من النـاس من غير الأزواج، يستلقـون أو يجلسون أو يتسكعون هنا وهناك. الأطفال هناك أيضاً، أما طالبات المدارس فتجمعن في مجموعات من خمس أو ست طـالبات. دهش شينغـو، ولم يجد من المناسب أن تكون الحديقة جنة عدن وتعقد فيها اللقاءات الغرامية.

هل المشهد خير ناطق على أن شباب الأرض قد تحرروا ساعة طهرت هذه الحديقة الامبراطورية؟

لم يعرهما أحد أدنى انتباه وهما يشقان طريقهما فوق المرج، ينفصلان أو يلتحمان في الجموع الثنائية. حاول شينغو البقـاء بعيداً عنهم بقـدر ما استطاع.

وما الذي يدور في ذهن كيكوكو؟ رجل عجوز أحضر كنته الشابة إلى الحديقـة، لكن شيئاً ما كان يعتري الموقف الذي لم يستقر في داخله بشكل مرضٍ.

لم يكلف نفسه عناء التفكير في المسألة حين اقترحت كيكوكو هاتفياً أن يلتقيا في حديقة شينجوكـو، لكن الأمر يبدو غريباً الآن، بعد قدومهما.

لفتت اهتمام شينغو شجرة شامخة فوق المرج.

حين دنا، ممعناً النظر فيها، هبطت إليه فخامة وعلياء الخضرة التي تتوج أعالي الشجرة، كيما تغسل كآبته هـو وكيكوكـو. كانت عـلى حق حين اعتبرت أن الحديقة سترده إلى الحياة.

كانت الشجرة من الفصيلة التي يسمونها «النيلوفر» في اليابان. اقترب منها أكثر، رأى أنها ثلاث شجرات. أشارت اللافتـة إلى أنها تعرف أيضاً باسم. . «شجرة التوليب»، لتشابه أزهارها مع النيلوفر والتوليب. سريعة النمو، موطنها الأصلي أمريكا الشمالية. هذه النماذج عمرها خمسون عاماً.

«خمسون عاماً؟ إنها أصغر مني». تطلع شينغو بدهشة.
امتدت الأغصان ذات الأوراق العريضة وكأنها تلف الشجرتين وتخفيها.
جلس شينغو على مقعد، لكنه أحس بالقلق.
نظرت كيكوكو إليه في حيرة حين نهض واقفاً.
«دعينا نلقي نظرة على الأزهار هناك»، قال لها.
هناك أديم من الأزهار البيضاء اليانعة، في المسافة الواقعة خلف المرج، بارتفاع الأغصان المتدلية لشجرة التوليب.

«لقد أقاموا حفل انتصار الجنرالات في الحرب الروسية ـ اليابانية. كنت في مقتبل العمر. لا أزال طليقاً في الريف الواسع».
هناك أشجار في صفوف كبيرة على جانبي فراش الزهر. اختار شينغو مقعداً موضوعاً بينهما.
وقفت كيكوكو أمامه. سأعود إلى البيت غداً صباحاً. أخبر الأم، وحاول اقناعها بعدم توبيخي».
جلست قربه.
«ألديك ما تطلعيني عليه أولاً؟»
«أطلعك عليه؟ كل الأشياء، لكن...»

- ٤ -

انتظر شينغو مجيء الصباح التالي والأمل يراوده، لكن كيكوكو لم تكن قد عادت حين غادر البيت إلى المكتب.
«طلبت مني أن أحاول اقناعك بعدم توبيخها».
«توبيخها؟» لمع وجه ياسوكو بالسعادة. «يتوجب علينا الاعتذار».
اكتفى بالقول إنه اتصل بكيكوكو.
«لك تأثير فائق عليها». ودعته ياسوكو حتى الباب. «ولكن لا بأس».
جاءت إيكو بعد زمن قصير من وصوله إلى المكتب.
«أنت أكثر جمالاً» قال بدماثة. «ولقد أحضرت معك زهوراً».

«لا أستطيع الهرب من العمل حين أكون في المتجر، ولذا تمشيت قليلاً لقتل الوقت. كانت أزهار بائع الزهور بديعة».

لكن أسارير وجهها ظلت صارمة وهي تقترب من مكتبه. «تخلص منها» هكذا كتبت على الطاولة.

«ماذا؟» فوجىء بما فعلته. قال مخاطباً ناتسوكو: «هل تسمحين لنا بالانفراد قليلاً».

خلال انتظارها لناتسوكو حتى تذهب، وجدت إيكو إناء ورد فوضعت فيه ثلاث زهرات. كانت ترتدي ثوباً سهل التغيير أعطاها مظهر من تعمل عارضة أزياء. فكر أن وزنها قد زاد قليلاً.

«أنا آسفة لما حدث البارحة». كانت لهجتها متوترة بصورة غريبة. «أنا أقصد المجيء مرتين متتاليتين، وكل ذلك».

«أرجو أن تجلسي».

«أشكرك». جلست محنية الرأس.

«إنني أعيقك عن العمل».

«لا بأس». سحبت نفسها بصعوبة، وهي ترفع بصرها إليه، كأنها توشك على البكاء. «هل أستطيع التحدث إليك؟ إنني أغلي، وقد أكون هستيرية قليلاً».

«أوه؟»

«الأمر يخص العشيقة الصغيرة». غصت بالكلمات. «أظن أنها أجهضت».

ظل شينغو صامتاً.

كيف عرفت؟ يصعب أن يفاتحها شويشي بأمر كهذا، لكن إيكو تعمل مع صاحبة شويشي. استجمع قواه لمواجهة ضيقه وسخطه.

«خير لها أن تجهض». ترددت إيكو من جديد.

«من أخبرك؟»

«تدبر شويشي مصاريف المشفى من كينو».

أحس شينغو بضيق في صدره.

«ظننت أنه أمر شائن، مهين إلى حد بعيد، مذل في الحقيقة. شعرت بأسف عميق للعشيقة الصغيرة، حتى انتابتني الرغبة في البكـاء. يعطي النقود لكينو، وأظن أنك تعتبرها نقوده. لكنه لم يكن الفعل الصحيح الذي يتوجب القيام به. انه ينحدر من طبقة مختلفة عنا جميعاً، وكـان بمقدوره جمع ذلك المبلغ بأية طريقة يشاء. هل يبيح له وجوده في مستوى مختلف أن يفعل أشياء كهذه؟» جهدت كي تمنع كتفيها من الارتعاش. «ثم جاء دور كينو التي منحته النقود. لم أستطع فهمها. كنت أغني. أردت محادثتك حتى لو تعرضت لفقدان وظيفتي معها. أعرف أنني أكشف أكثر مما ينبغي لي كشفه بالطبع».

«أشكرك».

«كنت تترفق بي هنا. التقيت بالعشيقة الشابة مرة واحدة فقط. لكنني أحببتها». لمعت الدموع في مآقيها.

«يجب أن تسعى لكي يتم انفصالها».

«نعم».

كانت بالطبع تقصد انفصال شويشي عن كينو، ومع ذلك يمكن تفسير ملاحظتها بأنها اشارة إلى شويشي وكيكوكو.

لقد حُشر شينغو في هذه الأغوار السحيقة.

دهش شينغو من التفسخ والشلل الروحيين اللذين أصابا ابنه. بدا له أنه بدوره يتخبط في الحمأة القذرة ذاتها. اجتاحه رعب قاتم.

استعدت إيكو للانصراف، بعد أن نجح في دفعها للكلام.

«لا تتعجلي الذهاب»، حاول استبقاءها دون حماس.

«سأعود ثانية. اليوم سأبكي من أجلك وأسخر من نفسي».

لمس في كلماتها شيئاً من الشهامة والمسؤولية.

ليس لائقاً أن تذهب هي للعمل في المتجر ذاته مع كينو، هكذا قرر. ولكن، كم كان شويشي سيئاً بدوره، كذلك شينغو ذاته.

حدق ساهماً في الورود القرمزية التي أحضرتها إيكو.

قال شويشي إن فرط الحساسية هو الذي منع كيكوكو من حمل طفـل

و «الأشياء على حالها الراهن». ألم تكن قد دفعت دفعاً إلى فرط الحساسية تلك؟

ستكون كيكوكو قد عادت الآن إلى كاماكورا، دون معرفة أي شيء.

أغلق عينيه.

النَدْبة

صبيحة الأحد، قطع شينغو نبات الياتسودو المتعرش عند اقدام الكرزة بالمنشار.

كان يعرف أن التخلص منها نهائياً يتطلب اجتثاث جذورها، لكنه أقنع نفسه بقدرته على قطع الفروع كلما نبتت.

لقد نشرها سابقاً، فكانت النتيجة استفحال نموها وانتشارها. لكن اقتلاع الجذور بدا صعباً مرة أخرى. لعله لم يعد يمتلك القوة.

ورغم أن المنشار قد صادف عدداً كبيراً من العقد، فهو لم يواجه إلا بمقاومة بسيطة. تصببت جبهته عرقاً.

«هل أساعدك؟» وقف شويشي وراءه.

«كلا، أستطيع تدبر الأمر» أجاب بشيء من الجفاء.

تابع شويشي بعد وقت قصير. «اتصلت كيكوكو بي وقالت أنك تقطع الياتسودو وعلي المجيء لمساعدتك».

«أوه؟ ولكن لم يتبق منها سوى القليل».

نظر شينغو صوب البيت وهو يفترش الياتسودو التي قطعها. كانت كيكوكو تطل من باب زجاجي في الشرفة، مرتدية الأوبي الأحمر الزاهي.

تناول شويشي المنشار من فوق ركبة شينغو. «أظن أنك تقطعها بأكملها».

«نعم». راقب الحركات الشابة والحِزَم القليلة الباقية تتهاوى.

«هل أقطع هذه أيضاً؟» التفت شويشي نحو شينغو.

«لحظة واحدة»، نهض شينغو. «سألقي نظرة».

هناك ثلاث شجيرات كرز صغيرة؛ لعلها لم تكن أشجاراً بل مجـرد جذور للشجرة الأم.

عند القاعدة الغليظة من الجذع نمت أغصان مورقة، كأنها مطعمة على الجذع.

تراجع شينغو بضـع خطوات. «يحسن بنا اقتلاعها من الأرض».

«أوه؟» لكن شويشي لم يكن في عجلة من أمره ليقرر قطعها أو ابقاءها. لم يظهر عليه أنه يعتبر فكرة شينغو صائبة.

نزلت كيكوكو أيضاً إلى الحديقة.

أشار شويشي إلى الشجيرات بالمنشار. «الوالد يقلّب الأمر على وجوهه. هل يقطعها أم يبقي عليها»، ضحك بخفة.

«نعم، اقطعها»، جاء الحل من كيكوكو فورياً.

«لا أدري، إن كانت أغصاناً أم غير ذلك»، خاطب شينغو كيكوكو.

«الأغصان لا تطلع من الأرض».

«ماذا تسمين الغصن المنبثق من الجذور؟» ضحك شينغو مع الآخرين.

قطع شويشي الفروع بصمت.

«أريد الإبقاء على الأغصان وجعلها تمتد كما تشاء. الياتسودو تعيقها. دع الأغصان تلك عند القاعدة».

«أغصان صغيرة هزيلة، أشبه بعيدان تناول الطعام أو خِلال الأسنان».

نظرت كيكوكو إلى شينغو. «كانت بديعة جداً حين أفرعت أزهاراً».

«أوه؟ هل أزهرت؟ لم ألحظ ذلك»

«أوه، نعم مجموعة واحدة صغيرة، ثم اثنتان وثلاث. تلك الشبيهة بخلال الأسنان أعطت مجموعة واحدة من البراعم».

«أوه؟».

«ولكني أتساءل إن كانت ستنمو حقاً. حين تحين الساعة التي تصبح فيها شبيهة بالأغصان السفلية لشجرة البشملة والكرزة البرية في حديقة شينجوكو، سأكون امرأة عجوزاً».

«أوه، كلا، شجرات الكرز سريعة النمو» تطلع في عيني كيكوكو.

لم يفصح لزوجته أو لشويشي عن زيارته لحديقة شينجوكو.

وهل باحت كيكوكو بالسر إلى زوجها فور عودتها إلى كاماكورا؟ ولأنه لم يكن سرّاً بمعنى الكلمة فلعلها تحدثت عنه كمسألة لا مغزى لها اطلاقاً.

«فهمت أنك قابلت كيكوكو في حديقة شينجوكو»، كان شويشي سيقول ذلك. لعل شينغو يتحدث أولاً، إذا صعب فتح الموضوع من جهة شويشي، كانا غارقين كلاهما في الصمت، يجمعهما توتر خفي ما. لعل شويشي يتظاهر بالجهل بعد سماعه عن الزيارة من كيكوكو.

لكن علامة حرج واحدة لم تبد على وجه كيكوكو.

حدق شينغو في الأغصان الصغيرة عند قاعدة الشجرة. رسم في ذهنه صورة لها أصبحت الآن واهية، محض رشقات في مكان خارج الاحتمال.. تتوالى وتمتد كالأغصان السفلية في حديقة شينجوكو.

ستشكل مشهداً بديعاً، منغمسة في الأرض ومثقلة بالأزهار. لكنه لم يعد يتذكر رؤية شجرة كرز كهذه. لم يعد يتذكر شجرة كرز هائلة ذات أغصان رشيقة تتأرجح عند قاعدتها.

«ماذا سأفعل بالياتسودي؟» سأل شويشي.

«القِ به في زاوية ما».

سحب شويشي الياتسودي بعد أن ضمه تحت ذراعيه. تبعته كيكوكو حاملة قطع الأغصان التي خلّفها وراءه.

«لا تزعجي نفسك» قال لها. «ينبغي عليك الالتفات إلى نفسك».

أومأت كيكوكو ووقفت حيث أسقطت الأغصان.

دلف شينغو إلى البيت.

«ماذا كانت كيكوكو تفعل في الحديقة؟» سألت ياسوكو نازعة نظارتها. كانت تقص شبكة بعوض قديمة لاستخدامها في قيلولة صغيرة. «كلاهما معاً في الحديقة نهار الأحد... أمر غير مألوف أبداً. يبدو أنهما يتآلفان بعض الشيء منذ عودتها إلى البيت».

«إنها وحيدة» تمتم شينغو.

«ليس بالضرورة»، قالت ياسوكو بلهجة تأكيد. «ضحكتها عذبة، وقد

مضى زمن طويل منذ أن سمعتها تضحك هكذا. إنها أنحف قليلاً، حين أراها ضاحكة».

لم يجب شينغو.

«يعود باكراً من المكتب، وهو يمكث في البيت نهار الأحد. العواصف تدفع الأشجار إلى ضرب جذورها عميقاً كما يقولون».

لزم شينغو الصمت.

دخل شويشي وكيكوكو معاً.

«أبتاه، قصفت ساتوكو أغصانك الثمينة الغالية». كان شويشي يحمل الأعشاب الصغيرة بين أصابعه. «كانت تستمتع بسحب الياتسودي، ثم مزقت أغصانك».

«أوه؟ إنها نوع من الأغصان تكون الطفلة جديرة بتمزيقها».

كانت كيكوكو متوارية خلف شويشي.

- ٢ -

حين عادت كيكوكو من طوكيو أحضرت لشينغو آلة حلاقة كهربائية من صنع ياباني. نالت ياسوكو حزام أوبي، ونالت فوساكو ثياباً للصغيرتين.

«هل أحضرت شيئاً لشويشي؟» سأل شينغو ياسوكو.

«مظلة قابلة للطي. ويبدو أنها أحضرت مشطاً أمريكياً ومرآة في حقيبة. قيل لي دائماً إن المرء لا يعطي أمشاطاً لأحد، فهي تعني قطع العلاقات أو شيئاً يشبه ذلك. أتخيل أن كيكوكو تجهل الأمر».

«لا أظنهم يقولون ذلك في أمريكا».

«أحضرت لنفسها مشطاً أيضاً. أصغر قليلاً ولونه مختلف. أعجبت به فوساكو وحصلت عليه. لعل كيكوكو كانت ترى معنى كبيراً في عودتها بمشط مثل مشط شويشي. مدّت فوساكو يدها واستولت عليه. مشط صغير تافه».

ياسوكو فيما يبدو ترى أن ابنتها لا تغدر إلا بصعوبة. «ثياب الأطفال مصنوعة من حرير جيد، ثياب حفلات حقيقية. صحيح أن فوساكو ذاتها

لم تنل شيئاً، لكن ثياب الأطفال كانت في حقيقتها هدية لها، ولا بد أن كيكوكو قد شعرت بالذنب تجاه فوساكو حين تخلت عن المشط. لا أتصور كيف يتوقع أي منا أن تقدم له الهدايا».

وافق شينغو، لكنه وجد أسباباً لاستياء لم تلمسه ياسوكو.

لا شك في أن كيكوكو اقترضت النقود من أسرتها، طالما أن شويشي لجأ إلى كينو لتأمين النفقات الطبية، وليس بادياً أنه أو كيكوكو يملكان نقوداً لشراء الهدايا. لعل كيكوكو أكرمت أقرباءها، متوهمة بأن شويشي هو الذي دفع النفقات الطبية.

أسف شينغو لأنه حتى الآن لم يكن يدفع لكيكوكو ما يشبه العلاوة المالية. كانت لديه نيّات طيبة دون شك، لكنه ـ بسبب تباعد شويشي وكيكوكو وتقربه هو منها ـ بات صعباً عليه اعطاؤها النقود بما يشبه السرية. ولعله، في فشله بإحلال نفسه محلها، قد شابه فوساكو التي استولت على المشط.

ولأنها كانت تفتقر إلى النقود بسبب انهماك شويشي في علاقاته الغرامية، فقد أصبح صعباً عليها المجي إلى حميها طالبة تعويضاً مالياً. ولكن لو أظهر شينغو مزيداً من العاطفة، لما اضطرت هي للإذعان إلى الإذلال المتمثل في حصولها على نفقات اجهاضها من عشيقة زوجها.

«كنت أفضل لو أنها لم تحضر شيئاً» قالت ياسوكو بعد تأمل. «وكم تبلغ نفقات الهدايا في رأيك؟ مبلغ كبير كما أظن».

«لا أدري». غرق في حسابات ذهنية. «ليست لدي فكرة عما تكلفه آلة حلاقة كهربائية. لم أنتبه إلى أمر كهذا».

«ولا أنا». شددت ياسوكو على هذا الإقرار بإيماءة من رأسها. «لو اعتبرته يانصيباً لكنت بذلك قد حصلت على الجائزة الكبرى. هكذا تريد كيكوكو الأشياء. إنها تصدر ضجيجاً وحركة».

«الشفرات لا تتحرك».

«حقاً؟ كيف تحلق إذن؟»

«كلا. لقد أمعنت النظر فيها طويلاً، لكنها لا تتحرك».

«أوه؟» كانت ابتسامة ياسوكو عريضة. «الجائزة الكبرى بصورة مطلقة، على الأقل من خلال الطريقة التي تجعلك تبدو كطفل يحمل لعبة جديدة. تطن وتطحن كل صباح، في منتهى ابتهاجك. تتحسس جلدك الناعم الجميل طوال الانتظار. أنت تحرج كيكوكو قليلاً. ليس لأنها سعيدة بعض الشيء أيضاً».

«سأسمح لك باستعمالها». ابتسم، لكن ياسوكو هزّت رأسها بتأكيد.

كان شينغو وشويشي قد عادا معاً ليلة عودة كيكوكو، وقد أصبحت آلة الحلاقة الكهربائية موضع اهتمام كبير في غرفة الإفطار.

ربما قيل أن آلة الحلاقة الكهربائية قامت بتقديم الحفاوة بدلاً من التحيات السخيفة التي سيجري تبادلها بين كيكوكو الغائبة عن البيت دون إذن، وأسرة شويشي الذي دفعها إلى الإجهاض.

فوساكو بدورها ابتسمت بسعادة، بعد أن ألبست الأطفال ثيابهم الجديدة وأطرت النوعية الجيدة لتطريز قبة العنق. بعد قراءته لكراس التعليمات جرّب شينغو آلة الحلاقة.

استقرت عليه أعين الأسرة المستفسرة.

مرر آلة الحلاقة على ذقنه وكراس التعليمات في يده الأخرى. «يقولون هنا أن الآلة مفيدة أيضاً للزغب السفلي في مؤخرة عنق المرأة». التقت عيناه بعيني كيكوكو.

كانت غرّة الشعر على جبينها جميلة للغاية. لاح أنه يراها للمرة الأولى حقاً. كانت ترسم منحنى أنيقاً لطيفاً.

افتراق البشرة الناعمة عن الشعر الغزير المستوي كان حاداً وناصعاً.

لسبب آخر ظلت خدود الوجه الباهت متوردة قليلاً. كانت عيناها تلمعان بالسعادة.

«حصل الأب على لعبة جديدة لطيفة»، قالت فوساكو.

«إنها ليست لعبة»، ردّ شينغو. «إنها نتاج رفيع للحضارة الحديثة. آلة دقيقة لها رقمها، وقد اختبرت من قبل فنيين مختصين للتأكد من تجربتها وضبطها وتدقيقها نهائياً».

كان منبسط الأسارير، وحاول الحلاقة باتجاه الشعر وبعكسه.

«لن تجرح نفسك أو تتعجل الحلاقة كما علمت»، قالت كيكوكو. «ولن تكون بحاجة إلى الماء والصابون».

«الرجل العجوز يقحم آلة حلاقته دائماً خلال التجاعيد. ستكون مفيدة تماماً لك أيضاً». قدم آلة الحلاقة إلى ياسوكو.

لكن ياسوكو تراجعت فزعة. «أنت تخطىء كثيراً حين تظن أن لي لحية».

نظر إلى الشفرات، ووضع نظارته ثم تطلع ثانية. «إنها لا تتحرك. كيف تقطع إذن؟ المحرك يدور لكن الشفرات لا تتحرك».

«دعني أرى». أمسك شويشي بالآلة، لكنه مررها مباشرة إلى ياسوكو.

«هذا صحيح. يبدو أن الشفرات لا تتحرك. لعلها أشبه بالمكنسة الكهربائية. تعرف كيف تمتص المكنسة الكهربائية الأقذار».

«هل تعرفين أين يذهب شعر اللحية؟» سأل شينغو. أطرقت كيكوكو وابتسمت.

«ربما قدّمنا مكنسة كهربائية مقابل آلة الحلاقة. أو غسالة ثياب. ستكون ذات نفع لكيكوكو».

وافق شينغو زوجته العجوز.

«لسنا نملك نتاجاً رفيعاً للحضارات الحديثة في هذا البيت. تقول كل سنة أنك ستشتري براداً. حان الوقت لشرائه هذا العام. ومحمصة الخبز.. هناك أنواع منها تدار آلياً وتقذف الخبز في الفضاء حين يصبح جاهزاً».

«آراء رجل عجوز في الكهربة الداخلية؟»

«أنت متعلق كثيراً بكيكوكو، والجهاز خير عون لها».

فتح شينغو آلة الحلاقة الكهربائية. كانت هناك فرشاتان في الحافظة، واحدة شبيهة بفرشاة الأسنان والأخرى بفرشاة زجاجة صغيرة. جربها. نظف بفرشاة الزجاجة التجويف الكائن خلف الشفرات، قرّب بصره منها ورأى الشعرات البيضاء القصيرة تتساقط على ركبته. لم يكن يرى سوى الشعرات البيضاء.

نفضها عن ركبته.

- ٣ -

اشترى شينغو من فوره مكنسة كهربائية.

شدّ انتباهه كيف يمكن ايجاد التسلية، قبل الافطار، في الإنصات لتناغم أزيز آلة حلاقته مع ضجة المكنسة الكهربائية في ايقاع واحد.

لعله كان يصغي إلى صوت التجديد في البيت.

اقتفت ساتوكو أثر كيكوكو، مسحورة بالمكنسة.

ربما كانت آلة الحلاقة الكهربائية هي السبب في حلمه بالذقون.

لم يكن مشاركاً بل متفرجاً. وفي الحلم، مع ذلك، لا يكون الانفصال بين الدورين جلياً. حدث ذلك في أمريكا، التي لم يسبق لشينغو أن زارها. ارتاب شينغو في أنه حلم بأمريكا بسبب المشطين الأمريكيين اللذين أحضرتها كيكوكو.

في الحلم، كانت هناك ولايات تعج بالعديد من الانكليز، وولايات يسودها الإسبان. وفقاً لذلك، كانت كل ولاية تستأثر بذقن متميزة. بعد استيقاظه، لم يتذكر بوضوح كيف يختلف لون وشكل اللحى، لكنه في حلمه ميّز فوارق الألوان بوضوح، وهي التي يمكن اعتبارها فوارق عنصرية بين ولاية وأخرى. في إحدى الولايات، التي لم يعد يتذكر اسمها بوضوح، ظهر رجل يجمع في شخصه السمات الخاصة لكل الولايات والأصول. ليس لأن ذقوناً مختلفة اختلطت معاً فوق ذقنه، بل بالأحرى لأن النمط الفرنسي تميّز عن اللحية الهندية كلّ في مكانه المناسب. خصلات متنوعة من الذقون، كلّ منها يمت إلى ولاية وأصل عنصري، تتدلى من ذقنه في فتائل.

صممت الحكومة الأمريكية نصباً تذكارياً للحية، ولذا لم يكن بوسعه قصها أو تصفيفها بارادته الحرة.

هكذا كان الحلم بأكمله. حين تأمل تناسق الألوان العجيب في اللحية كاد شينغو يحس بأنها ملكه.

لم تكن ثمة وقائع مترابطة في الحلم. لقد أبصر شخصاً ملتحياً فقط.

كانت اللحية طويلة بالطبع. ربما حلم بتلك اللحية الكثة لأنه كان يحلق وجهه كل صباح بسعادة. استحسن فكرة تحويلها إلى نصب تذكاري.

حلم ساذج غير معقد، وكان يأمل في التمكن من روايته صباحاً! أغفى على صوت المطر، لكنه بعد غفوة قصيرة استفاق ثانية بعد حلم مزعج هذه المرة.

كانت يداه ملتصقتين بثديين عامرين، غامضين في بروزهما. بقيا ليِّنين ناعمين، دونما انتصاب. كانت المرأة ترفض الاستجابة. موقف أحمق برمته.

ورغم أنه كان يلامس ثدييها فقد ظلت المرأة مجهولة بالنسبة له. لم يقتصر الأمر على جهله بها بقدر عزوفه عن اكتشافها. لا وجه لها ولا جسد. ثديان طافيان في فراغ.. هذا كل شيء. حين تساءل عن هويتها للمرة الأولى، تراءى له أنها الشقيقة الصغرى لأحد أصدقاء شويشي. لكن الاعتراف لم يجلب له النشوة والا أحاسيس الذنب. كان الانطباع بأنها شقيقة الصديق عابراً وسريع الزوال. ظلت كائناً يكتنفه الغموض. ثدياها يخصان امرأة لم تنجب أطفالاً، لكن شينغو استبعد كونها عذراء. أفزعه البحث عن مخايل عذريتها على أصابعه. أحس بالارتباك، لكنه لم يشعر بالذنب خصوصاً.

«أستطيع القول إنها كانت رياضية» تمتم لنفسه.

استفاق فزعاً على ملاحظته.

«حماقة بأسرها». أدرك كلمات موري أوغاي[1] عند احتضاره. لاح له أنه قرأها ذات يوم في صحيفة.

نسي شينغو الحلم. لم يشعر بالبهجة أو التعاطف، ولا حتى بالرغبة. حماقة بأسرها في الحقيقة، وطريقة موحشة في الاستيقاظ.

لم يكن يسعى إلى إهانة الفتاة. لعله كان موشكاً على ذلك. ولو أنه أهانها مرتعشاً بالحب أو الرعب لامتلأ الحلم بالمزيد من الحياة عند اليقظة.

---

(١) كاتب - ١٨٦٢ - ١٩٢٢.

فكر في أحلام الرعب التي شاهدها في السنين الراهنة. كانت تدور عموماً حول نسوة لا مناص من تسميتهن مبتذلات وجلفات. هكذا كان الأمر هذه الليلة. هل يخشى الزنا حتى في المنام؟

تذكر شقيقة الصديق العامرة الثديين. كانت شائعات عابرة قد ثارت حول ترتيب زواج شويشي بها، وقد تلازم الاثنان عندها.
لمعت في ذهنه ومضة عابرة.

ألم تكن فتاة الحلم تجسيداً لكيكوكو، بديلاً عنها؟ ألا تشق الاعتبارات الأخلاقية طريقها إليه حتى في الحلم؟ ألم يفترض شخص الفتاة بديلاً عن كيكوكو؟ ثم، لتغطية شعور الضيق أو لإخفاء الذنب، ألم يجعل من الفتاة أقلّ جاذبية مما هي عليه؟

ثم ألا يعقل أنه، لو استطاع اعادة صنع حياته كما يشتهي، مرخياً العنان لرغباته، سيكون راغباً في كيكوكو العذراء قبل زواجها من شويشي؟
مخنوقة ومنكفئة، اتخذت رغبة اللاشعور شكلاً بغيضاً في حلمه. هل كان يسعى إلى إخفائها، إلى خداع نفسه حتى في الحلم؟

ها هو ينقل الأمر إلى الفتاة التي قيل أنها ستتزوج شويشي، يعطيها شكلاً مبهماً رجراجاً. ألا يعود السبب إلى خوفه من أن تكون المرأة هي كيكوكو في أقصى احتمال؟

وحقيقة أنه لاقى صعوبة في تذكرها عند يقظته، وأن صاحبة الحلم كانت زائفة مثل الواقعة بأكملها، وحقيقة غياب المتعة عن اليد وملامسة الثديين.. أليست عائدة إلى أن لحظة الاستيقاظ سادها إثم ما فعل فعله بدهاء ليمحو الحلم؟

«الحلم والنصب التذكاري القومي كان حلماً أيضاً. لا تعلّق إيمانك على ما تقرره الأحلام بدلاً عنك». جفف وجهه براحة يده.
كان للحلم تأثير مخيف بارد، لكن شينغو استيقظ سابحاً في عرق كريه.
كان المطر الذي أعقب حلم الذقون كافياً لاقناعة بأن المطر هو الذي تسوقه الرياح، ويقرع باب المنزل. بدت الرطوبة تتعالى من خلال أبسطة

الأرض. كان لها مع ذلك صوت المطر الذي يتهاوى لفترة قصيرة ثم يرحل.

تذكر رسماً بالحبر لواتانابي كازان[1] رآه في دار صديقه منذ أيام.

كان يمثل غراباً أعزل فوق رأس شجرة عارية من الأوراق، ويحمل الاسطورة التالية: غراب عنيد يواجه الفجر: أمطار حزيران. كازان. والقصد من اللوحة تصوير الغراب في أعالي الشجرة العارية تحت وطأة الريح القوية والمطر وهو ينتظر الفجر. رسمت العاصفة بحبر فاتح خفيف. لم يتذكر الشجرة جيداً، لكنه ظن أنها منكسرة إذ لم تخلّف غير جذع سميك فقط. تذكر الغراب بصورة حيّة. ربما بفعل النوم، ربما بفعل الريح، وبسببهما معاً في الغالب، كان منكوش الريش بعض الشيء. منقاره كثيف داكن. المنقار الأعلى المرسوم بحبر كثيف كان أغلظ وأثقل من المنقار السفلي. العينان ناعستان كأنهما لم تستيقظا بصورة تامة، لكنهما قويتان غاضبتان إلى حد ما. كانت هيئة الغراب ضخمة بالنسبة لحجم الصورة.

جلّ ما يعرفه شينغو عن كازان أنه عانى من فقر مدقع، ثم أقدم على الانتحار. لكنه أدرك أن «الغراب في فجر عاصف» كان تعبيراً حياً عن أحاسيس كازان في نقطة معينة من حياته.

لا شك في أن الصديق وضع اللوحة لتناسب الفصل.

طرح شينغو رأياً: «طائر حاد الذكاء. ليس محبوباً كثيراً».

«أوه؟ اعتدت النظر إليه خلال الحرب. الغراب اللعين، هكذا كنت أفكر. إنه غراب لعين. لكنه يتسم بهدوء ما. لو تعين على كائن ما أن يقتل نفسه لأسباب أفضل من تلك التي دفعته إلى الموت، لتوجب علي وعليك أن نقتل أنفسنا مرة إثر أخرى. إنها مسألة العصر الذي نعيش فيه».

«انتظرنا الفجر، نحن أيضاً».

---

(١) باحث ورسام ياباني: ١٧٩٣ ـ ١٨٤١.

لا بد أن الغراب معلق في رواق الصديق في هذه الليلة الماطرة، هكذا فكر شينغو.

تساءل أين تكون حدأته الآن، أين يكون غرابه؟

- ٤ -

عاجزاً عن النوم بعد استفاقته من الحلم الثاني، استلقى شينغو منتظراً الفجر. لكنه مع ذلك لم ينتظر بالمقاومة العنيدة لغراب كازان.

سواء كانت امرأة الحلم كيكوكو أم شقيقة الصديق، فقد خيل إليه أنه موحش حقاً كيف تنتابه ومضة شهوة واحدة.

كان الحلم أشد بشاعة من أي رؤية في اليقظة. أهي بشاعة الشيخوخة؟

النساء غادرن حياته خلال الحرب، وغبن منذ ذلك الحين.

لم يكن عجوزاً إلى هذا الحد، لكن الأمر حدث هكذا. ما قتلته الحرب لم يعد إلى الحياة من جديد. لاح له أيضاً أن طريقة تفكيره كانت هي ذاتها كما خلفتها الحرب، محشورة في طراز ضيق من منطق التفكير العام.

أراد الاستفسار من أصدقائه عما إذا كان الطاعنون في السن من أمثاله يشعرون بما يشعر به. ولكن لعله سيتعرض لسخريتهم ولاتهامهم إياه بالضعف والخور.

ما الخطأ في عشق كيكوكو داخل الحلم؟ ما الخشية من حلم أو الاحساس بالعار بسببه؟ وحقاً، ما الخطأ في عشقها سراً خلال ساعات يقظته؟ جرّب هذه الطريقة الجديدة في التفكير.

لكن «هايكو» من تأليف بوسان خطرت بباله: «أحاول نسيان هذا الحب الخرف، رذاذ خريفي قارس». لا شيء سوى تعاظم الكآبة.

نضجت علاقات شويشي الزوجية مذ اتخذ عشيقة. مذ قامت كيكوكو بعملية الاجهاض ازداد رقة ودفئاً. ليلة تلك العاصفة العاتية أبدت كيكوكو غنجاً أكثر من المعتاد. ليلة عاد إلى البيت مخموراً، غفرت له بحنو أكثر من المعتاد.

أكانت حزينة أم سخيفة؟

وهل كانت مدركة لهذه الحقائق هي نفسها؟ لعلها، غافلة عنها، كانت تكرس نفسها بكل براءة لأعاجيب الخلق، ممتطية موجة الحياة.

أبدت احتجاجها برفضها انجاب الطفل وذهابها إلى أسرتها، فأعطت بذلك تعبيراً عن وحدة لا تحتمل، وعندها ـ أثر عودتها بعد أيام قلائل ـ ازدادت اقتراباً من شويشي، كأنها تعتذر عن غبن ما، أو تعالج جرحاً.

كان بوسع شينغو، لو أراد، التفكير أيضاً بأن عليه انتظار قضية كينو لتسوي نفسها بنفسها.

شويشي ابنه، ولكن هل كانا زوجين مثاليين؟ هل كانا ملائمين لبعضهما، حتى تختفي كيكوكو بمعاملة كهذه؟ حين يساوره الشك لا تلوح نهاية لشكوكه.

لم يكن راغباً في إيقاظ ياسوكو، فلم يشعل الأضواء للنظر في ساعته. لكن الفجر بدأ ينبلج، وسرعان ما يحين وقت ناقوس المعبد.

تذكر الناقوس في حديقة شينجوكو.

كان قد قرع مشيراً إلى ساعة الإغلاق، لكنه قال لكيكوكو: «يبدو أشبه بناقوس كنيسة».

نهض دون أن ينال قسطه الكافي من النوم.

غادر مبكراً برفقة شويشي. لم يكن راغباً في مواجهة كيكوكو.

سأل بغتة: «هل قتلت أحداً خلال الحرب؟»

«لا أدري. ربما مات من وقف في طريق رصاصة منطلقة من رشاشي. ولكن يمكنك القول إنني لم أكن أطلق الرشاش».

أشاح شويشي ببصره كارهاً.

توقف المطر خلال النهار وهطل من جديد في المساء. غرقت طوكيو في ضباب كثيف.

حين غادر المطعم بعد غداء عمل، وجد نفسه متلهفاً لرؤية منزل الغيشا في العربة الأخيرة.

جلس شينغو بين فتاتي غيشا كهلتين، وجلست ثلاث فتيات شابات على ركبتهن أمامه.

«أرجوك»، مدّ شينغو يده أمام أوبي إحدى الفتيات.

«لقد عذرتني إذن». تأكدت الآن، فجلست في حجره. كانت أصغر من كيكوكو بأربع أو خمس سنوات.

أراد أن يكتب اسمها في دفتر مذكراته حين آب إلى القطار. مجرد فكرة عابرة بدت قابلة للنسيان مع ذلك.

في المطر

كانت كيكوكو أول من قرأ الجريدة ذلك الصباح.

لا بد أن المطر تسلل إلى صندوق البريد. جففت الجريدة على الغاز وهي تطهو الإفطار.

يحدث أحياناً أن يذهب شينغو، حين يستفيق باكراً، لجلب الصحيفة وإحضارها معه إلى الفراش؛ لكن جلبها أصبح الآن جزءاً من عمل كيكوكو.

وجرت العادة أن يتصفح الجريدة بعد ذهاب شويشي إلى المكتب.

«أبتاه، أبتاه!» هتفت كيكوكو بلطف من وراء الباب.

«ما الأمر؟»

«هلا خرجت قليلاً، إذا كنت مستيقظاً».

«هل من خطب؟»

أقلقته نبرة صوتها فنهض تواً.

كانت تقف على الشرفة والجريدة بيدها.

«ماذا حدث؟»

«السيد إيهارا في الجريدة».

«هل اعتقلته الشرطة؟»

«كلا». تراجعت خطوة ثم سلمته الجريدة.

أمسك بها كارهاً. أفلتت من يده فتناولتها كيكوكو.

«لم أجد شيئاً. ماذا حدث لإيهارا؟»

«حادثة انتحار مع امرأة».

«هل مات؟»

«تقول الصحيفة أنه قد ينجو».

«انتظري دقيقة».

سارع بالذهاب، تاركاً الجريدة مع كيكوكو. «أظن أن فوساكو هنا؟»

«نعم».

لا يعقل أن فوساكو، التي هجعت مع طفلتيها في وقت متأخر ليلة البارحة، قد انتحرت مع إيهارا، أو أنها المقصودة بخبر الصحيفة.

نظر إلى المطر الذي تتقاذفه الرياح خارج نافذة الحمام. حاول شينغو الإخلاد إلى السكينة. سقطت قطرات المطر بتعاقب سريع من الأوراق الضخمة لعشب الخيزران عند أقدام الجبل.

«إنه تهطال حقيقي. ليس عادياً في شهر حزيران».

تناول الجريدة في غرفة الإفطار، لكن نظارته سقطت على أنفه قبل مباشرة القراءة. دمدم باستياء، ثم تناولها وحكّ أرنبة أنفه. كان رطباً بصورة منفرة.

انزلقت نظارته ثانية وهو يقرأ المقالة القصيرة.

حدثت الواقعة في ريندايجي سبا في شبه جزيرة ايزو. وجدت المرأة ميتة. كانت في الخامسة والعشرين ويلوح عليها أنها تعمل خادمة أو ساقية. لكن أحداً لم يتعرف عليها. بدا على الرجل أنه مدمن مخدرات، ولم يكن احتمال نجاته مستبعداً. حامت الشكوك حول الرجل والارتياب في أنه كان يمارس لعبة خداع ما للمرأة، فهو مدمن مخدرات ولم يترك رسالة ما.

ضغط شينغو على نظارته التي انزلقت إلى أرنبة أنفه، كأنها يسوّرها بقيد. لم يكن يدري هل ينصبّ غضبه على انتحار إيهارا أم انزلاق نظارته.

مضى إلى المغسلة وهو يمسح وجهه.

ذكرت الجريدة أن إيهارا كان قد أعطى للنزل عنواناً له في يوكوهاما. لم تكن هناك إشارة لفوساكو.

المقالة إذن لا تمت بصلة لعائلة شينغو.

لعل تسجيل الإسم كان مغلوطاً، وكان إيهارا هذا متشرداً حقيقياً. لعل فوساكو لم تعد زوجته. غسل وجهه قبل غسل أسنانه.

هل العاطفة وحدها هي التي تركته قلقاً ومضطرباً لفكـرة أن تكون فوساكو ما تزال زوجـة إيهارا؟

«أهذا يسمونه الالتفات إلى الأشياء؟» تمتم مخاطباً نفسه.

هل أمّن الزمن أخيراً الحل الذي سعى إليه طويلاً؟

ولكن ألا يصح أن شينغو لم يجد ملاذاً إلا بفعل يائس يقـدم عليه إيهارا؟

لم يكن يعرف ما إذا كانت فوساكو هي التي دفعت إيهارا إلى الخراب، أم أن إيهارا قد قادها إلى البؤس. لا شك في أنهما كانا إما من أولئك الناس الذين ترتكز طبيعتهم على دفع شركائهم إلى البؤس والخراب، أو من أولئك الذين ترتكز طبيعتهم على انقياد إلى الخراب والبؤس.

«كيكوكو» هتف عائداً إلى غرفة الإفطار وهو يحتسي الشاي الساخن. «كنت تعرفين كما أظن أن إيهارا أرسل لنا قسيمة الطلاق منذ خمسة أو ستة أيام؟»

«نعم. كنت ثائراً يومها».

«هذا صحيح. وقالت فوساكو إن هناك حـداً للإهانات التي يمكن للمرء احتمالها. لعله كان يتهيأ للانتحار. لم يكن يتظاهر.. كان يعني قتل نفسه حقاً. أتخيل أنه رافق المرأة لمجرد الصحبة».

قطبت كيكوكو حاجبيها الجميلين ولم تجب. كانت ترتدي كيمونو مخططاً حريرياً.

«هلا أيقظت شويشي من فضلك؟»

بدأت هيئتها المتراجعة أطول مما هو معتاد، ربما بسبب الخطوط القطرية العريضة.

«فعلها إيهارا إذن!» تنـاول شويشي الصحيفـة. «هل تلقت فـوساكـو إشعاراً؟»

«ليس بعد».

«ليس بعد؟» حملق شويشي. «لماذا؟ أرسلوه هذا الصباح. لن نرغب في استلام قسيمة طلاق من جثة هامدة».

«ولكن ماذا عن الأطفال؟ لم يذكر إيهارا شيئاً بخصوصهم، وهم أصغر من أن يقرروا بأنفسهم الأسرة التي يرغبون في الانتهاء إليها».

كانت قسيمة الطلاق، الموقعة من فوساكو، تروح وتجيء إلى المكتب في حقيبة شينغو، لقد اعتاد إرسال النقود إلى والدة إيهارا. ظن أن الرسول نفسه قد يحمل قسيمة الطلاق إلى المكتب القانوني، لكنه أجّل الموضوع يوماً بعد يوم.

«إنهم هنا، وليس بوسعك القيام بأي خطوة لعينة. أتخيل أن الشرطة ستصل».

«لماذا؟»

«بحثاً عن شخص يتسلم إيهارا».

«لا أعتقد ذلك. أهذا هو السبب الذي دفعه لإرسال القسيمة؟»

صفقت فوساكو الباب ودخلت وهي ما تزال في كيمونو النوم.

مزقت الصحيفة إرباً إرباً وطوحت بها بعد إلقاء نظرة خاطفة عليها. لم ترتد الصحيفة حين رمت بها رغم تمزيقها لها بقوة زائدة. سقطت المزق على الأرض فوق ركبتها فدفعتها بعنف.

«أغلقي الباب من فضلك يا فوساكو».

كان يرى الأطفال نائمين كما بدوا من خلال الباب المفتوح.

بيدين مرتجفتين مزقت فوساكو الصحيفة إلى قطع أصغر.

لزم شويشي وكيكوكو الصمت.

«فوساكو. هل تشعرين برغبة في الذهاب لرؤية إيهارا؟»

«كلا!» ارتكزت على مرفقها، التفتت لتحدق في شينغو وقد جحظت عيناها وبرزتا إلى الأعلى. «ماذا ترى في ابنتك يا أبتاه؟ أيها الجبان. ترى ابنتك أنت في حالة كهذه، فلا تنزعج، حتى قليلاً. ابتلع كبرياءك واذهب أنت إليه. أنت خير من يقوم بذلك. من الذي زوجني لشخص مثله؟»

مضت كيكوكو إلى المطبخ.

قال شينغو ما طاف في ذهنه فقط؛ لكنه واصل التفكير في ذهاب فوساكو لرؤية إيهارا وسط هذه المحنة، فقد يتصالحا ويضعا بداية جديدة. الكائنات البشرية قادرة على حلول كهذه.

- ٢ -

لم يكن في الصحيفة خبر إضافي يفيدهم إن كان إيهارا حياً أم ميتاً.

وما دام المكتب القانوني قد قبل قسيمة الطلاق، فهذا يعني أنه لم يسجل ميتاً بعد.

ثم ألا يتعرفون على هويته في حال وفاته؟ يبدو ذلك صعباً. هناك أمه الكسيحة. حتى لو غفلت هي عن قراءة الصحيفة فلا بد أن يلاحظ الخبر أحد معارفها أو أقربائها. استنتج شينغو نجاة إيهارا من الموت.

لكن هل يكتفي بمجرد الاستنتاج، بعد احتضانه للطفلتين؟ الجواب واضح عند شويشي، أما شينغو ذاته فلا تزال الشكوك تساوره.

الطفلتان أصبحتا من مسؤولية شينغو. واضح أن شويشي لم يضع في اعتباره حقيقة أنهما سيكونان تحت مسؤوليته ذات يوم.

وبمعزل تماماً عن مخاوف تربية وتنشئة الصغيرتين، سوف يبدو أن النصيب الذي نالته فوساكو والصغيرتين ينشطر نصفين؛ فهل تكون هذه الحقيقة جزءاً من مسؤولية شينغو؟

فكر شينغو في المرأة التي رافقت إيهارا فور إرساله إشعار الطلاق. امرأة ماتت، هذا لا ريب فيه. كيف تكون حياة المرأة وكيف يكون موتها؟ «عودي واسكني أجسادنا» تمتم لنفسه. ارتجف وهو يضيف: «كم هي سخيفة هذه الحياة التي عشتها».

لو واصل إيهارا وفوساكو حياتهما كزوجين عاديين لما تحتم على المرأة أن تموت؛ ليس مستحيلاً والحال هذا أن يطلق شينغو على نفسه لقب القاتل المتحكم بجريمته عن بعد. أليس جديراً بذهنه المتعب أن تستغرقه أفكار بائسة عن امرأة ميتة؟

لا وسيلة لتشويه صورتها مع ذلك. أبصر طفل كيكوكو بغتة. لم يكن

قادراً بالطبع على رؤية وجه طفل ثمّ التخلص منه في مرحلة مبكرة من الحمل. لكنه واصل رسم صور كثيفة لمخايل الجمال في الطفولة.

لم يولد الطفل؛ ألا يعتبر مرة أخرى قاتلاً عن بعد؟

تعاقبت الأيام الرطبة باهتة ومنفرة، حتى بدت عدساته باهتة ودبقة. شعر بثقل في الجانب الأيمن من صدره.

سطعت الشمس في فترات سكون العاصفة خلال أمطار حزيران.

«ذلك المنزل الذي أنبت عباد الشمس في الصيف الماضي» قال شينغو وهو يرتدي سراويله، «أنبت هذا العام زهوراً بيضاء لا أعرف اسمها. إنها أشبه بزهرة الذهب القريبة. الزهرة ذاتها مزروعة في أربعة أو خمسة بيوت من الشارع. لا بد أنهم رتّبوا ذلك. كانوا في العام الماضي قد زرعوا عباد الشمس».

وقفت كيكوكو قبالته، حاملة معطفه.

«أظن أن السبب يعود إلى تقصّف عباد الشمس خلال العاصفة».

«ربما. ألم تكبري قليلاً يا كيكوكو؟»

«لقد شمخت في الطول إثر عودتي إلى هنا. لكن أغصاني أخذت تفرع. دهش شويشي كثيراً».

«متى؟»

تورد وجهها باللون القرمزي، خطت لتقف وراءه وتساعده في ارتداء المعطف.

«خيل لي أنك أطول، ولم يكن الكيمونو وحده وراء ذلك. فكرة طيبة أن تواصلي نموك بعد سنوات من زواجك».

«كنت ضئيلة الجسم. شجيرة متأخرة البواكير».

«كلا، البتة. أظن أنه أمر مبهج». أحس شينغو بشيء ما بهيج ويانع في هذا التفتح. هل نمت كيكوكو إلى درجة جعلت شويشي ينتبه إليها وهو يضمها بين ذراعيه؟

لاح لشينغو أيضاً، أثناء مغادرته المنزل، أن حياة الطفل المضيعة أخذت تتنامى في نفس كيكوكو.

كانت ساتوكو تتقافز على حافة الشارع وهي تـراقب بعض الفتيات الصغيرات اللاهيات في الجوار.

توقف شينغو بدوره ليتأملهن. رمق بإعجاب أكوام العشب المرتبة بعناية على أصداف الرخويات وأوراق الباتسودي ا تي كن يستخدمنها كصحاف للطعام.

وريقات المارغريت والأضاليا، المقصوصة في قطع ناعمة، أضيفت إلى الأعشاب لتضفي اللون عليها.

كن قد فرشن بساطاً من القش؟ أسبغت عليه زهور المارغريت ظلاً داكناً.

«إنها المارغريت. هذه هي الأزهار» صاح شينغو متذكراً.

كانت زهور المارغريت مزروعة أمام البيوت العديدة التي زرعت عباد الشمس السنة الماضية.

بدا أن ساتوكو أصغر من أن تنضم إلى الصحبة.

«جدّي» نادته لاحقة به.

أمسك بيدها ليقودها إلى زاوية الشارع الرئيسي. كان الصيف يلوح من الخيال الراكض صوب البيت.

ناتسوكو، بذراعيها البضتين العاريتين، كانت تلمّع نوافذ المكتب.

«هل قرأت صحف اليوم؟» سأل بخفة.

«نعم»، كانت كلمتها كالمعتاد ثقيلة وباهتة.

«الصحيفة. أية صحيفة كانت تلك؟»

«أية صحيفة؟»

«لا أذكر اسمها، لكن علماء الاجتماع في جامعـة هارفـارد وجامعـة بوسطن أرسلوا استبياناً إلى آلاف السكرتيرات، سائلين عما يجلب اليهن أعظم بهجة، كلهن أجبن بأنه سماع المديح على مسمع من الآخرين. كلهن بالكامل. هل الفتيات شبيهات ببعضهن في الشرق والغرب؟ كيف تشعرين أنت؟»

«ولكن ألا يكون الأمر محرجاً؟»

«الأشياء المحرجة والأشياء السارة تتضافر معاً. ألا يحدث ذلك حينما يمرّ بك رجل؟»

أطرقت ناتسوكو ولم تجب. ليست من طراز الفتيات اللواتي يلتقي بهن المرء هذه الأيام، هكذا فكر شينغو.

«أظن أنه حال تانيزاكي. كان علي امتداحها على مرأى من الجميع».

«كانت الآنسة تانيزاكي هنا»، قالت ناتسوكي ببلادة. «في حوالي الثامنة والنصف».

«ثم ماذا؟»

«قالت أنها ستعود ثانية عند الظهر».

أحس شينغو باقتراب الأسىٰ.

لم يخرج للغداء.

وقفت إيكو في الباب. كانت تتنفس بصعوبة وتوشك على البكاء.

«لا زهور هذا اليوم؟» قال شينغو مدارياً قلقه.

اقتربت منه متهيبة، كأنها تلومه على رغبته في المهابة.

«أتريديني أن أصرفها هذه المرة أيضاً؟» لكن ناتسوكو كانت قد خرجت للغداء وظل هو وحيداً.

أطلعته على النبأ المفزع. صاحبة شويشي حامل.

«أخبرتها ألا تحتفظ بالطفل». كانت شفتا ايكو النحيلتان ترتجفان. «حظيت بها البارحة عند أوبتي من العمل، وأخبرتها بذلك».

«فهمت».

«أليس هذا هو الصحيح؟ أمر رهيب».

قطب شينغو حاجبيه، ولم يحر جواباً.

كانت ايكو تفكر بكيكوكو.

كيكوكو زوجة شويشي، وكينو عشيقته، أصبحتا حاملين الواحدة تلو الأخرى. لم يكن السياق الزمني مستحيلاً، ولكن لم يخطر ببال شينغو أن يكون ولده هو الوسيط. وكيكوكو أجهضت.

«أرجو أن تبحثي عن شويشي. إذا كان موجوداً اسأليه المجيء للحظة».

«نعم يا سيدي». تناولت ايكو مرآة صغيرة. «سوف أخجل إذا رآني هكذا»، أضافت بشيء من التردد: «ستكتشف كينو أنني أنقل الأخبار».

«أفهم ذلك».

«ليس لأني أكترث بترك المتجر».

«أرجو ألا تفعلي».

استفسر شينغو هاتفياً. لم يكن راغباً في مواجهة شويشي هذه اللحظة أمام مستخدمين آخرين. كان شويشي خارج المكتب.

غادر شينغو عمله، داعياً ايكو إلى مطعم أجنبي قريب.

سارت ايكو، ضئيلة الجسم، قريباً منه وبصرها مرفوع صوب وجهه. «هل تذكر؟» سألت دون اهتمام «اصطحبتني ذات يوم للرقص حين كنت في مكتبك».

«نعم. كنت تعقدين شريطاً أبيض على شعرك».

«كلا. هزت رأسها بالنفي. «عقدت الشريط الأبيض في اليوم الذي أعقب الإعصار الاستوائي. أذكر ذلك لأني كنت يومها منقبضة للغاية. كان ذاك أول يوم تسألني فيه عن كينو».

«حقاً؟»

تذكر أنها على صواب. حدثته ايكو حينذاك عن صوت كينو الخشن والشهواني.

«أيلول الماضي. لقد أثقلت عليك حقاً». خرج شينغو دون رغبة. كانت الشمس حارقة على رأسه العاري.

«لم أكن ذات فائدة على الإطلاق».

«لأننا لم نعطك أي شيء تفيدين فيه. أسرة تدعو إلى الخجل».

«إنني معجبة بك. زاد إعجابي منذ أن غادرت المكتب». كان صوتها مجهداً وناشزاً. بعد قليل تابعت كلامها: «حين طلبت منها عدم الاحتفاظ

بالطفل هاجمتني كأنني كنت طفلة تستحق التوبيخ. قالت إنني أجهل كل شيء، ولا أفهم شيئاً. خير لي ألا أتدخل في شؤون غيري، ثم قالت أخيراً إنها تحتفظ به لأنه في داخلها هي».

«أوه؟»

«من سألني إبداء النصح الغبي لها.. إذا كان الأمر يتعلق بانفصال عن شويشي فليس في مقدورها إلا الانفصال عنه حين يهجرها. لكن الطفل ملكها وحدها دون غيرها. لا يحول بينها وبينه شيء. ولو استطعت لطلبت طفلاً لأحشائي أنا سواء أكان ذلك صحيحاً أم آثماً. إنني صغيرة وكانت تسخر مني. قالت إنني لن أسخر منها. قد تنوي الاحتفاظ به. تذكرت فيما بعد أنها لم تلد طفلاً من زوجها. كان قد قتل في الحرب».

أومأ شينغو برأسه وهو يسير إلى جانبها.

«لعلها قالت ذلك بسبب استفزازي لها. لعلها لا تعني ما قالته».

«في أي شهر هي؟»

«الشهر الرابع، لم ألحظ ذلك، لكن أخريات في المتجر لاحظنه، يقال إن المدير سمع بها وطلب إليها ألا تحتفظ به. إنها موهوبة حقاً، وأتخيل أنها ستكون خسارة للعمل». رفعت يدها إلى وجهها. «لم أدرك ما يتعين عليّ عمله. فكرت أنني لو أخبرتك فستحادث شويشي».

«نعم».

«أعتقد أن عليك رؤيتها بأسرع ما يمكن».

كان شينغو يعتقد ذلك أيضاً. «تلك السيدة التي رافقتك إلى المكتب ذلك اليوم، أما زالتا تسكنان معاً؟»

«السيدة ايكيدا؟»

«نعم. أيهن الأكبر سناً؟»

«أظن أن كينو أصغر بسنتين أو ثلاث».

رافقته إيكو في طريق العودة إلى مبنى مكتبه. كانت ابتسامتها تلامس حافة الدموع.

«شكراً لك».

«شكراً لك أنت. هل تعودين إلى المتجر؟»

«نعم. كينو تنصرف مبكرة هذه الأيام. يظل المتجر مفتوحاً حتى السادسة والنصف».

«لا أظنك تقصدين أن أذهب إليها هناك؟»

لاح أن إيكو تحثه على رؤية كينو هذا اليوم بالذات. لكن الفكرة كانت أكبر مما يحتمله. ولن تكون مواجهة كيكوكو سهلة حين يعود إلى كاماكورا.

واضح تماماً أن كيكوكو رفضت ولادة طفلها لفرط حساسيتها، ولشعورها بمهانة الحمل حين يصاحب شويشي امرأة غيرها. لا شك أيضاً في أنها لم تحلم بأن تكون المرأة الأخرى حاملاً.

عادت كيكوكو من زيارة ذويها بعد أيام قلائل من سماع شينغو بالإجهاض، وقد ازدادت قرباً من شويشي بعد عودتها.

أخذ يعود إلى البيت مبكراً كل يوم، وأصبح متفهماً كما لم يكن من قبل. ماذا يعني ذلك كله؟

التفسير الأقرب كان أن شويشي، الذي انتابه قلق عميق من كينو وقرارها الاحتفاظ بالطفل، بدأ ينتزع نفسه منها شيئاً فشيئاً، معتذراً بذلك من كيكوكو.

لكن رائحة الفساد والتفسخ وانحلال المبادىء زكمت أنف شينغو.

لاح له أن الحياة الجنينية شريرة بحد ذاتها.. أنّى جاءت.

«فإذا وُلد، سيكون حفيدي» تمتم شينغو.

عنقود البعوض

اتخذ شينغو طريق هونغو الرئيسي على الجانب المحاذي لمجمع جامعة طوكيو.

غادر العربة عند الجانب الذي تحف به المحال، وسيتحول من ذلك الجانب إلى زقاق كينو بالطبع. تعمد عبور مسالك السيارات إلى الجانب الآخر.

كان شديد العزوف عن زيارة منزل عشيقة ابنه. سيقابلها للمرة الأولى، وهي حامل الآن. هل سيكون قادراً على مطالبتها بعدم إنجاب الطفل؟

«ستتم جريمة أخرى إذن» خاطب نفسه. «ألا يمكن تسوية الأمر دون إضافة المزيد إلى جرائم رجل عجوز؟ لكن الحلول جميعها قاسية في ظني».

هذا الحل ينبغي أن يناط بالابن، فليس الأب من يتدخل فيه. كان شينغو في طريقه لرؤية كينو دون علم شويشي؛ وكان بذلك يقدم دليلاً قاطعاً على فقدان إيمانه بابنه.

متى برزت هذه الهوّة بينهما؟ سأل نفسه فزعاً. أيمكن أن تكون هذه الزيارة لكينو أقرب إلى الإشفاق على كيكوكو والغضب مما حلّ بها، منها إلى الرغبة في إيجاد الحل لشويشي.

أشعة شمس المساء تلامس أطراف الأغصان فقط.

الأرصفة غارقة في الظلال، الطلاب يحادثون الطالبات فوق حروج الجامعة. المشهد ينطق بفاصل من الأمطار الصيفية المبكرة.

رفع شينغو يده إلى خده. تخلص من تأثيرات شراب الساكي. كان يعرف متى تفرغ كينو من عملها، وقد دعا صديقاً من شركة أخرى إلى

مطعم غربي. لم يكن قد قابل الصديق منذ زمن بعيد ونسي أي مفرط في الشراب هو. احتسيا شراباً سريعاً قبل ذهابهما للعشاء، ثم عادا ثانية إلى البار بعد العشاء.

«لست ذاهباً الآن؟» سأل الصديق دهشاً. في هذا اللقاء الأول بعد غياب طويل ظن الصديق أنهما سيرغبان في تجاذب الأحاديث، ولذا فقد حجز في ضاحية غيشا تسوكيجي.

أجاب شينغو بأنه سيعود بعد القيام بزيارة لا غنى عنها قد تستغرق نصف ساعة. كتب الصديق عنوان تسوكيجي ورقم الهاتف على بطاقة زيارة. لم يكن شينغو راغباً في الذهاب.

سار محاذياً سور الجامعة، باحثاً عن مدخل الزقاق عبر الشارع. كان يتكىء على ذكريات غامضة، ولم يقم البرهان على خطأها.

دخل الرواق المعتم ـ المواجه للشمال ـ حيث جثمت خزانة متسخة للأحذية، علتها نبتة غريبة في أصيص تدلت منه مظلة نسائية.

خرجت من المطبخ امرأة ترتدي مئزراً.

اكفهر وجهها وهي تخلع المئزر. كانت عارية القدمين وترتدي تنورة زرقاء داكنة.

«السيدة ايكيدا كما أظن. لقد شرّفتنا ذات مرة بزيارتك للمكتب».

«نعم. كانت وقاحة من جهتي، لكن ايكو جرتني إليها».

تكوم مئزرها في يد واحدة، نظرت إليه مستفسرة. كان الكلف يحيط حتى بعينيها، فبدتا أشد جمالاً لأنها لم تكن تضع المساحيق. كانت ذات أنف رقيق جميل الشكل، يلمح الناظر ألقاً ما في العينين الضيقتين والبشرة الصافية.

لا شك في أن البلوزة الجديدة من صنع كينو.

«كنت آمل في رؤية الآنسة كينو».

تحدث كأنه يسألها إسداء الفضل له.

«سرعان ما تعود إلى البيت. هل ترغب بانتظارها؟»

فاحت رائحة سمك مشوي من المطبخ.

فكر شينغو أنه يحسن به العودة فيما بعد، حين تكون كينو قد تناولت عشاءها. لكنه دلف إلى الداخل نزولاً عند الحاح ايكيدا.

تكومت مجلات الأزياء في فجوة القاعة المتوسطة الحجم، وبينها عدد لا بأس به من المجلات الأجنبية. جثمت قربها دميتان فرنسيتان، لا تتناسب أهدابها مع الجدران القديمة المتسخة. تدلت قطعة حرير من آلة الخياطة. أما النقوش المزهّرة الناصعة فقد جعلت أبسطة الأرض القذرة تبدو أكثر قذارة.

إلى يسار آلة الخياطة انتصب مقعد خشبي صغير تكومت عليه كراريس مدرسية مبعثرة وصورة طفل صغير.

بين الآلة والمقعد كانت طاولة التجميل ومرآة كبيرة مثبتة على الخزانة، وهي أجمل قطعة أثاث في الغرفة. لعل كينو كانت تستخدمها لتجربة الملابس التي تخيطها. ولعلها كانت تأخذ قياسات زبائنها الذين يؤلفون عملها الإضافي. كان هناك لوح معدني ضخم قربها.

المرأة ايكيدا أحضرت عصير برتقال من المطبخ.

«إنه ابني، قالت من فورها حين لمحت شينغو يتأمل الصورة».

«أهو في المدرسة؟»

«إنه ليس معي هنا. تركته عند أسرة زوجي. أما الكتب فإني أستخدمها في إعطاء دروس خصوصية إذ ليس لي عمل منتظم مثل كينو. ارتاد ستة أو سبعة منازل».

«حسناً. ظننت أن هناك عدداً وفيراً لكل طفل».

«إنهم من مختلف الأعمار والصفوف. المدارس هذه الأيام مختلفة كل الاختلاف عنها قبل الحرب، وأخشى ألا أقوم بعملي على أحسن وجه. لكني أحس به قريباً مني حين أدرّس».

أومأ شينغو برأسه. لم يعد لديه ما يستطيع قوله للأرملة.

الأخرى، كينو، كانت في العمل.

«كيف عثرت على المكان؟ هل أخبرك شويشي؟»

«كلا. جئت مرة من قبل، لكني لم أسمح لنفسي بالدخول. كان ذلك في أواخر الخريف».

«حقاً؟» رفعت بصرها إليه، وأطرقت من جديد. «لم يعد شويشي يظهر هذه الأيام»، بادرته بعد قليل.

فكر شينغو في أنه يحسن به الإفصاح عن سبب مجيئه. «فهمت أن كينو ستنجب طفلاً» قال أخيراً.

اهتز كتفا المرأة قليلاً، واستدارت ملتفتة إلى صورة ابنها.

«هل تنوي الاحتفاظ به وإنجابه؟»

تابعت استغراقها في تأمل الصورة. «خير لك أن تسألها هي».

«أوافقك. ألن تكون ولادته وبالاً على الأم؟»

«يمكن في رأيي اعتبار كينو عاثرة الحظ، بالطفل أو بدونه».

«لكني أتخيل أنك قد تنصحينها بنفسك كي تقطع علاقتها بشويشي».

«هذا ما ينبغي لها أن تفعله كما أظن. لكن كينو أقوى مني، والأمر لم يتفاقم إلى درجة تستدعي النصح. نحن مخلوقتان مختلفتان تماماً، لكننا نتفق أحياناً. لقد كانت عوناً كبيراً لي منذ أن تشاركنا العيش. التقينا في نادٍ لأرامل الحرب كما تعرف. كلانا تركت أسرة زوجها دون عودة إلى أسرتها الخاصة، يمكنك القول إننا عناصر حرة. نريد لذهننا أن يكون حراً أيضاً، ولذا فقد وضعنا صور الأزواج جانباً، لي الحق في الخروج بطفلي طبعاً. كينو تقرأ كل أنواع المجلات الأمريكية، ثم تتدبر أمرها في المجلات الفرنسية بمعونة المعجم كما تقول. إنها في نهاية الأمر مجلات تبحث في شؤون الخياطة ولا تضم الكثير من الكلمات. إنها راغبة في افتتاح محلها الخاص ذات يوم. كلانا نقول إنها ستنتهز الفرصة ذات يوم وتتزوج. ولذا لا أفهم ما يدعوها إلى التعلق بشويشي».

انفتح الباب الأمامي، نهضت بتكاسل وخرجت إلى القاعة.

سمعها شينغو تقول: «والد السيد أوغاتا هنا».

«هل يتعين علي مقابلته؟» ردّ صوت أبحّ.

مضت كينو إلى المطبخ وأخذت تتجرع كوب ماء.

«تعالي أنت أيضاً» قالت ملتفتة إلى السيدة ايكيدا وهي تدخل الغرفة.

كانت ترتدي ثوباً زاهياً. لم يتبين شينغو أنها حامل بسبب ضخامة جسدها. وجد صعوبة في الاعتقاد بأن الصوت الأبحّ يصدر عن فم صغير متغضن.

أصبحت المرأة في القاعة، ويبدو أنها وضعت لمسة إضافية على وجهها من علبة ما.

لم يكن انطباع شينغو الأول بغيضاً. الوجه المستدير والباهت لم يعكس قوة الإرادة التي وصفتها السيدة ايكيدا. هناك استدارة رقيقة في اليدين أيضاً.

«اسمي أوغاتا».

لم تجب كينو.

«لقد قلقنا عليك»، قالت السيدة ايكيدا وهي تحتل مكانها أمام مسند المرآة.

ظلت كينو لائذة بالصمت.

لعل المباغتة والصدّ لم يتبديا تماماً على الوجه المبتهج بحكم العادة، وهو السبب في أنها بدت موشكة على البكاء. تذكر شينغو أن شويشي قد سكر في هذا البيت ودفعها إلى البكاء بإلحاحه على المرأة ايكيدا كي تغني له.

عادت كينو إلى بيتها مهرولة بعد طرقات قائظة. كان وجهها متورداً، ونهداها العامران يرتجفان.

«ربما وجدت غرابة في قيامي بزيارتك» قال شينغو عاجزاً عن الدخول في موضوعه مباشرة. «لكني أتخيل أنك تكهنت بسبب مجيئي».

ظلت كينو ملتزمة بالصمت.

«شويشي بالطبع».

«إذا كان الأمر يتعلق بشويشي، فليس لدي ما أقوله». ثم بادرته فجأة: «هل تسألني الاعتذار؟».

«كلا، أظن أنني المعني بالاعتذار».

«لقد انفصلنا، ولن أكون مصدر متاعب لك بعد الآن». نظرت إلى السيدة ايكيدا: «ألا يكفي هذا لمعالجة تلك الأشياء؟»

وجد شينغو صعوبة في الإجابة، لكنه عثر على الكلمات أخيراً. «تبقى مسألة الطفل كما تعلمين».

«لا علم لي بما تتحدث عنه». امتقع وجه كينو، لكنها حاولت وضع كل قوتها في الكلمات. حين انخفض صوتها بدا أشدّ بحّة.

«أرجو أن تغفري لي سؤالي، لكني أظن أنك ستنجبين طفلاً؟»

«هل أنا ملزمة بالإجابة على هذا النوع من الأسئلة؟ إذا أرادت المرأة إنجاب طفل فهل يتدخل الغرباء ويحاولون منعها؟ أتظن أن الرجل يفقه في هذه الأشياء؟» تكلمت بسرعة واختنق صوتها بالدموع.

«تتحدثين عن الغرباء، لكني والد شويشي. أظن أن طفلك سيكون له والد أيضاً؟»

«لن يكون له. أرملة حرب قررت إنجاب طفل، هذا كل ما في الأمر. ليس لدي ما أسألك إياه سوى أن تدعني وشأني، أنجبه لوحدي. تجاهل الطفل إذا سمحت وسأعتبره إحساناً منك. الطفل في أحشائي، وهو ملكي أنا».

«هذا صحيح. وحين تتزوجين سيكون لك غيره. لا أرى حاجة الآن لإنجاب طفل غير طبيعي».

«وما الذي يعدّ غير طبيعي فيه؟»

«لم أقصد ذلك».

«لست أضمن الزواج ثانية، ولا إنجاب الأطفال. هل أنت مستعد للقيام بدور الله بحيث تنفخ فيّ روحاً إلهية؟ لم أنجب أطفالاً في الزواج السابق».

«العلاقات بين الطفل وأبيه هي النقطة الأساسية. سيقاسي الطفل مثلما تقاسين أنت».

«لقد ترك أطفال عديدون من رجال قتلوا في الحرب، وتركت أمهات

عديدات عرضة للعذاب. اعتبر أنه ذهب إلى الجُزُر وترك وراءه نصف جنين. النساء ينشئن الأطفال الذين نسيهم الرجال منذ أمد بعيد».

«الأمر يتعلق بطفل شويشي».

«لا أرى فارقاً ما دمت لا أسبب لك أي إزعاج. لن أجيئك باكية، أقسم أنني لن أفعل. لقد انفصلنا أنا وشويشي».

«سيعيش الطفل زمنه الطويل. سيدوم ارتباطه بأبيه فترة طويلة بعد اعتقادك بأنك فصمت العلاقة».

«الطفل ليس من شويشي».

«اعلمي أن زوجة شويشي لم تحتفظ بطفلها».

«يمكنها الاحتفاظ به متى شاءت. وإذا لم ترزق بغيره فسيكون الندم نصيبها. أتظن أن امرأة مغناجاً تستطيع فهم مشاعري؟»

«أنت لا تعرفين مشاعر كيكوكو».

لقد لفظ الاسم رغماً عنه.

«هل أرسلك شويشي؟» اتخذت مظهر المحقق، معتدلة في جلستها. «أخبرني ألا أحتفظ بالطفل، وضربني وداس عليّ بقدميه وركلني وجرّني من أعلى الدرج إلى الأسفل محاولاً سوقي عنوة إلى الطبيب. كان عرضاً رائعاً، وأظن أننا قمنا بواجبنا تجاه زوجته».

ابتسم شينغو بمرارة.

«كان عرضاً حقيقياً، أليس كذلك؟» خاطبت المرأة ايكيدا فهزت الأخيرة رأسها.

«لقد بدأت كينو تجمع قطع القماش التي تظن أنها تصلح أقمطة للصغير».

«راجعت الطبيب بعد ذلك لاعتقادي أن الركل قد أصاب الطفل بأذى. قلت لشويشي إن الطفل ليس منه. ليس ابنك بكل تأكيد، هكذا قلت له. انفصلنا عند ذلك. لم يجيء إلينا منذ ذلك الحين».

«رجل آخر إذن؟»

رفعت كينو بصرها. كانت تنتحب منذ بعض الوقت، وبدت دموع ندية على وجهها.

حتى الآن ـ وهو في أخريات أيـامه، رأى أنها امرأة جميلة. ليست صارخة الجمال إذا أمعن النظر في ملامحها؛ لكن الانطباع الأول يوحي بالحسن مع ذلك.

ورغم الرقة الظاهرة، فهي لم تكن امـرأة من نـوع يسمـح لشينغو بالاقتراب من أغوار نفسها.

- ٣ -

أحنى شينغو رأسه وغادر منزل كينو.

قبلت كينو الشيك المالي الذي عرضه عليها.

«إذا كنت قد هجرت شويشي فمن الأفضل لك أن تأخذيه». كانت السيدة ايكيدا صريحة تماماً، وأومأت كينو موافقة.

«أنت تشتريني إذن؟ هذا ما كنت تسعى إليه بمجيئك هل أعـطيك إيصالاً؟»

حين صعد إلى العربة، تساءل شينغو: أليس من الأفضل إجراء مصالحة بين شويشي والمرأة؟ قد يظل احتمال الإجهـاض ممكناً. وهـل سيكون الانفصال نهائياً؟.

لقد استعصت كينو بسبب شويشي من قبل وزيارة شينغو الآن. بدا توقها إلى الطفل راسخاً لا يتزعزع. من الخطر دفع شويشي نحو المرأة ثانية؛ لكن الطفل سيولد مع ذلك، كيفما سارت الأمور.

قالت كينو إنه ينتمي إلى رجل آخر. حتى شويشي لن يكون قادراً على الجزم بذلك. لو أطلقت كينو تهديداتها من موقع الكبرياء وكان شويشي مستعداً لتصديقها، لأمكن القول إن العالم بألف خير. لا حاجة للمزيد من التعقيدات. لكن الطفل سيشكل حقيقة صارخـة. سوف يمـوت شينغو وسيكون له حفيد لم تقع عيناه عليه أبداً.

«وإذن؟» تمتم لنفسه.

لقد سلموا وثيقة الطلاق إثر محاولة إيهارا الانتحار، في عجالة واضحة. والحق أن شينغو قد احتفظ بابنته وطفلتيها. ولو انفصل شويشي عن امرأته فسيبقى طفل آخر، في مكان ما من هذا العالم. أليسا غمّة عابرة تكتنف هذه الخطة الزمنية، هذان الحلّان اللذان ليسا بحلّين؟

إنه لم يسهم في سعادة أي منهم.

في مستوى آخر، لم يكن يحب التفكير بحماقة مواجهته لكينو.

استقر رأيه على السفر بالقطار من محطة طوكيو المركزية، لكنه عثر على بطاقة الصديق، واستقل عربة توصله إلى ضاحية غيشا تسوكيجي.

غمره الأمل في تلقي النصح من الصديق، لكن الأخير كان يسكر مع فتاتي غيشا فتلاشت الفرصة.

فكر شينغو بفتاة غيشا شابة رقدت في حجره ذات يوم. حدث ذلك في أعقاب حفلة، وكانوا في حافلة. دعاها ثانية هذا المساء. حين وصلت أطلق الصديق جملة تعليقات لا تخلو من السخف، أن شينغو لا يستهان به، إن عينه بصيرة، وغير ذلك.

كان الأمر أقرب إلى الإنجاز الكبير بالنسبة لشينغو، الذي لم يستطع استرجاع وجه الفتاة، فكيف باسترجاع اسمها. أثبتت أنها فاتنة بديعة.

دلف شينغو برفقتها إلى غرفة صغيرة، لكنه لم يفعل ما هو خارج عن المألوف. سرعان ما وجد وجهها مدفوناً برقّة في صدره. ظن أنها مغناج، ولكن يبدو أنها استغرقت في النوم.

هبط ببصره إليها مستفسراً. كان شديد القرب من وجهها.

ابتسم. هناك عزاء دافىء في احتضان فتاة شابة ترقد بأمان بين ذراعيه. كانت في مقتبل عمرها، أصغر بأربع أو خمس سنوات من كيكوكو.

ربما انطوت مشاعره على لمسة إشفاق على وباء البغاء، في كل حال وجد نفسه غارقاً في سكينة رخية، سكينة الرقاد مع فتاة شابة.

فكر أن السعادة قد تكون جزءاً مماثلاً من هذا الزمن المتسارع الهارب.

تأمل بصورة مبهمة حقيقة أنه في الجيش أيضاً هناك الثراء والفقر، الحظ الطيب والعاثر، انسلّ بهدوء، ولحق بآخر قطار إلى البيت.

كانت ياسوكو وكيكوكو تنتظرانه في غرفة الإفطار. إنها الواحدة والنصف ليلاً.

«أين شويشي؟» سأل شينغو متفادياً عيني كيكوكو.

«لقد أوى إلى فراشه قبل قليل».

«أوه؟ وفوساكو؟»

«إنها نائمة أيضاً». كانت كيكوكو تتناول رداءه. «نجح الطقس الجيد في الصمود، لكن السماء تلبدت بالغيوم ثانية كما يبدو».

«أوه؟ لم ألحظ ذلك».

حين انتصبت واقفة، أفلت الرداء من يدها، أعادت ترتيب السراويل من جديد.

لاحظ شينغو أن شعرها كان أقصر. يبدو أنها زارت صالة التجميل.

رقد قلقاً وأنفاس ياسوكو الثقيلة تتصاعد إلى جانبه.

ضابط شاب بالزي العسكري يتأبط سيفه فوق وركه، مع ثلاث غدارات. بدا الشيب شبيهاً بذاك الذي ورثه شينغو من أسرته وأخذه معه إلى الحرب.

شينغو يغذ السير في طريق جبلي. كان يرافق حطاباً.

«الدروب خطرة في الليل. نادراً ما أخرج» قال الحطاب: «خير لك أن تسير في ميمنة الطريق».

شعر شينغو بضيق وهو ينتقل إلى اليمين. أشعل بطارية. تألقت أحجار الماس حول شفير الوادي، فجعلت الضوء أكثر بريقاً مما هو معتاد، حوّم شكل أسود في الظلام. شجرتا أرز أو ثلاث ترتطم الواحدة بالأخرى. لكنه تفرّس بإمعان أشد فرأى بدلاً منها عنقوداً من البعوض اتخذ شكل جذع الشجرة. تساءل عما ينبغي له القيام به. إنه يشق طريقه. امتشق سيفه واندفع نحو البعوض.

التفت وراءه، رأى الحطاب غارقاً في ضوء ساقط من الأعلى.

أغرب ما في الأمر وجود شينغو آخر. شينغو كان يرقب شينغو الذي تسلّلت ألسنة اللهب إلى لباسه العسكري. علقت ألسنة اللهب بالأكمام

ودرزة الكتف وحاشية السترة القصيرة، ثم خبت ثانية. كانت لا تشتعل بقدر ما تتقد وتخمد كجذوة مندفعة من موقد فحم، مصدرة هسيساً خافتاً متصلاً.

بلغ شينغو داره أخيراً. لاح أنه مرتع طفولته، في شينشو، كانت شقيقة ياسوكو الجميلة هناك. رغم كلله، لم يشعر شينغو بالحكّة التي خلّفتها وخزات البعوض.

الحطاب الذي فرّ في تلك العجالة شق طريقه بدوره إلى دار شينغو القديمة. سقط مغشياً عليه حين تخطى عتبة الباب.

انتزعوا عن جسده ملء دلو من البعوض.

لم يدرك شينغو أية عملية أتمّت هذا الأمر، لكنه ظل قادراً على رؤية أكوام البعوض في الدلو عند استيقاظه.

«بعوضة في الشبكة؟» أصاخ السمع بأناة، لكن رأسه كان مثقلاً. المطر يتساقط.

بيضة الأفعى

كلما استغرقه حلول الخريف واستولى عليه كلل الصيف، يسقط شينغو فريسة للنوم في طريقه إلى البيت عائداً من العمل.

القطارات خلال ساعة الازدحام تتوافر على خط يوكوسوكا كل خمس عشرة دقيقة. لم تكن عربة الدرجة الثانية مزدحمة.

وإذ يغفـو برفق، تنبعث في أعمـاق نفسه صـورة صف من أشجـار الأكاسيا المزهرة. مرّ قبل وقت قصير تحت الأشجار التي راودته الآن، وتعجب عندما رفع بصره كيف تزهر أشجار الأكاسيا حتى في طوكيو. كانت تمتد على طول الشارع المنحدر من أقدام هضبة كودان هبوطاً نحو الخندق المائي للقصر. نهار رطب كثير الرذاذ من نهارات منتصف آب. بعثرت واحدة من أشجار الأكاسيا أزاهيرها على ناصية الشارع. سأل نفسه عن السبب وهو يلقي نظرة إلى الخلف من العربة. لم تبرح الصورة ذهنه. الأزهار ندية رقيقة، صفراء شاحبة مشوبة بالخضرة. حتى لو لم تكن هذه الشجرة التي تلقي بزهورها موجودة، لترك صف الأشجار المزهرة انطباعاً دون شك. كان يقفل راجعاً من المشفى، حيث زار صديقاً يحتضر بفعل سرطان الكبد.

ورغم أن الصديق لازمه خلال سنوات الدراسة الجامعيـة، فلم يكن من النوع الذي يراه شينغو بانتظام. كان يوغل في النحول ولا ترافقه سوى ممرضة واحدة.

لم يكن شينغو يعرف ما إذا كانت زوجة الصديق ميتة أم على قيـد الحياة.

«هل رأيت مياموتو من قبل؟» سأل الصديق، «إذا لم تتوفر لديك فرصة لرؤيته فتكرم بالاتصال به هاتفياً وسؤاله عن الأمر».

«عم أسأله؟»

«تتذكر. ما تحدثنا عنه في احتفال زملاء الدراسة في رأس السنة الجديدة».

تذكر شينغو. كان الحديث يدور حول سيانيد البوتاسيوم. لا بد أن الصديق علم بإصابته بالسرطان.

ذات لقاء جمع رجالاً في الستينات من أعمارهم، اتسع الحديث كثيراً ليشمل حالات عجز الشيخوخة والاعتلالات الروحية. وحين عرف أحدهم باستخدام سيانيد البوتاسيوم في معمل مياموتو، قال إنه لو ابتلي بمرض عضال كالسرطان فسيأمل في تناول جرعة من ذلك السم. إن إطالة الداء المستعصي لن تجلب سوى المزيد من معاناة لا معنى لها. وحين يدرك المرء أنه سيقضي نحبه لا محالة، فلعله يختار أجله الخاص بنفسه على الأقل.

وجد شينغو صعوبة في الإجابة. «لكننا كنا نحتسي الخمر في كل الأحوال» قال أخيراً.

«لن استخدمه. لن استخدمه. أريد فقط التزود بحرية الاختيار التي تحدثنا عنها فقط. سأكون قادراً على احتمال الألم لو عرفت فقط أن هناك طريقة للتخلص منه. أنت تفهميني، أليس كذلك؟ إنه كل ما تبقى لي. سمّه حريتي الأخيرة، مخرجي الوحيد في المقاومة. لكني أعدك بعدم استخدامه».

تألق وهج ما في عيني الرجل وهو يتحدث. الممرضة التي كانت تحيك صداراً صوفياً لزمت الصمت المطبق.

أغفل شينغو الأمر، حيث وجد نفسه عاجزاً عن تلبية طلب مياموتو؛ لكنه لم يحبذ التفكير في أن يظل الرجل الموشك على الموت معتمداً عليه.

عند نقطة ما من ابتعاده عن المشفى كانت أشجار الأكاسيا التي مرّ بها تجلب له بعض الارتياح. والآن، إذ يغفو في القطار، يظهر أمامه صف الأشجار ذاتها. لم يبرح الرجل المريض خياله.

أخلد إلى النوم، وحين فتح عينيه توقف القطار.
لم يكن يقف في محطة.
إنه زئير أحدثه قطار مارّ متجه إلى طوكيو. بدا أكثر مباغتة حين توقف قطار شينغو. ربما أيقظه من غفوته.
سيتقدم قطار شينغو قليلاً، ثم يتوقف. يتقدم قليلاً ويتوقف.
كانت شلة من الصبية تنحدر في درب ضيق صوب القطار.
خارج النافذة اليسرى قام جدار المصنع الاسمنتي، يفصله عن القطار خندق قذر راكد. كانت نتانته تفيض وتعبق من خلال النافذة.
إلى اليسار يقع الدرب الذي يتراكض فيه الصبية. جمد كلب في مكانه قرب الطريق، وكان فمه يندس في العشب الأخضر.
في النقطة التي تلتقي عندها سكة القطار بالدرب قامت بضعة أكواخ، سقوفها مغطاة بألواح ومسامير. من النافذة التي لا تتجاوز ثقباً مربعاً أطلّت فتاة تلوح عليها أمارات الضعف العقلي، وأخذت تتفرّس في القطار. كانت حركاتها واهنة وفاترة.
«تعرض القطار الذي سبقنا مباشرة لحادث في محطة تسورومي» قال قاطع التذاكر، «لقد توقف هناك. ينبغي أن نعتذر لإبقائكم هنا في الانتظار».
الأجنبي الجالس قبالة شينغو هزّ الفتى الياباني النائم بجواره وسأله بالانكليزية عما قال قاطع التذاكر.
كان الفتى نائماً على كتف الأجنبي، ممسكاً بذراعه. فتح عينيه وظلّ على سابق عهده مقلباً بصره بدلال. كانت عيناه ملتهبتين بعض الشيء، تحيط بهما هالات سوداء. شعره مصبوغ بالبني المحمر، لكنه احتفظ بلونه الأسود عند منابت الشعر فجعل اللون بنّياً عكراً. ارتاب شينغو في كون الفتى متهتكاً مختصاً بالأجانب.
قلب الفتى يد الأجنبي المسبلة على ركبته، وضغطها برفق، كأنه امرأة شبقة أرضت غرائزها.
كان ساعدا الأجنبي، أسفل أكمامه القصيرة، يدفعان المرء للتفكير في

لحية حمراء شعثاء. ورغم أن الفتى لم يكن ضئيل الجسم بصورة خاصة، فقد بدا طفلاً قرب الأجنبي العملاق. كان ساعدا الأخير ثقيلين وعنقه غليظة. لاح أنه غير عابىء على الاطلاق بالصبي المتعلق به، ربما لأنه وجد مشقة في التفاتة عنقه. كان مظهره خشناً قاسياً، وزادت في غلظته المسحة الطينية التي تكسو وجه الفتى المرهق.

ليس تقدير أعمار الأجانب بالأمر اليسير. الرأس الضخم الأصلع، التجاعيد عند الحنجرة، والبثور القديمة على الذراعين العاريتين جعلت شينغو يشك في أن عمر الرجل لم يكن يتجاوز عمره بكثير. رجل مثله يأتي إلى بلد أجنبي ويستأثر لنفسه بفتى.. أحس شينغو فجأة أنه يواجه وحشاً. كان الفتى يرتدي قميصاً أحمر داكناً، مفتوحاً عند العنق ليكشف عن صدر ناحل.

سرعان ما سيموت.. فكر شينغو متفادياً عينيه.

الخندق العفن الموحل محاط بأعشاب خضراء. لا يزال القطار جاثماً في مكانه.

- ٢ -

وجد شينغو أن شباك البعوض ثقيلة ومثيرة للانقباض، فتوقف عن استخدامها. شكت ياسوكو من تجردها كل ليلة، وكانت تقيم احتفالاً عظيماً للبعوض القارض.

«كيكوكو وشويشي ما زالا يملكان واحدة».

«لعلك تنامين معهما إذن» قال شينغو، محدقاً بالسقف الذي تحرر الآن من الشبكة.

«تعرف أنني لا أستطيع القيام بذلك. لكني قد أنتقل للنوم مع فوساكو ليلة الغد».

«إفعلي. نامي واحدى حفيدتيك بين ذارعيك».

«ماذا تظن؟ هل ستظل ساتوكو متعلقة بأمها والطفلة موجودة أيضاً؟ ألا

تظن أن هذا يشكل شذوذاً من نوع ما في شخصيتها؟ إنها تحمل أغرب النظرات في عينيها».

لم يجب شينغو.

«ربما كان غياب الأب هو الذي يسبب ذلك».

«قد يكون مفيداً أن تجعلي نفسك أكثر قرباً منها».

«لعلك تقوم بالشيء ذاته. أنا أفضل الطفلة».

«ما من كلمة عن ايهارا تفيدنا بموته أو نجاته».

«لقد أرسلت قسيمة الطلاق. لا فرق إذن».

«هكذا فقط؟»

«أعرف ما تقصده. حتى لو كان حياً لما اتيحت لنا معرفة مكانه. يجب التسليم بهذه الحقيقة، الزواج فشل. ولكن هل ينبغي له أن يكون هكذا؟ ينجبان طفلتين ثم ينفصلان؟ الأمر لا يترك عند المرء ثقة كبيرة بالزواج».

«إذا كتب الانفصال على الزواج، فقد تكون الأصداء أقل بهجة».

«لم تكن فوساكو صالحة بدورها. كان ايهارا فاشلاً في حياته، ولا أتخيل أنها محضته ما يكفي من الحنان. لا بد أنه قاسى كثيراً».

«هناك أشياء تعجز عنها المرأة حين يكون الرجل يائساً. لم يكن يسمح لها بالاقتراب منه. لو ارتضت فوساكو الطرد لنفسها وللطفلتين لما تبقى لها سوى الانتحار كما أرى. الرجل قادر دائماً على ايجاد امرأة تشاركه الانتحار. وشويشي». بعد هنيهة صمت واصلت ياسوكو كلامها: «إنه على ما يرام الآن، ولكن من يعرف متى سيقدم على شيء آخر. كان الأمر شاقاً على كيكوكو».

«أتقصدين الطفل؟»

كان تعبير شينغو يشير إلى مسألتين مختلفتين: حقيقة رفض كيكوكو لانجاب طفل، وحقيقة تصميم كينو على الاحتفاظ بطفلها. لم تكن ياسوكو تعرف المسألة الثانية.

قالت كينو إن الطفل ليس لشويشي وإنها لن تطلب تدخله في أي

شيء. لم يكن شينغو واثقاً من الحقيقة، لكنه أحس مع ذلك بأن المرأة كاذبة.

«ربما تعين عليّ النوم مع شويشي وكيكوكو في النهاية. لا يعرف المرء ما يدور بينهما من نقاش».

«ماذا تقصدين من ذلك؟»

التفتت ياسوكو المستلقية على ظهرها. بدت موشكة على تناول يده، لكنه لم يمددها إليها.

لمست طرف وسادته برفق، ثم همست وكأنها تدلي بسرّ: «يمكن أن تكون حاملاً من جديد».

«ماذا؟»

«أظن أن الوقت مبكر قليلاً، لكن فوساكو ترتاب في الأمر».

لم يتبق لدى ياسوكو شيء من طريقتها السالفة في الإعلان عن حملها هي فيما مضى.

«هل ذكرت فوساكو ذلك؟»

«الوقت مبكر بعض الشيء» رددت ياسوكو ثانية. «لكنهم يقولون أن طفلاً آخر يتبع الأول، وفي حالات كهذه غالباً».

«هل تحدثت كيكوكو أو شويشي مع فوساكو؟»

«كلا. إنها استقصاءات فوساكو الخاصة».

كانت كلمة «استقصاءات» غريبة. بدت فوساكو، التي هجرت زوجها، فضولية بصورة خاصة في المسائل التي تخص زوجة أخيها.

«ينبغي أن تحادثها بنفسك» قالت ياسوكو. «أقنعها بالاحتفاظ به هذه المرة».

أحس شينغو بانقباض في حلقه. هذا الخبر الخاص بإمكانية أن تكون كيكوكو حاملاً جعل حقيقة حمل كينو تثقل على صدره بقسوة بالغة.

لم يكن أمراً غير عادي أن تحمل امرأتان على التوالي من الرجل ذاته. ولكن حين يكون الرجل ابناً فالأمر يتلازم مع خوف غريب. إنه يقترن بجانب جهنمي. أشبه باللعنة أو القصاص.

قد يرى المرء في هذه الأحداث المختلفة دليلاً على العمليات الجسدية المعافاة. لكن هذه الشهامة أضحت الآن أبعد ما تكون عن شينغو.

إنه الحمل الثاني لكيكوكو. كانت كينو حاملاً ساعة إجهاض كيكوكو. وقبل أن تضع الأولى طفلها باتت الثانية حاملاً. كيكوكو تجهل وضع كينو. لا بد أن تصبح كينو محط الاهتمام الآن، بعد حركات الطفل في داخلها.

«لو بلغها أننا نعرف لما عادت قادرة على القيام بما يحلو لها هذه المرة».

«لا أظن ذلك» قال شينغو بوهن. «لا بد أن تحادثها».

ظل شينغو ساهراً.

راودته الأفكار الشريرة. سأل نفسه بنزق هل يصلح عنف من أي نوع في ثني كينو عن عزمها وضع طفلها؟

قالت أن الطفل لم يكن لشويشي. ليته ينقّب في نشاطاتها ليعثر على ما يريح باله.

تعالى طنين الحشرات في الحديقة الخارجية. إنها الثانية صباحاً. لم يكن الطنين صوتاً واضحاً ومميّزاً لجدجد الناقوس أو جدجد الصنوبر. كان صوتاً مشوشاً. لقد جعل شينغو يفكر في النوم على أرض مظلمة شديدة الرطوبة.

لقد سقط مؤخراً فريسة لأحلام كثيرة، وقد أبصر حلماً آخر عند الفجر.

لم يعرف من أي طريق جاء. حين استفاق ظل بمقدروه رؤية البيضتين البيضاوين في الحلم. كان في قفر رملي، رمال مترامية على امتداد البصر. تلاصقت بيضتان قرب بعضهما البعض، إحداهما كبيرة، بيضة نعامة، والأخرى صغيرة بيضة أفعى. كان غلاف الأخيرة مكسوراً تطل منه أفعى صغيرة تلوح برأسها إلى الوراء والأمام. خُيل لشينغو أنها تتعشق على مسنن.

لا ريب في أنه كان يفكر بكيكوكو وكينو. لم يكن يعرف طفل مَنْ كان في بيضة النعامة، وطفل مَنْ في بيضة الأفعى.

خطر له التفكير فيما إذا كانت الأفعى تضع بيضاً أم تتكاثر بالولادة.

- ٣ -

اليوم التالي كان نهار الأحد. أحس شينغو أن طاقته رشحت تماماً، فلبث في السرير حتى الظهر.

الآن، في الصباح، بدت بيضة النعامة ورأس الأفعى الصغيرة آثمين بصورة غامضة.

غسل أسنانه بفتور ودخل غرفة الإفطار.

كانت كيكوكو تربط الصحف المكدسة، تمهيداً لبيعها لتاجر الخردة.

كان ترتيب صحف الصباح والمساء إحدى الواجبات التي تقوم بها لضمان راحة ياسوكو.

مضت لتحضر له الشاي.

«هل قرأت الخبر الخاص بزهور اللوتس؟» وضعت صحيفتين على الطاولة أمامه. «مقالتان. لقد احتفظت بهما لك».

تناول الصحيفتين معاً.

لقد عُثر على بذور لوتس تعود إلى ألفي سنة في حفريات ياوي. جاء «دكتور اللوتس»، وهو عالم نباتي متخصص في زهور اللوتس ونجح في استنباتها. نشرت الصحف خبر تفتحها في فترة سابقة، وقد أخذ شينغو الصحف يومها إلى غرفة كيكوكو. كانت تستريح، من إجهاضها الذي مضى عليه زمن قصير.

ولقد ظهرت مقالات عن اللوتس مرتين منذ ذلك الحين. إحداهما تصف كيف شطر دكتور اللوتس الجذور ونقل جزءاً منها إلى بحيرة سانشيرو، على الأراضي التابعة لجامعة طوكيو التي تخرج منها. المقالة الثانية حول أمريكا. عثر عالم في جامعة توهوكو على بذور اللوتس، متحولة إلى مستحاثات، في طبقة طين المرل في منشوريا وأرسلها إلى أمريكا. أزيل الغلاف الصدفي الصلب كالصخور في «الحدائق النباتية الوطنية» وغُلّفت البذور بحشوات قطنية ذات منافذ، ووضعت تحت الزجاج. في العام التالي أفرعت براعم رقيقة لطيفة وناعمة.

أما هذا العام، عند وضعها في بحيرة، فأعطت برعمين، تفتحا زهوراً قرنفلية. أعلنت وكالة الحدائق الوطنية أن عمر البذور يتراوح بين ألف إلى ألف وخمسماية سنة.

«هذا ما ظننته حين قرأت المقال للمرة الأولى» ضحك شينغو. «ألف إلى

ألف وخمسمائة سنة. . إطار عريض مبالغ به من الحساب». عثر على رأي لباحث ياباني يقول فيه إنه بالقياس إلى طبيعة طبقة المرل الطينية فعمر البذور لا يقل عن عشرات الألوف من السنين. ومع ذلك، أثبتت الاختبارات الشعاعية الكربونية التي أخضعت لها الأغلفة الصدفية أن عمرها ألف سنة.

المقالان كانا تقريرين من مراسلين في واشنطن.

«هل انتهيت منها؟» سألت كيكوكو وهي تتناول الصحف. لا شك أنها تستأذنه في بيعها حين يمرّ تاجر الخردة في المرة القادمة.

أومأ شينغو. «ألف سنة أم خمسون ألفاً. . بذرة اللوتس تعمر طويلاً. تكاد تستغرق الأبدية إذا قارنتها بالحياة الإنسانية». تطلع إلى كيكوكو. «سيكون جميلاً أن يستلقي المرء في التراب ألف سنة أو ألفين دون أن يموت».

«يستلقي في التراب»، قالت كيكوكو بما يشبه الغمغمة.

«لا أقصد القبر. ولا الاحتضار. الراحة فقط. لو أمكن قضاء الراحة في التراب». تستيقظين بعد خمسين ألف سنة فتجدين كل مشاكلك محلولة مثلها مثل مشاكل العالم. وستكونين في النعيم».

«كيكوكو، هلّا أحضرت إفطار الأب من فضلك؟» نادت فوساكو من المطبخ، حيث بدا أنها تطعم الصغيرتين.

عادت كيكوكو حاملة الإفطار

«بقيت لوحدك. جميعنا تناولنا إفطارنا».

«أوه؟ ماذا عن شويشي؟»

«لقد ذهب إلى بحيرة الصيد».

«وياسوكو؟»

«في الحديقة».

«أظن أنني لن أتناول البيض هذا الصباح» خاطبها وهو يعيد صحن البيض. كره ذكرى بيضة الأفعى التي يستدعيها هذا البيض.

عادت فرساكو بسمك مجفف ومشوي. وضعته بصمت وعادت إلى الصغيرتين.

حملق في وجه كيكوكو وهو يتناول وعاء الأرز الذي ناولته له، وقال في صوت خفيض: «هل ستلدين طفلاً؟»

«كلا» أجابت على الفور، وبدا فيما بعد أن المفاجأة صعقتها. «كلا. لا شيء من ذلك». هزّت رأسها بالنفي.

«لم يكن ما قيل صحيحاً إذن؟»

«كلا».

نظرت إليه بفضول وتورد وجهها.

«أرجو أن تعامليه بشكل أفضل في المرة القادمة. لقد تناقشت مع شويشي حول الأخير. سألته إن كان يضمن ولادتك لطفل آخر، فردّ بالإيجاب. كان الأمر شديد البساطة. طلبت منه أن يخشى الله قليلاً. سألته هل يضمن أحدنا بقاءه حياً ليوم آخر. سيكون الطفل لك ولشويشي بالطبع، لكنه سيكون حفيدنا أيضاً. طفل تضعينه أنت سيكون أجمل وأروع من أن نفقده».

«إنني آسفة» قالت مطرقة.

كان متأكداً من أنها تقول الحقيقة.

لماذا ظنّت فوساكو أنها حامل إذن؟ لا شك أن استقصاءات فوساكو تجاوزت الحدود. لا يعقل أن تكون مدركة لوضع تجهله كيكوكو نفسها.

تلفّت شينغو من حوله، خشية أن تصغي فوساكو إلى الحوار. لاح أنها في الخارج مع طفلتيها.

«هل ذهب شويشي إلى البحيرة من قبل؟»

«كلا. أظنه سمع بها من صديق له».

هذا الحدث غير العادي كان بالنسبة لشينغو يشكّل دليلاً على هجر شويشي لكينو. اعتاد في مرات عديدة زيارتها أيام الآحاد.

«هل ترغبين في إلقاء نظرة عليها أنت أيضاً؟»

«نعم».

دلف شينغو إلى الحديقة. كانت ياسوكو تتفرس في شجرة الكرز.

«ما المشكلة؟»

«لا شيء. لكنها فقدت معظم أوراقها. أتساءل إن كانت حشرة ما تأكلها. جدجد الصيف لا يزال يصفّر، وها هي تفقد معظم أوراقها».

سقطت أوراق مصفرّة، واحدة بعد الأخرى، وهما يتبادلان الحديث. سقطت على الأرض مباشرة بفعل ركود الجو.

«قيل لي بأن شويشي قد ذهب للصيد. سوف أصطحب كيكوكو لنلقي نظرة على البحيرة».

«الصيد؟» قالت ياسوكو وهي تتلفت من حولها.

«سألتها عن الأمر، وقالت إنه غير صحيح. استقصاءات فوساكو قادتها إلى تقدير خاطىء».

«هل سألتها؟» هناك شيء ما بطيء الطرافة فى ياسوكو.

«يا للخجل!»

«لماذا تنشط فوساكو باستقصاءاتها إلى هذا الحد؟»

«لماذا؟»

«أنا الذي أسأل».

داخل البيت كانت كيكوكو ترتدي كنزة بيضاء، وقد وضعت بعض الأحمر على خديها... بدت يانعة ومتألقة بشكل غير مألوف.

- ٤ -

ذات يوم، دون سابق إنذار، ظهرت أزاهير حمراء خارج نوافذ القطار.. زنابق الاعتدال الخريفي تنبثق على طول السكة المحاطة بالأحجار، شديدة القرب حتى تكاد ترتعش عند مرور القطار.

حملق شينغو في الزنابق الطالعة على ضفة كوتسوكو المزنرة بأشجار الكرز في أوج تفتحها. كانت ندية ناعمة، حمراء صافية.

إنه واحد من الصباحات التي تدفع فيها الزهور المرء للإحساس بسكينة المروج الخريفية.

أخذ عشب الخيزران يطلق أزاهيره.

خلع شينغو حذاءه. رفع قدمه اليمنى إلى ركبته وحكّ باطنها.

«هل تعاني من شيء في قدمك؟» سأل شويشي.

«تبدو ثقيلة للغاية. أحياناً أحس بأنها ثقيلة حين أصعد سلالم المحطة. لم تكن هذه سنة طيبة. الحياة تنسل مني».

«كانت كيكوكو قلقة. تقول إنك تبدو متعباً».

«أود الارتياح في الراب خمسين ألف سنة. هكذا قلت لها».

نظر شويشي إليه بفضول.

«كان في الصحيفة شيء عن أزهار اللوتس. هل تتذكر؟ بعض بذور اللوتس العتيقة أفرعت وأزهرت أخيراً».

«أوه؟» أشعل شويشي لفافة. «سألتها إن كانت ستلد طفلاً. كانت منزعجة كثيراً».

«حقاً؟»

«الأمر مبكر للغاية كما أظن».

«وماذا عن كينو؟ أمرها أشد أهمية».

بادر شويشي إلى الهجوم رغم اهتمامه. «فهمت أنك قصدت رؤيتها لتعطيها نقوداً للتعزية. لم تكن هناك حاجة لذلك».

«متى سمعت بزيارتي لها؟»

«أوه. سمعت بها بصورة غير مباشرة. لقد انفصلنا كما تعلم».

«هل الطفل لك؟»

«أوه، تجيب كينو بالنفي».

«الأمر يتعلق بضميرك أنت»، تهدج صوت شينغو. «ماذا عن الطفل؟»

«لا أظن أن الضمير يكشف عن شيء ما في هذه المسائل».

«ماذا تعني بذلك؟»

«لنفترض أنني أقاسي تأنيب الضمير. هل يفيد ذلك في زحزحتها عن موقفها؟ هناك شيء جنوني في المرأة وتصميمها على الاحتفاظ بالطفل».

«إنها تعاني أكثر منك، وهو حال كينو أيضاً».

«الآن وقد انفصلنا، أرى أنها كانت تسير قدماً في طريقها الخاص».

«وهل حدث هذا بالنسبة لك؟ لا تريد حقاً أن تعرف ما إذا كان الطفل منك أم من غيرك؟ هل يقودك ضميرك؟»

لم يجب شويشي. طرفت عيناه الكبيرتان. كانتا أكثر جمالاً من أن تكونا لرجل.

على طاولة شينغو جثمت بطاقة موشاة بالأسود. مريض السرطان توفي بطريقة أكثر يسراً من المسار الطبيعي الذي ينتظره المرء من مرض كهذا.

هل أحضر له أحدهم السم؟ لعل شينغو لم يكن الوحيد الذي وجهت له الدعوة. لعل الرجل وجد طريقة أخرى في الانتحار.

كانت هناك أيضاً رسالة من تانيزاكي ايكو. انتقلت إلى محل آخر، تركت كينو المتجر بعد فترة قصيرة، ثم قالت الرسالة إنها تعيش في عزلة في نومازو. كانت تنوي الشروع بعمل تجاري صغير خاص بها، هكذا أخبرت إيكو. تواجهها طوكيو بتعقيدات عديدة.

ورغم أن إيكو لم تشر إلى المسألة، فقد كان واضحاً أن كينو تقاعدت في نومازو كي تلد طفلها.

هل كان شويشي على حق في أنها اتخذت لنفسها طريقاً تسير عليه دون اكتراث بالآخرين، بشويشي أو بشينغو ذاته؟

جلس ساهماً لبعض الوقت، يحدق في أشعة الشمس الساطعة.

ماذا يمكن أن تفعل المرأة ايكيدا، الآن وهي وحيدة؟

خيل إليه أنه راغب في رؤيتها ورؤية إيكو ليتتبع أخبار كينو.

مضى بعد الظهر ليقدم تعازيه لأسرة ضحية السرطان. عرف للمرة الأولى أن الزوجة ماتت قبل سبع سنوات. كان الأب يعيش مع ابنه الأكبر كما يبدو، وهناك خمسة أطفال في البيت أيضاً. لم يلحظ شينغو أن الابن أو الأحفاد يشبهون الميت في شيء.

ساور شينغو الشك في أنه انتحر، لكنه بطبيعة الحال لم يكن قادراً على تقصي الحقيقة. برزت أزهار الأقحوان العملاقة بين الأزهار الموضوعة قرب النعش.

حين تابع البريد مع سكرتيرته، تلقى مكالمة غير متوقعة من كيكوكو. خشي من حدوث شيء مشؤوم.

«أين أنت؟ في طوكيو؟»

«نعم. أزور أهلي». كان صوتها يجلجل بضحكة دافقة. «طلبت أمي أن أحمل معي شيئاً، وها أنذا.. لم أجد شيئاً على الإطلاق. كانت تشعر بالوحدة واشتاقت لرؤيتي».

«أوه؟» تدفقت الرقة في صدره، ولم يكن الصوت الأنثوي البهيج الذي ينساب في الهاتف هو التفسير الكامل لغبطته.

«هل ستذهب إلى البيت سريعاً؟» سألت كيكوكو.

«نعم. وهل الجميع بخير هناك؟»

«في أحسن حال. أظن أنني راغبة في العودة معك».

«لدينا متسع من الوقت، الآن وقد جئت. سوف أخبر شويشي».

«أنا مستعدة للذهاب».

«أرى أن تأتي إلى المكتب في هذه الحالة».

«هل سيكون المجيء مناسباً؟ فكّرت بالانتظار في المحطة».

«كلا. تعالي إلى هنا. هل أصلك بشويشي؟ قد نتناول العشاء ثلاثتنا معاً».

«أخبرتني عاملة المقسم أنه ليس في مكتبه».

«أوه؟»

«سوف أنطلق من فوري».

«أحس شينغو بدفء يجتاحه ويطفح من مسامات جسده، وبدت المدينة وراء النافذة أكثر تألقاً وسطوعاً».

سمك في الخريف

كان صباحاً تشرينياً. أحس شينغو بأن يديه تخطئان في عقد ربطة عنقه.
«انتظر لحظة». وقف صامتاً، واكتسى وجهه بتعبير مضطرب.
«كيف حدث ذلك؟»
عقدها وحاول من جديد، لكنها لم تنجح للمرة الثانية.
سحب طرفي ربطة العنق قريباً من وجهه، حدّق بهما مستغرباً.
«ما هي المشكلة؟»
كانت كيكوكو تقف وراءه ممسكة بمعطفه. دارت من حوله لتقف أمامه.
«لست أتمكن من عقد ربطة عنقي. أمر غريب».
ببطء وتراخ لفّ أحد الطرفين حول اصبعه وحاول سحبه من خلال الأنشوطة، لكن النتيجة كانت تكتّلاً غريباً. كانت كلمة «غريب» أفضل ما يوصف به الأداء، لكن الفزع والأسى ارتسما على وجه شينغو.
يبدو أن التعبير قد أفزع كيكوكو.
«أبتاه!» هتفت كيكوكو.
«ماذا سأفعل؟»
جمد شينغو وكأنه فقد القوة اللازمة لبذل محاولة التذكر.
لم تكن قادرة على الاكتفاء بالتفرج الصامت، فاقتربت منه والمعطف فوق ذراعها.
«كيف تربطها؟»
بذعر بالغ تناولت ربطة العنق. يداها بدتا كامدتين في عيني شينغو العجوزين.

«هذا ما نسيته».
«لكنك تعقدها كل يوم».
«هذا ما أفعله».
لماذا تعين عليه هذا الصباح بالذات أن ينسى العملية التي ظل يكررها كل صباح في الأربعين سنة من الخدمة الوظيفية؟ كان على يديه أن تتحركان آلياً، أن يكون قادراً على عقد ربطة عنقه دونما تفكير.
لاح لشينغو أنه يواجه انهياراً، فقداناً للذات.
«كنت أراقبك كل صباح» قالت كيكوكو بصورة جادة وهي تلف الربطة ثم تبسطها لتبدأ من جديد.
كان يسلم قياده لها كلياً، أشبه بطفل صغير مدلل يشعر بالإهمال.
فاح عطر شعرها.
«لا أستطيع عقدها». توردت كيكوكو.
«ألم يسبق لك أن عقدت ربطة شويشي؟»
«كلا».
«كنت تحلينها فقط، حين يعود إلى البيت مخموراً؟»
تراجعت إلى الوراء قليلاً، ارتجف كتفاها وهي تحدق في الربطة.
«قد تعرف الأم» قالت، مطلقة أنفاسها المحبوسة أخيراً. «أماه!» صاحت منادية الأم. «هلاّ جئت إلى هنا من فضلك؟ يقول الأب أنه لا يستطيع عقد ربطة عنقه».
«ولماذا بحق الله؟» نمّ وجه ياسوكو عن أنها لم تكن من قبل شاهداً على هذا اللغو. «لماذا لا يستطيع عقدها بنفسه؟»
«يقول أنه نسي كيف يفعل ذلك».
«حدث خطأ ما، ونسيت كل شيء. أمر غريب».
«غريب جداً في الحقيقة».
تنحت كيكوكو جانباً وحلّت ياسوكو محلّها.
«أخال أنني لا أستطيع تذكر الطريقة بأكملها أنا أيضاً». رفعت ذقنه إلى الأعلى بلطف وهي تأخذ ربطة العنق بين يديها. أغمض شينغو عينيه.

بدت ياسوكو قريبة من النجاح في تشكيل عقدة.

ربما بسبب الضغط الواقع على أسفل جمجمته، أحس شينغو بدوخة طفيفة، وسديم ذهبي من الثلج يتدفق أمام جفنيه المغمضتين. سديم من الثلج يهبط من إعصار، يتوهج ذهبياً في ضوء المساء. ظن أن بوسعه سماع الدويّ.

فتح عينيه فزعاً. هل يعاني من نزف؟

كانت كيكوكو تحبس أنفاسها، وكانت عيناها معلقتين بأيدي ياسوكو.

إنه إعصار شاهده في المنزل الخريفي خلال طفولته.

«هل تكفي هذه؟»

كانت ياسوكو تضع اللمسات الأخيرة على العقدة.

«نعم».

تلامست أصابعه بأصابعها وهو يحاول تلمّس العقدة.

تذكر أنه حين تخرج من الكلية ونبذ زيّه الجامعي بياقته الضيقة العنق ليرتدي البزّة الوظيفية العادية، كانت شقيقة ياسوكو الجميلة هي التي تعقد له الربطة.

استدار شينغو ليواجه المرآة المعلقة قرب المشجب، متفادياً أعين كيكوكو وياسوكو.

«هذه مناسبة تماماً. حسناً. أدركتني الشيخوخة أخيراً. ليس شعوراً مريحاً أن يكتشف المرء بغتة عجزه عن عقد ربطة عنقه».

لا بد أنها قامت بهذه المهمة مراراً في الأيام الأولى لزواجهما، قياساً على السهولة التي عقدت بها ياسوكو ربطة عنقه. لكنه لم يتذكر متى حدث ذلك.

لعلها، بعد ذهابها لبذل العون إثر وفاة شقيقتها، أخذت تعقد ربطة عنق صهرها الوسيم.

انتعل حذاءه. شيعته كيكوكو المضطربة حتى البوابة.

«ما هي مشاريعك لهذا اليوم؟»

لا شيء محدداً. سأعود مبكراً إلى البيت..

«حاول أن تعود أبكر».

حملق في جبل فوجي الغارق في زرقة الخريف والقطار يعبر أوفونا. تحسّس شينغو ربطة عنقه ثانية. وجد أن الطرفين الأيمن والأيسر متعاكسان. لا بد أن ياسوكو جعلت الطرف الأيسر أطول بسبب مواجهتها له.

حلّ ربطة العنق وعقدها من جديد دونما مشقة.

يصعب عليك تصديق نسيانه للعملية في وقت سابق.

- ٢ -

لم يعد أمراً غير مألوف أن يستقل شينغو وشويشي القطار ذاته في طريق العودة إلى البيت.

جرت العادة أن تسير القطارات على خط يوكوسوكا كل نصف ساعة، لكن الرقم كان يتزايد في ساعات الازدحام إلى قطار كل خمس عشرة دقيقة.

ويحدث أحياناً أن تكون قطارات ساعة الازدحام أقلّ ركاباً من القطارات المعتادة. في محطة طوكيو شغلت فتاة شابة إحدى المقاعد المواجهة لهما.

«هل تحجز هذا المقعد لي من فضلك؟» خاطبت شويشي وهي تضع حقيبة يدوية على المقعد.

«المقعدان معاً؟»

تمتمت بإجابة غير واضحة. حين استدارت وذهبت لم يعد ثمة حرج على وجهها المثقل بالمساحيق. الكتفان الضيقان لمعطفها أصدرا ارتجافات فاتنة، وانساب المعطف على جسد ناعم فتي.

انتابت شينغو الحيرة. كيف عرف شويشي أن الفتاة أرادت حجز المقعدين معاً؟ لا بد أن يمتلك غريزة خاصة لفهم هذه الأشياء. ولكن كيف عرف أن الفتاة تنتظر شخصاً ما؟

الآن وقد سبقه ابنه، فكّر شينغو بدوره أن الفتاة ذهبت لتفتش عن رفيقها.

ولماذا تحدثت إلى شويشي، وهي التي كانت تجلس قرب النافذة المواجهة لشينغو؟ ربما لأنها وجدت نفسها أمامه وهي تقف؛ ثم لا بد من الاعتراف بأن شويشي أقرب منه إلى المرأة.

تطلع شينغو إلى وجه ابنه الجانبي.

كان شويشي يقرأ صحيفة المساء.

صعدت الفتاة إلى القطار. قبضت على إطار الباب المفتوح، ثم استعرضت رصيف المحطة بأنظارها. واضح أن الشخص الذي تنتظره لم يأت. كان معطفها الوردي اللون يتهادى بصورة إيقاعية من الكتف إلى الأذيال عند عودتها إلى مقعدها. كان المعطف مشدوداً على جسدها بزرّ ضخم عند العنق. الجيوب واقعة في جزء سفلي وخلفي منه. تأرجحت من جهة لأخرى، واضعة إحدى يديها في جيبها، وهي تقطع الممر المفضي إلى مقعدها. كانت تسريحة شعرها مناسبة تماماً، رغم ما فيها من غرابة.

جلست في مواجهة شويشي هذه المرة، وأخذت تكرر النظر إلى الباب.

يبدو أنها اختارت المقعد القريب من الممر لأنه يؤمن رؤية أفضل.

لا تزال حقيبتها اليدوية جاثمة على المقعد المواجه لشويشي. كانت أشبه باسطوانة مسطحة، ولها ابزيم ضخم.

لا شك في أن الأقراط الماسية كانت مزيفة، لكنها بدت حسنة الصياغة. الأنف العريض بارز في الوجه الصلب العادي، والفم دقيق جميل. الحاجبان الكثيفان، المائلان للانزلاق نحو الأعلى، كانا مقصوصين قليلاً. خط العينين الواسعتين كان أنيقاً أيضاً. لكنه يختفي قبل بلوغ الزوايا. الفك صلب وقوي. هذه الملامح المتعددة تضاف إلى وجه كان جميلاً بطريقته الخاصة.

كانت قد وضعت في عينيها دهناً ما، وبذل شينغو جهده لتخمين عمر الفتاة.

ازدحم مدخل الباب فجأة. تعلقت به أعين شينغو والفتاة معاً. خمسة

أو ستة رجال، في طريق عودتهم من نزهة ما، صعدوا إلى القطار يحملون أغصان قيقب كبيرة في أذرعتهم.

أوحى لون الأغصان الأحمر الداكن بأرياض الجبال الباردة.

دلّه حديث الرجال الصاخب أنهم كانوا في مجاهل ايشيغو.

«أشجار القيقب في شينشو ستكون الأفضل» هتف شويشي.

لكنه مع ذلك كان أقلّ تفكيراً بأشجار القيقب البرّية الرابضة في جبال دارهم العتيقة، وأكثر تفكيراً بالقيقب المغروس بأوراقه القرمزية، بين الأكاليل التي وردت عند وفاة شقيقة ياسوكو.

لم يكن شويشي قد ولد بالطبع.

حدق في الأوراق الحمراء التي تكاد تنطق مبشرة بقدوم الفصل.

استجمع نفسه. جلس والد الفتاة أمامه.

كانت تنتظر أباها إذن! جلبت الفكرة بعض الارتياح لشينغو.

للأب نفس الأنف العريض، كبير الشبه بها في الحقيقة، حتى لتبدو المقارنة طريفة. الشعر متشابه أيضاً. كان الأب يضع عدسات ذات اطار أسود.

كالغرباء كانا... لم يتبادل الأب والابنة الحديث ولم يلتفت أي منهما للآخر. استسلم الأب للنوم قبل أن يغادروا مشارف طوكيو. أغمضت الفتاة عينيها أيضاً، حتى الرموش بدت متشابهة.

لم يكن شويشي يشبه شينغو إلى هذا الحد.

كان ينتظر أن يتبادلا أية ملاحظة، وأحس شينغو بالحسد من هذه اللامبالاة التامة.

أسرته آمنة دون شك.

ثم انتابه الفزع حين نزلت الفتاة في يوكوهاما لوحدها. لم يكونا في الحقيقة أب وابنته، لكنهما غريبان تماماً!

أحس أنه تعرض للخداع.

فتح الرجل عينيه ببطء حين توقفوا في يوكوهاما، ثم عاود النوم بخمول.

الآن وقد مضت الفتاة أخذ الرجل المتوسط العمر المواجه لشينغو يبدو كسولاً مهملاً.

- ٣ -

غمز شينغو شويشي بمرفقه. «لم يكونا أب وابنته إذن».
لم يظهر شويشي إشارة على اهتمامه بقدر ما كان شينغو يأمل.
«رأيتهما، أليس كذلك؟»
أومأ شينغو بفتور.
«أمر غريب حقاً».
لم يتضح أن شويشي يرى في الأمر كل هذه الغرابة.
«كان يلوح عليهما ذلك».
«نعم. أظن ذلك».
كان الرجل نائماً، وقد يبتلع القطار صوت شينغو؛ لكنه مع ذلك لم يتقبل الحديث عن الرجل بصوت عالٍ وهو جالس أمامهما.
أشاح شينغو بوجهه. شعر بالذنب حتى لمجرد التحديق به. انتابه الحزن حين فعل ذلك.
كان حزناً على الرجل أولاً، ثم أصبح حزناً على شينغو نفسه.
القطار ينهب المسافة الطويلة بين هودوغايا وتوتسوكا. أخذت سماء الخريف تغرق في العتمة.
كان الرجل أصغر من شينغو، لكنه في أواخر خمسيناته أيضاً. والفتاة، أهي من عمر كيكوكو؟ لم يكن فيها شيء قريب من نقاء عيني كيكوكو.
فكّر شينغو: كيف حدث أنها لم تكن ابنة الرجل؟
زاد استغرابه كلما أمعن في التفكير بالمشكلة.
في العالم أناس يشبهون بعضهم البعض حتى يكاد المرء يعتبرهما آباء وأبناء. ولكن يصعب العثور على عدد كبير من هؤلاء. ربما كان في العالم كله رجل واحد يشبه الفتاة، وفتاة واحدة تشبه الرجل. واحد فقط لكل منهما؛ وربما لم يكن في العالم كله سوى هذا الثنائي. عاشا غريبين، دون

إيحاء بالرابطة بينهما. ولعلهما أيضاً يجهلان وجود كل منهما.

وبحكم المصادفة فقط التقيا في القطار ذاته. جاءا معاً للمرة الأولى، ولعلهما لن يلتقيا من جديد أبداً. ثلاثون دقيقة في مدى الحياة الإنسانية. افترقا دون أن يتبادلا كلمة واحدة. جلسا جنباً إلى جنب، لم يتطلعا إلى بعضهما، وما كان بمقدورهما ملاحظة الشبه. ثم افترقا، صانعَيْن مشاركين في معجزة يجهلانها.

والوحيد الذي تصعقه غرابة الموقف بأسره هو الدخيل الغريب.

تساءل، وهو يشهد المصادفة، هل يشترك هو أيضاً بالمعجزة؟

ما المعنى وراء خلق امرأة ورجل يشبهان أباً وابنة، ووضعهما معاً جنباً إلى جنب لنصف ساعة في حياتهما بأكملها، ثم دفع شينغو لرؤيتهما؟

هناك جلست، ركبتها قريبة من ركبة الرجل الذي لا يبدو سوى أنه أبوها، والسبب الوحيد هو أن من تنتظره لم يحضر.

أهكذا مسار الحياة الإنسانية؟ لم يملك شينغو سوى التمتمة لنفسه.

نهض الرجل باضطراب حين توقف القطار في توتسوكا. تناول قبعته من رفّ الحقائب، سقطت من يده في حجر شينغو. التقطها شينغو وأعطاه إياها.

«شكراً لك».

نفض الغبار عنها واعتمرها دون مشقة.

«غريب حقاً». أحس شينغو أنه يمتلك حرية الكلام أخيراً. «كانا غريبين».

«كانا متشابهين، لكهنما اختلفا في النهوض».

«في النهوض؟»

«اعتنت المرأة بمظهرها وخرج الرحل ركاماً متداعياً».

«ولكن هذا هو الحال دائماً. الفتيات في أحسن حلة والآباء في الأسمال».

«كانت ثيابهما على طرفي نقيض تماماً».

توجب على شينغو أن يومىء موافقاً. «نزلت المرأة في يوكوهاما. وفي اللحظة التي عادت فيها شعرت أن الرجل ينهار».

«كان منهاراً منذ البداية».

«لكن الأمر حدث بسرعة. كان محكماً بطريقة ما. كان أصغر مني بسنوات عديدة».

«حسناً، هذا لا شك فيه». حوّل شويشي المسألة إلى شكل النكتة. «يبدو العجوز في صورة أفضل حين يخرج برفقة فتاة شابة. كيف الحال معك يا أبي؟»

«أنتم الشباب تحسدوننا».

«لا شيء من ذلك. هناك شيء مثير للضيق في رجل وسيم يرافق فتاة جميلة، وتشعر بالأسف لمرأى رجل وسيم مع فتاة جميلة. دعنا نترك الجميلات للشيوخ».

لكن غرابة الثنائي لازمت شينغو.

«لعلهما حقاً أب وابنة. لعلها فتاة نبذها أبوها وتركها وراءه في بيت ما. لم يلتقيا بعد ذلك أبداً، ولا يعرفان أنهما أب وابنة».

نظر شويشي بعيداً.

فزع شينغو قليلاً من ملاحظته هو بالذات.

لقد قال ما يشبه الغمز من الفتاة، وعليه متابعة الكلام. «عشرون سنة من الآن ويصيبك ما يصيبني هذه اللحظة».

«هذا ما كنت تحاول قوله، أليس كذلك؟ حسناً، لست ذلك النوع العاطفي المؤمن بالقضاء والقدر. لقد اعتادت الطلقات على الأزيز قرب أذني، ولم تلمسني واحدة منها. قد أكون تركت ورائي طفلاً أو إثنين في الجزر أو في الصين. ليس عبثاً على الاطلاق، أن تلتقي بابنك في السفاح ولا تتعرف عليه، حين تكون الرصاصات قد لعلعت طويلاً قرب أذنيك. ليس ثمة تهديد لحياتك. ثم لا يوجد ما يضمن إنجاب كينو للطفل. وإذا قالت أنه ليس مني فهذا بالنسبة لي. . .».

«ليس زمن الحرب شبيهاً بزمن السلم».

«ولكن قد تكون حرب أخرى في طريقها للوقوع. ولعل الأخرى ما تزال تطارد أناساً مثلي لاصطيادهم. إنها لا تزال في مكان ما داخلنا».

تحدث شويشي بخشونة وقسوة. «هناك أمر غريب بعض الشيء يكتنفها. يجد المرء نفسه مشدوداً إليها، فيواصل تخيلاته مراراً وتكراراً. الرجال يقعون دائماً في الشرك حين تكون المرأة مختلفة قليلاً».

«وهذا صحيح تماماً، أليس كذلك؟ لأن المرأة مختلفة قليلاً، تتسبب أنت في حملها ثم تتركها لتتولى هي الطفل؟»

«لا أريده. إنها المرأة ذاتها».

غرق شينغو في الصمت.

«المرأة التي هبطت في يوكوهاما، إنها عنصر حر. حرة تماماً».

«حرّة؟»

«ليست متزوجة، وهي تأتي حالما تشير إليها. قد تلجأ إلى التظاهر بشيء، لكنها لا تعيش حياة لائقة، وهي متعبة من الاحساس بفقدان الأمان».

تضايق شينغو كثيراً من تلك الكلمات. «إلى هذا الحد كنت تنحدر إذن».

«كيكوكو حرة أيضاً». كان التحدي يطل من نبرة كلامه. «إنها ليست جندياً وهي ليست سجينة».

«ماذا تقصد من هذا الحديث عن زوجتك أنت؟ هل قلت لها ذلك؟»

«لعلك تخبرها به أنت».

«أتريدني أن أطردها؟» صارع شينغو كي يسيطر على تهدج صوته.

«كلا على الإطلاق». كان شويشي بدوره حريصاً على ضبط صوته. «كنا نقول إن الفتاة التي نزلت في يوكوهاما حرة. ألا تفترض أنهما أب وابنة لأنها كانت في عمر كيكوكو؟»

استولت الدهشة على شينغو. . . «أقول فقط إنهما لو لم يكونا أباً وابنته فهما متشابهان إلى حد المعجزة».

«ليس أمراً خارقاً إلى الحد الذي يترك هذا الانطباع لديك».

«لقد كان كذلك بالنسبة لي». لكنه وقد أوضح الآن أن كيكوكو **ماثلة** في ذهنه، أحس بتوتر وضيق في حنجرته.

نزل الرجال الذين يحملون أغصان القيقب في أوفونا.

«لماذا لا نذهب إلى شينشو لرؤية أشجار القيقب؟» قال شينغو **متطلعاً** إلى الأغصان وهي تتهادى على الرصيف. «برفقة ياسوكو وكيكوكو أيضاً».

«لست مهتماً كثيراً بأوراق القيقب».

«أود رؤية الجبال العتيقة مرة أخرى. حلمت ياسوكو أن بيتها يتقوض».

«إنه في حالة سيئة».

«علينا أن نعيد صيانته ما دمنا نملك الوقت».

«الإطار قوي، وهو لن يتقوض تماماً. ولكن لو باشرت في صيانته فماذا سيكون الغرض؟»

«قد نرغب في مكان نتقاعد فيه. ولعلك ستضطر ذات يوم لمغادرة المدينة أنت بالذات».

«سأقف وراء هذا الزمن واراقب البيت. بمقدور كيكوكو الذهاب لإلقاء نظرة على المكان العتيق. لم تره من قبل».

«كيف حال كيكوكو هذه الأيام؟»

«حسناً، تبدو ضجرة بعض الشيء، خصوصاً وقد انتهت علاقتي الأخيرة».

ابتسم شينغو بوهن.

- ٤ -

حلّ نهار الأحد من جديد، ولاح أن شويشي قد قصد بحيرة السمك مرة أخرى.

رتّب شينغو صفاً من الأرائك التي كانت جاثمة في الصالة، اضطجع تحت شمس الخريف الدافئة، مسنداً رأسه على ذراعه.

كانت تيرو تشمّس نفسها على العتبة الحجرية في الأسفل.

ياسوكو في غرفة الإفطار تقرأ كومة الصحف الراقدة على ركبتها، تقلب اعداداً يعود بعضها إلى عشرة أيام خلت.

كانت تطلع شينغو على كل خبر مثير تصادفه. حدث الأمر مراراً حتى أصبحت إجابات شينغو رتيبة باهتة.

«أتمنى لو أقلعنا عن عادة قراءة الصحف في أيام الآحاد» قال ملتفتاً نحوها بكسل.

كيكوكو تجمع مجموعة من ثمار اليقطين الحمراء في فجوة جدار القاعة.

«هل عثرت عليها في الجبل؟»

«نعم. كانت تبدو جميلة للغاية».

«هل بقي منها المزيد؟»

«القليل فقط. خمس ثمار أو نحوها».

تدلت ثلاث يقطينات من غصن النبات المتعرش الذي تحمله.

في كل صباح، كان بوسع شينغو وهو واقف قرب المغسلة أن يرى اليقطين الأحمر فوق الجبل، عالياً فوق عشب الخيزران. وهنا داخل، القاعة كانت اليقطينات أشدّ توهجاً في احمرارها.

أصبحت كيكوكو بدورها في مرمى بصره.

هناك تفتح لا يوصف في الخط الممتد بين فكها وعنقها. لم يكن ذاك نتاج جيل واحد، فكّر شينغو بشيء من الحزن.

لعل طراز شعرها أطلق العنق والرقبة، فبدا وجهها أنحف قليلاً.

كان شينغو يدرك بطبيعة الحال جمال ذلك الخط والعنق الطويل الرشيق. هل يبدو أكثر جمالاً بسبب المسافة غير القصيرة والزاوية التي ينظر من خلالها؟

لعل شعاع الخريف أضاف شيئاً ما.

ذلك الخط من الفك إلى العنق نطق أولاً بالطراوة الأنثوية. أخذ يتأرجح قليلاً، وسرعان ما يختفي ذلك العنصر الأنثوي الفتي.

«واحدة أخرى فقط» صاحت ياسوكو. «هنا أمر طريف».

«أوه؟»

«إنه عن أمريكا. مكان يدعى بوفالو في نيويورك. بوفالو: قطع رجل أذنه اليسرى في حادث سير، وذهب إلى الطبيب. هرع الطبيب إلى مكان الحادث فتصادف أنه عثر على الأذن، تقطر دماً، فألصقها ثانية. إنها تعمل بصورة جيدة منذ ذلك الحين».

«يقولون إن المرء يستطيع إعادة اصبعه إذا تدارك الأمر بسرعة».

«أوه؟» واصلت القراءة لبعض الوقت، وبدت تتذكر شيئاً. «أظن أن الأمر صحيح بالنسبة للزوج والزوجة أيضاً. إذا التأم شملهما بسرعة كافية فسيلتصقان ببعضهما. لكن زمناً طويلاً قد انصرم الآن».

«ماذا تقصدين؟» قال شينغو دون أن يعني طرح السؤال.

«ألا تظن أن هذا يسري على حالة فوساكو؟»

«ايهارا اختفى» أجاب شينغو بخفة، «ولا نعرف ما إذا كان ميتاً أم حياً».

«أوه، نستطيع التأكد من ذلك إذا حاولنا. ولكن ماذا سيحدث؟»

«لا تزال الجدة نادمة إذن. اقلعي عن ندمك. لقد أرسلنا قسيمة الطلاق منذ زمن بعيد».

«لقد كنت ماهرة في الإقلاع عن أشياء عديدة منذ صباي. كل ما في الأمر أنني أجدها أمامي مع طفلتيها هنا في البيت، وأتساءل عما سيحل بهن».

لم يجب شينغو.

«ليست فوساكو أجمل فتاة في العالم. وإذا افترضنا أنها ستتزوج من جديد فسيصبح عسيراً على كيكوكو الاحتفاظ بالطفلتين في كنفها».

«ستعيش كيكوكو مع شويشي في مكان آخر لا محالة. وستكون تربية الطفلتين من مهام الجدة».

«لا أظن أن أحداً يتهمني بالكسل. ولكن كم تقدر عمري؟»

«أبذلي ما بوسعك ودعي ما يتبقى للآلهة. أين فوساكو؟»

«ذهبوا لرؤية بوذا. الأطفال غريبون حقاً. كادت ساتوكو أن تسقط تحت

العجلات في طريق عودتها ذات مرة، وهي لا تزال تحب المكان. إنها تنوح دائماً للذهاب إلى هناك».

«أشك في أن بوذا نفسه هو الذي يجذبها».

«يبدو ذلك».

«فكري جيداً».

«ألا تظن أن فوساكو ستعود للريف ثانية؟ قد يجعلونها وريثتهم».

«ليسوا بحاجة إلى وريثة» قال شينغو بحزم.

واصلت ياسوكو قراءة صحفها بصمت.

«حكاية الأم الخاصة بالأذن تذكرني بشيء». كانت كيكوكو هي المتكلمة هذه المرة. «هل تذكر كيف أعربت ذات يوم عن رغبتك في تسليم رأسك لمشفى ينظفه ويبعث الحياة فيه؟»

«كنا نرقب عباد الشمس في أسفل الشارع. أظن أن حاجتي باتت ماسة بعد أن نسيت كيف أعقد ربطة عنقي. لن يمر زمن طويل حتى أقرأ الصحف رأساً على عقب دون انتباه».

«غالباً ما أفكر في الأمر. كيف سيكون حالك بعد أن تترك رأسك في المشفى؟»

نظر شينغو إليها. «حسناً، إنه أشبه بترك الرأس في مشفى كل مساء بهدف قضاء ليلة هانئة كما أظن. لعل السبب يعود إلى أنني أصبحت عجوزاً، لكني أبصر أحلاماً كثيرة. حين يجف كل شيء حتى الألم تغزوني الأحلام التي تواصل اتمام الواقع. يبدو أنني أذكر قراءة هذا البيت في قصيدة ما. ليس لأن أحلامي تواصل كشف الواقع».

كانت كيكوكو تستعرض ترتيباتها التي فرغت منها.

حدق شينغو في اليقطين. «كيكوكو، لماذا لا تذهبان أنت وشويشي للعيش في مكان آخر؟»

رفعت كيكوكو بصرها في دهشة، واقتربت منه. «سأكون خائفة». كان صوتها أخفض من أن تسمعه ياسوكو. «إنني أخافه».

«هل تنوين هجره؟»

«لو حدث ذلك فسأكون قادرة على الاعتناء بك كما أحب». قالت بوقار.

«هذا من سوء حظك».

«ليس سوء حظ حين يقوم به المرء لأنه راغب فيه».

ارتجف شينغو. كانت الملاحظة أشبه بالجزء الأول من تعبير حار. أحس بخطر ما بين طياتها.

«أنت تجهدين كثيراً في العناية بي، ولكن ألست تجعلينني لا أكاد أفهم شويشي؟ أظن أن هذا سيقصيه عنك أكثر فأكثر».

«هناك أشياء لا أفهمها فيه». بدا الوجه الأبيض متوسلاً. «يحدث أحياناً أن أشعر برعب مباغت لا أعرف إزاءه ما أفعل».

«أعرف. تغير بعد عودته من الحرب. يلوح عليه أحياناً أنه يتصرف عامداً حتى ليصعب علي أنا نفسي تخمين ما يدور في رأسه. ولكن لو التصقت به مثل تلك الأذن، التي تقطر دماً، فلعل الأشياء تستوي وتتحسن».

كانت كيكوكو ترمقه بنظراتها.

«هل قال إنك عنصر حر؟»

«كلا». نظرت إليه بفضول. «عنصر حر؟»

«سألته بنفسي عما يعنيه بهذا القول في وصف زوجته. أظنه يقصد القول بأن عليك أن تكوني أكثر حرية. سوف أضع الترتيبات التي تكفل تحررك».

«هل تقصد تحرري منك؟»

«نعم. طلب مني إخبارك بأنك حرة».

في تلك اللحظة انقض صوت من السماء. لاح لشينغو أنه سمع صوتاً ينقض هابطاً من السماء.

قطعت خمس أو ست حمائم خطاً قطرياً قصيراً عبر الحديقة.

سمعتها كيكوكو أيضاً. مضت إلى حافة الشرفة.

«هل أنا حرة إذن؟» أخذت ترقب الحمائم في تحليقها عالياً والدمع يخنق صوتها.

غادرت الكلبة تيرو العتبة لتهرول في الحديقة مقتفية أثر الاجنحة.

- ٥ -

كان أعضاء الأسرة السبعة حاضرين على العشاء.

فوساكو وطفلتاها أصبحن الآن أعضاء في الأسرة دون شك.

«لم يبق سوى ثلاث سمكات ترويت في المخزن» قالت كيكوكو. «واحدة لساتوكو»، وضعت السمكات أمام شينغو وشويشي وساتوكو.

«ليس الترويت للأطفال». مدت فوساكو يدها. «قدِّميه للجدة».

«كلا»، تشبثت ساتوكو بالطبق.

«كم هي كبيرة»، لاحظت ياسوكو بهدوء. «آخر السمك لهذا العام كما أتخيل. سأتناول قطعة مع الجد ولن أكون بحاجة لسمكتك. ستأكل كيكوكو قطعة من سمكة شويشي».

شكلوا ثلاثة أجنحة منفصلة. ربما كان عليهم الإقامة في ثلاثة بيوت منفصلة. تركز اهتمام ساتوكو على سمكة الترويت.

«أهي طيبة المذاق؟» سألت فوساكو مقطبة. «ولكن أي فوضى في تناولها!» غرفت البطارخ وأعطتها لكونيكو، الطفلة الصغرى. لم تعترض ساتوكو.

«البطارخ» تمتمت فوساكو وهي تعزل قسماً من البطارخ في طبق شينغو.

«في الأيام السالفة حين كنا نقيم في الريف، دفعتني شقيقة ياسوكو إلى الاهتمام بكتابة الهايكو. هناك تعابير مختلفة عن الترويت. هناك ترويت الخريف، وترويت نازل وترويت صدىء، وغير ذلك». اختلس شينغو نظرة إلى ياسوكو وتابع. «الترويت النازل والترويت الصدىء هما الترويت الذي وضع بيوضه. إنه يهبط إلى قاع البحر منهكاً، مرهقاً».

«مثلي تماماً»، كانت استجابة فوساكو فورية. «لست جديرة بالنظر إليّ كسمكة ترويت معافاة».

تظاهر شينغو بعدم سماعها. «ترويت الخريف هو الذي يسلم نفسه كلياً للماء. الترويت السابح إلى القيعان الضحلة جاهلاً أنه ميت لا محالة. تلك الأنواع العتيقة من القصائد. أظن أنها تنطبق عليّ».

«عليّ أنا»، قالت ياسوكو. «هل تموت حين تضع بيوضها وترحل إلى أعماق البحر؟»

«أظن أن هذا حالها. رغم ذلك هناك ترويت يقضي الشتاء في البحيرات العميقة أحياناً. إنها تدعى الترويت المقيم».

«ربما كنت شبيهة بهذا النوع».

«أظن أنني لن أكون قادرة على البقاء»، قالت فوساكو.

«لكن وزنك، ازداد منذ مجيئك إلى البيت» قالت ياسوكو ناظرة إلى ابنتها. «وقد تحسنت صحتك وتورد وجهك».

«لست راغبة في زيادة وزني».

«الوجود في البيت أشبه بالاختباء في بحيرة عميقة»، قال شويشي.

«لست راغبة في البقاء كل هذا الوقت. أفضل الغوص في البحر. ساتوكو!» ارتفع صوتها. «لم يتبق سوى العظام. توقفي عن قضمها».

«حديثك عن الترويت أفسد نكهة الترويت»، قالت ياسوكو وعلى أساريرها تعبير ضاحك.

«أطرقت فوساكو، وأخذ فمها يرتعش بعصبية، ثم استجمعت شتات نفسها لتنطق الكلمات: «أبي، ألن تفتح لي متجراً صغيراً؟ متجر لأدوات التجميل، القرطاسية، أي متجر. لا يهمني في أية بقعة من المدينة. لا يهمني إذا كان كشكاً صغيراً. مشرب ربما».

«أتظنين نفسك قادرة على إدارة ذلك النوع من الأعمال؟» سأل شويشي بدهشة.

«سوف أنجح. لا يجيء الناس لشرب عيون المرأة. يأتون لشرب الساكي. هل تقارنني بزوجتك الفاتنة؟»

«لم أقصد ذلك على الإطلاق».

«تستطيع ذلك بالطبع»، أردفت كيكوكو لتزيد في دهشة الآخرين. «وإذا

قررت المحاولة سأطلب منها السماح لي بمعاونتها».
«خطة رائعة حقاً» قال شويشي.
غرقت طاولة العشاء في الصمت.
وحدها كيكوكو التي تورد وجهها بين الجميع. تدفق اللون القرمزي حتى أذنيها.
«ما رأيك في نهار الأحد القادم؟» قال شينغو. «كنت أفكر أنه سيكون نهاراً رائعاً لو قضيناه في الريف لرؤية أشجار القيقب».
تألقت عينا ياسوكو.
«كيكوكو أيضاً. لم يقع بصرها على منزلنا العتيق».
«أود ذلك».
جلس شويشي وفوساكو يلفهما صمت ساهم.
«من سيحرس البيت؟» سألت فوساكو أخيراً.
«سوف أفعل»، قال شويشي.
«كلا، سأبقى أنا. ولكني يا أبي أود سماع ردّك قبل ذهابك».
«سأخبرك بقراري» قال شينغو. كان يفكر بكينو التي قيل أنها فتحت متجراً للأزياء في نومازو، والطفل ما زال في أحشائها.
حالما انتهت الوجبة غادر شويشي المائدة.
نهض شينغو أيضاً، يحك تشنجاً في ظهره. قلب بصره ساهماً في غرفة المعيشة وأنار الضوء.
«يقطيناتك تذوي»، هتف بكيكوكو. «تبدو ثقيلة للغاية».
لا بد أنها لم تكن تسمعه وسط ضجيج الأطباق.



صدرت « ضجيج الجبل » عام ١٩٥٤ للمرة الأولى ــ وهي الرواية التي تعكس على أتم وجه تلك الروح الاسرة التي انفرد بها ياسوناري كاواباتا في الأدب الياباني الحديث. . . فهي قصيدة مديح لكل ما هو انساني في الكون، ولأي جانب ينتهي في محصلته الأخيرة إلى رصيد الانسان وقوته واستمراره.

فاز ياسوناري كاواباتا بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٦٨ بسبب « جمعه في سلسلة رواياته بين البحث الروائي الشاعري عن طبائع الحب والعلاقة الأسرية واليومية وبين اغتراب الفرد في ذلك كله ». ولد كاواباتا عام ١٨٩٩، واسترعى الانتباه بروايته الأولى « راقصة ايزو » الصادرة عام ١٩٢٥، ثم توالت أعماله العبقرية التي كرّسته في مصاف أعظم روائيي اليابان.

(من مقدمة المترجم)

دار التنوير للطباعة والنشر ص . ب : ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان .

الثمن ٢٢ ليرة لبنانية أو ما يعادلها